مجلة مجمع اللغة العربية



الجزء الرابع والستون
رمضان ١٤٠٩هـ
مايو ١٩٨٩م



مجمع اللغة العربية بالقاهرة
١٥ شارع عزيز أباظة
المعهد السويسرى سابقا) بالزمالك

مجلة مجمع اللغة العربية

(تصدر مرتين في السنة)

الجزء الرابع والستون

رمضان ١٤٠٩هـ - مايو ١٩٨٩م

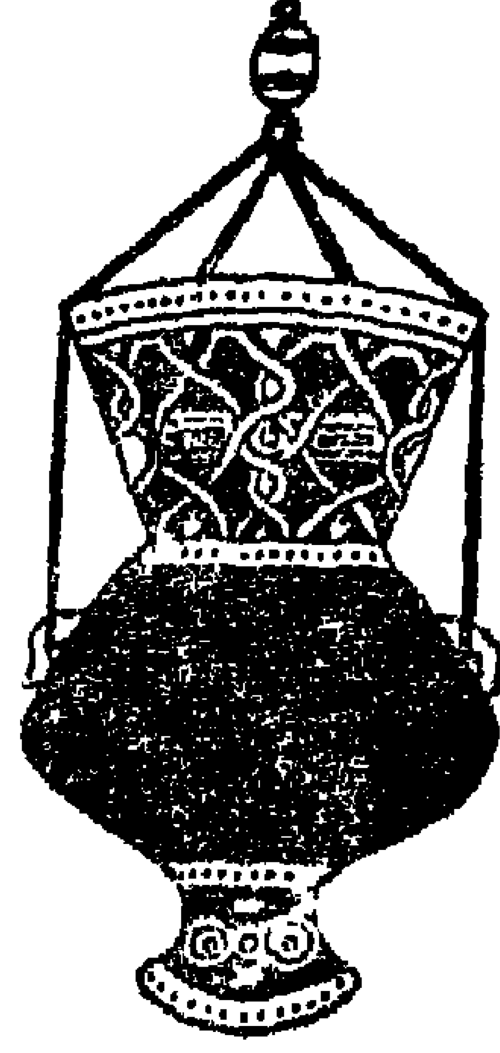
المشرف على المجلة :

الدكتور مهدي علام

رئيس التحرير

إبراهيم الترزي

الفهرس



بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

للأستاذ إبراهيم الترزي

ألفاظ الحضارة أشد ارتباطاً بالإنسان ، وأكثر استعمالا فى حياته ، من غيرها من الألفاظ . . لأنها تتصل بشئونه اليومية فى البيت ، والشارع ، ومحل العمل ، ومعاهد التعليم ، ونوادى الرياضة ، والأسواق . . . وكل مايتصل بحياة الإنسان من مأكل ومشرب وملبس ومسكن . . وحرفة وتجارة . . وزراعة وصناعة .

وبهذا تختلف ألفاظ الحضارة باختلاف البيئات والبلدان ، والأزمان.

فألفاظ الحضارة فى البوادى غيرها فى الحواضر . . وحول شواطىء الأنهار غيرها على سواحل البحار .

كما أنها تختلف من عصر إلى عصر . . لأن حضارة الإنسان فى تطور متواصل ؛ بما يستحدث من وسائل المعيشة وأدواتها ، وماقد يطرأ على بعض عاداته وظواهر حياته فى أسرته ومجتمعه من تغيير يقتضيه التطوير الحضارى ، الذى يمتد إلى مختلف مناحى الحياة ، فى نشاطها الإنسانى المتجدد . .

ولكل ماسبق منا ختلاف وتطور عدل المجمع عن تسميتها « مصطلحات الحضارة » — كما يخطىء البعض فى ذلك — إلى تسميتها « ألفاظ الحضارة » ورأى أن يجعل موضوعه المقترح لمؤتمر هذه الدورة المجمعية (الخامسة والخمسين) : « ألفاظ الحضارة فى الوطن العربى » . . وهو يهدف بالبحوث

التى تعد فى هذا الموضوع إلى وضع معجم موحد لألفاظ الحضارة فى الوطن العربى .

ولايفوتنى التنويه بأن المجمع شغل نفسه بألفاظ الحضارة منذ منتصف الأربعينيات . . وبالجهد الكبير الذى بذله المرحوم الأستاذ محمود تيمور فى هذا السبيل ، وقد كان مقرراً للجنة ألفاظ الحضارة ، وتابع مسيرته المرحوم الأستاذ بدر الدين أبو غازى . . حتى أخرج عن المجمع « معجم ألفاظ الحضارة ومصطلحات الفنون » .

إبراهيم الترزى
رئيس التحرير

١ - كلمة الدكتور أحمد فتحي سرور
وزير التعليم

الأستاذ الجليل رئيس المجمع :

الأساتذة الأعضاء الأجلاء :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته .

يشرفني أن أفتتح مؤتمركم ، وأن أحييكم وأرحب بكم ، وأخص بالتحية والترحيب الأعضاء العرب ، وغير العرب ، الذين تركوا ما لديهم من شواغل في بلادهم ، وحرصوا على القدوم إلى القاهرة ؛ ليشاركوا زملاءهم الأعضاء المصريين في أعمال مؤتمرهم المجمعي .

أيها الأساتذة الأجلاء :

ها هي دوراتكم المجمعية تتواصل عاماً بعد عام ، حتى تبلغ عامها الخامس والخمسين وأنتم عاكفون على بحث كل ما يتصل بلغتنا العربية من قريب وبعيد ، والتصدي لمشكلاتها وقضاياها في مختلف المجالات . ثم تصدرون القرارات اللغوية بشأن العديد من قواعد اللغة وأصولها ؛ تيسيراً على الكاتبين والقارئين . . وبشأن الألفاظ والأساليب المستحدثة التي تُرمى بالخطأ والخروج على اللغة ، فتجيزون منها ما لا يخرج على الضوابط اللغوية ، أو ماله أصل لغوي صحيح ، وفي ذلك أيضاً تيسير على الكاتبين والقارئين ، بإثراء لغتنا المعاصرة بهذه الألفاظ والأساليب واستحداث ما يجرى منها على سنن العربية وضوابطها العامة .

ولم يكن الرسم الهجائي للكلمات العربية بعيداً عن بحوثكم ودراساتكم ، كما لم يكن كذلك الرسم الطباعي للحروف العربية . . ولا يفوتني التنويه هنا بأن جامعة الدول العربية حين اتجهت — منذ سنوات — إلى معالجة قضية رسوم الحروف العربية في مجال الطباعة ، لم تجد خيراً من مشروع الكتابة العربية الذي أعده مجمعكم ، ليكون النموذج الأمثل والأوفى في هذا المجال .

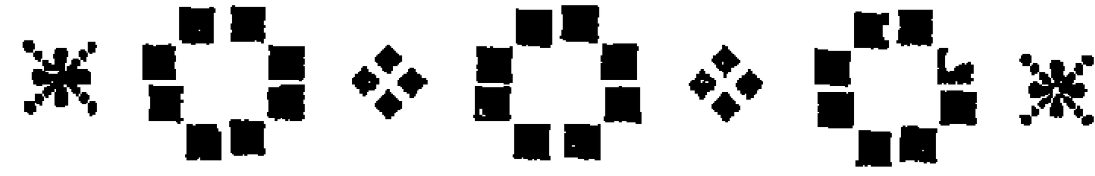
ولا يفوتني التنوية كذلك بأن بعض دور الطباعة والصحف قد عمدت إلى تطبيق المشروع المجمعي ، وفي طليعتها صحيفة « الأهرام » التي أعلنت ذلك ، مشفوعاً بالإشادة والعرفان لمجمعكم العريق الجليل .

وها أنتم فى مؤتمركم هذا تعمدون إلى معالجة قضية ذات أهمية بالغة فى عالمنا العربى وهى قضية « ألفاظ الحضارة العربية » فى منظورها العربى الصحيح .. وهى قضية ذات شأن جليل وخطير ؛ حيث تختلف بعض هذه الألفاظ باختلاف البيئات العربية ، ومجتمعاتها ، وتاريخها ، وروافدها الحضارية فى مختلف بلدان العالم العربى .. مما يجعل الحاجة ماسة وملحة للتقريب بين ألفاظ الحضارة العربية ، عن طـريق البحث والدراسة . : ثم العمل على تحقيق ما يصدر بشأن ذلك من قرارات وتوصيات .

إن اللغة العربية هى وسيلة التعبير عن حضارتنا العربية . ومهما اختلفت ألفاظها فإنه يجب المحافظة على جوهر المعنى الحضارى الأصيل الذى تعبر عنه ، الأمر الذى يعبر عن أهمية العمل الجليل الذى أنتم مقبلون عليه . وإننا نتطلع إلى جهودكم فى هذا السبيل بكل الأمل والتقدير .

وفقكم الله تعالى ، وحفظكم حماة ورعاة للغتنا العربية الخالدة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



٢ - كلمة افتتاح المؤتمر

للأستاذ الدكتور ابراهيم مدكور
رئيس المجمع

أيها السادة :

إن مؤتمرنا هذا خاتمة دورتنا المجمعية السنوية ، وما أسعدها من خاتمة ، فإنها تتيح لنا فرصة لقاء زملائنا العرب والمستعربين من أعضاء عاملين ومراسلين ، نسعد بهم حقا لأنهم يسهمون معنا عن قرب فى خدمة اللغة العربية وإن كان لا يفوتنا أن نستعين بهم عن بعد فى كل ما يتصل برسالتنا المشتركة ، ونحاول دائماً أن نبعث إليهم ببعض أعمالنا التمهيدية فى لجاننا لكى يبدوا رأيهم فيها ، ويلبى كثير منهم هذه الدعوة ، ويدلون بدلوهم وكأنهم شهود وحضور ، ولهم بوجه خاص إسهام فى « لجنة المعجم الكبير » التى يغذونها بملاحظاتهم وإضافاتهم ، ولهم فى لقائنا السنوى هذا ما يعين على تدارك ما فات ، واستكمال ما تدعو إليه الحاجة . وقد درجنا على أن نضع تحت أنظارهم كل ما اتخذه مجلسنا من قرارات وما أبداه من توصيات طوال العام المجمعى .

وإلى جانب الرسالة اللغوية البحتة التى يضطلع بها المجمع فى لجانه الأدبية واللغوية يعنى بأمرين هامين هما « لغة العلم » « وألفاظ الحضارة » ولمجمعنا إسهام ملحوظ فى هذه اللغة ، وطوال ربع القرن الأخير أقر ثروة علمية لها وزنها ، أخرجها أولا فى مجموعات مصطلحاته التى تصدر كل عام وقد وصل عددها إلى ثمان وعشرين مجموعة .

وبدأ منذ سنوات فى إخراج معجمات متخصصة أذكر من بينها معجم الفيزيقا النووية ، ومعجم الفيزيقا بوجه عام والمعجم الفلسفى ، ويحرص على أن يتابع هذه السلسلة من المعجمات العلمية آملا أن ينتهى بها إلى لغة علمية واحدة فى العالم العربى جميعه كما كان الشأن إبان الحضارة الإسلامية ولا شك فى أننا نسعى جميعا إلى توحيد لغة العلم شرقا وغربا والطلب على هذا اللون من التأليف شديد وملحوظ .

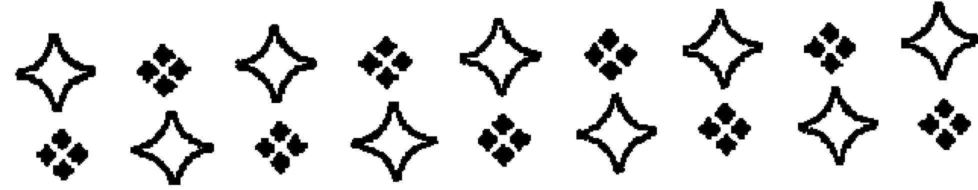
ولم يفت مجمعنا فى العقد الثانى من تاريخ إنشائه أن يتجه نحو ما أسماه « لغة الحياة العامة » وهذه تسمية قال بها « لطفى السيد » أستاذ الجيل فى الأربعينيات وحاول أن يشكل لجانا لجمع هذه اللغة من مستعمليها وناطقيها فى المصنع والمتجر والنادى ومظاهر الحياة المختلفة ، وترتب على ذلك تكوين لجنة خاصة هى « لجنة ألفاظ الحضارة والفنون » وتعمل هذه اللجنة بانتظام ويسهم فيها أعضاء قدروا مهمتهم وعرفوا كيف يواجهونها ، وأذكر من بينهم المرحوم « محمود تيمور » الذى يعد

يحق من مؤسسى « ألفاظ الحضارة » وسار على نهجه زملاء آخرون أمثال « محمد خلف الله أحمد » و « بدر الدين أبو غازى » . وانتهى الأمر بهذه اللجنة أن أخرجت معجما صغيرا أشرف عليه « بدر الدين » وجمع فيه كل ما أقر من ألفاظ الحضارة حتى عام ثمانين وتسع مئة وألف . وفيه حصر للغة المنزل والأدوات المنزلية ، وبعض الحرف والصناعات ، وألوان التربية الرياضية ككرة القدم وألعاب القوى ، وأملنا كبير فى أن تسود هذه الألفاظ فى العالم العربى جميعه ، وأن تجد سبيلها إلى صحفنا وإذاعاتنا ، بل وإلى معجماتنا اللغوية . ولا أزال أذكر ملاحظة أبداها المرحوم « عبد الرزاق السنهورى » يوم أن رأى معجمنا الوسيط فى طبعته الأولى ، ولاحظ أنا أقررنا كلمة « أكرة » وأدخلناها فى معجمنا وعد ذلك خطوة إلى الإمام يجب أن نتبعها .

ولا شك فى أن ألفاظ الفنون والنشاط الفنى بمختلف صوره تحتاج إلى تغذية وأداء عربى ، وخطا مجمعنا فى هذا السبيل خطوات يكفى أن أذكر أن من بينها مصطلحات فى فن النحت والخزف كما عرض لمصطلحات الموسيقى والسينما . ونعتقد أن لغة كرة القدم بوجه خاص أصبحت شائعة وعامة فى العالم العربى جميعه ، ونحن على يقين من أن الفنون الأخرى ستأخذ سبيلها إلى هذا التوحيد والاستعمال العام المعترف به .

وأظنكم تتفقون معى على أن « لغة الحضارة » كانت جديرة بأن تحمل راية البحث فى لقائنا هذا وسنسعد بكل ما يعرض حولها من بحث ودرس .

والسلام عليكم ورحمة الله .



٣- كلمة الأستاذ الدكتور شوقي ضيف
الأمين العام للمجمع

السيد الدكتور وزير التعليم

السيد الدكتور رئيس المجمع

السادة الزملاء أعضاء المؤتمر

السيدات والسادة :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته وبعد

فإننا نلتقى اليوم للاحتفال بافتتاح مؤتمر المجمع فى دورته الخامسة والخمسين إعزازا ووفاء للعربية لغة القرآن المجيد التى شرف الله بها أمتنا والتى ظلت تجمع شعوبها طوال أربعة عشر قرنا إلى اليوم على لسان واحد وفكر واحد ومشاعر واحدة وآمال واحدة، وستظل أمتنا تضمها إلى صدرها حريصة على بيانها الناصع وعلى ما يتيح لها النمو والإنطلاق فى مسيرتها الحضارية العصرية ، وهو ما جعل مصر تنشىء مجمعها اللغوى منذ خمسين عاما أو تزيد جامعة فيه صفوة من أعلام نهضتها اللغوية والأدبية والقانونية والعلمية وأعلام اللغويين فى الأقطار العربية مع أفذاذ من المستشرقين آملة فى أن يضطلع المجمع بكل ما يتيح للعربية استيعاب المصطلحات العلمية والفنية الغربية وألفاظ الحضارة العصرية .

ودأب المجمع منذ إنشائه على تكوين لجان علمية تنهض بهذا العمل العلمى الجليل مؤلفة من بعض أعضائه ومن خبراء جامعيين مرموقين كل فى علمه أو فنه ، وتصوغ بكل لجنة مع من يؤازرها من أعضاء المجمع اللغويين مصطلحاتها العلمية فى اجتماعات أسبوعية ، وتعرض اللجنة حصيلتها السنوية على مجلس المجمع ليدلى فيها أعضاؤه مجتمعين بآرائهم ، وتنقحها اللجنة على هدى تلك الآراء ، ثم تعرضها على مؤتمر المجمع السنوى ليناقشها أعضاؤه ، حتى إذا أقروها أصبحت نهائية لثمرة أو نتيجة لشورى جماعية كبرى ، وهى شورى تفسح — بوضوح — لفكرة توحيد المصطلحات العلمية فى أقطارنا العربية إذا يقرها كل أعضاء المؤتمر من مصر وشقيقاتها العربيات فى المؤتمر السنوى ، مما يعطيها صورة بينة من الإجماع العلمى العربى .

ومجمعنا بذلك أدى — ويؤدى — أداء سديدا الأمانة العلمية الملقاة على عاتقه من الإعداد القويم لجعل العربية — فى عصرنا — وافية بمطالب العلوم والفنون ومسميات الحضارة ، وقد استطاع أن يخرج إلى اليوم عشرة معاجم علمية ، بل تزيد ، سوى ما ينشره سنويا من مجموعات لمصطلحات علمية وفنية وحضارية ، وجميعها تقف بأبواب الجامعات تنتظر الأذن لها بدخولها فيها . ولن يتحقق لها ذلك إلا مع تعريب العلوم فى الجامعات . وحينئذ تحلق العربية بأجنحة قوية فى آفاق العلم العالمية . وقد أخرج المجمع معجما نفيسا لألفاظ القرآن الكريم يطبعه الآن للمرة الثالثة ، ويخرج معجما لغويا كبيرا للعلماء المتخصصين ، وأخرج معجما وسيطا لطلاب الجامعات وأوساط المثقفين ومعجما وجيزا لتلامذة التعليم العام وبجانب ذلك عنى المجمع بتيسير قواعد العربية للناشئة ، ولهقرارات فى أحد مؤتمراته القريبة تحقق هذا التيسير على خير وجه .

وسيظل شأن مؤتمر المجمع فى هذا العام شأنه فى الأعوام الماضية منعقدا لمدة أربعة عشر يوما تُعْرَض فيها عليه حصيلة عام من جهد اللجان العلمية وما وضعته من مصطلحات علمية وفنية ومسميات حضارية وحياتية وقرارات لغوية ومواد معجمية . وكل ذلك يتدارسه أعضاء المؤتمر دراسة علمية جادة مثمرة ؛ ولا يصبح أى قرار لمصطلح علمى أو لفظ حضارى أو قياس لغوى معتمدا إلا بعد أن يرتضيه المؤتمر ويقره ، فهو صاحب السلطان الأعلى فى تأييد القرار المقترح أو رفضه ، ويستمع المؤتمر فى أثناء ذلك من أعضائه العاملين والمراسلين إلى العديد من البحوث الصافية القيمة التى تفيد هى وما تثير من مناقشات خصبة اللغة والأدب والعلم فوائد محققة .

السيدات والسادة :

يسعدنى — كما تعودنا فى إفتتاح كل مؤتمر مجمعى — أن أعرض على حضراتكم صورة مجملة للنشاط المجمعى منذ عقدنا المؤتمر السابق حتى أصبحنا على مشارف هذا المؤتمر.

المؤتمر السابق :

قد عقد المؤتمر السابق أربع عشرة جلسة منها أربع علنية ، أولاها جلسة الافتتاح وفيها تحدث الدكتور أحمد فتحى سرور وزير التعليم والدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع والأستاذ المرحوم عبد السلام هارون أمين المجمع السابق والدكتور إسحق الحسينى عن الأعضاء العرب .

والجلسة الثانية عقدت لتأبين المرحوم الدكتور عمر فروخ عضو المجمع عن لبنان ، والتى كلمة المجمع فى توديعه الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس المجمع الأردنى .

والجلسة الثالثة كانت لمحاضرة الدكتور كمال بشر عضو المجمع موضوعها : « اللغة بين التطور وفكرة الصواب والخطأ » .

والجلسة الرابعة عقدت لتأبين المرحوم الدكتور أحمد عبد الستار الجوارى عضو المجمع العراقى ، وألقى كلمة المجمع فى توديعه الدكتور عدنان الخطيب عضو المجمع من سورية ، واشترك فى توديعه اللواء الركن محمود شيت خطاب عضو المجمع المراسل من العراق بكلمة ألقيت بالنيابة عنه .

والجلسات العشر الباقيات كانت مغلقة ، عرض فيها على أعضاء المؤتمر ٣٠١٨ مصطلحا فى الفيزيقا والجيولوجيا والهيدرولوجيا والكيمياء والصيدلة والطب والنفط والنبات والحيوان والرياضيات والجغرافيا والقانون (قانون العقوبات) والاقتصاد والفلسفة (المنطق الرمزى) والتربية وعلم النفس والتاريخ والآثار والأصول والألفاظ والأساليب .

وقد أقر المؤتمر المواد المعجمية وماعرض عليه من قرارات لجنة الأصول وهى : استغناء الفعل المبنى للمعلوم بمادته عن الفاعل ، واستغناء الفعل المبنى للمجهول بمادته عن نائب الفاعل ، وجواز إثبات الياء فى اسم الفاعل المنقوص النكرة .

وأقر المؤتمر من أعمال لجنة الألفاظ والأساليب، مجموعة من كلمات دارجة ردتها اللجنة إلى أصول عربية .

وأيضا أقر للجنة طائفة من الألفاظ المستدركة على المعاجم المتداولة ، وهى ثلاثة وثلاثون لفظا مستخرجة بشواهدها الصحيحة من كتاب البيان والتبيين للجاحظ .

وقد حفل المؤتمر السابق بكثير من البحوث والدراسات ، ودارت كثرتها حول موضوع «لغة الأعلام» بالإضافة إلى موضوعات متنوعة أدبية ولغوية وفلسفية وتاريخيه . وعطرت أنفاس الشعر أجواء المؤتمر بقصائد أربع هى « أخى » للدكتور حسن على إبراهيم ، «وتحية مودة وأسى» للدكتور إبراهيم السامرائى ، «والفصحى رباط وحدة الأمة وأداة إرتقاء العلم والحياة » للأستاذ محمد بهجة الأثرى ، «وتحية المجمع » للدكتور عبد الله الطيب .

توصيات المؤتمر السابق :

أصدر المؤتمر فى جلسته الختامية قرارات وتوصيات أهمها :

١ــ يؤكد المؤتمر توصياته السابقة التى تنص على أن يكون التعليم الجامعى والعالى فى الوطن العربى جميعه باللغة العربية ويرحب المؤتمر بالتوصية التى أصدرها اتحاد الأطباء العرب بأن يكون عام ١٩٨٨ م هو بدء الوقت فى تعليم الطب باللغة العربية على مدى عشر سنوات .

٢ – يوصى المؤتمر بضرورة الحرص على تعلم القدر الكافى من القرآن الكريم حفظا وتلاوة وتفسيرا فى مراحل التعليم الأساسى .

٣ – يوصى المؤتمر أن تلتزم كليات الإعلام ومعاهده بدراسة الجوانب النحوية والصوتية للكلم فى العربية دراسة تعين الإعلاميين على معرفة الطريق السديد للنطق بالكلم نطقا سليما، مع دراسة نصوص من الأدب العربى فى عصوره المختلفة بحيث تصقل ذوقهم الأدبى وتقفهم على أسرار البلاغة العربية .

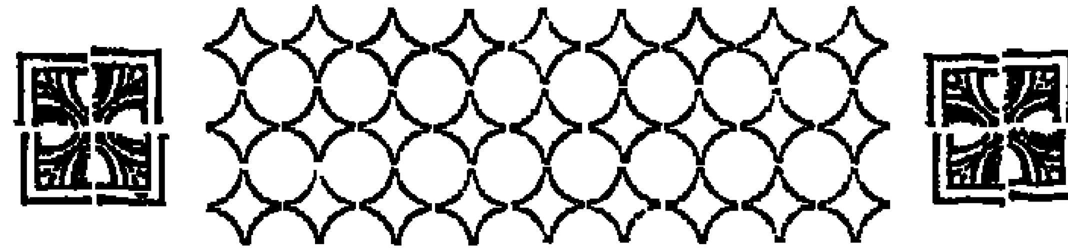
٤ – يوصى المؤتمر بأن تعقد للمذيعين دورات تدريبية متصلة تغرس فيهم النطق القويم للألفاظ العربية ، بحيث تجعلهم يتفادون الأخطاء اللغوية الكثيرة التى تجرى على ألسنتهم .

٥ – يوصى المؤتمر بأن يعنى فى جميع مراحل التعليم العام بتدريس قواعد اللغة العربية وزيادة الساعات المقررة لها .

٦ – يؤكد المؤتمر ضرورة العمل بحزم على مقاومة كتابة لافتات المحال التجارية ونحوها فى جميع أرجاء العالم العربى وكذلك فى المؤسسات على اختلاف أنواعها بأى لغة غير العربية السليمة كما يوصى بتجنب كتابة الأسماء الأجنبية بحروف عربية حفاظا على الإنتماء العربى .

٧ – يؤكد المؤتمر ضرورة توحيد المصطلحات العلمية فى الوطن العربى ويوصى بتكوين هيئة تتولى إدارة مركز للمعلومات تسجل فيه جميع المصطلحات العلمية لاستخدام الآلة الحاسبة .

٨ – يدعو المؤتمر إلى الحرص على أن تكون الخطب الرسمية والبيانات الموجهة إلى الجماهير بلغة عربية سليمة ، لما لهذا من أثر فى التوجيه اللغوى السليم .



أعمـال المجلس واللجان

عقد مجلس المجمع منذ انتهاء المؤتمر السابق إلى اليوم ثلاثين جلسة ، منها جلستان علنيتان لتأبين الزميلين الراحلين العزيزين الأستاذ عبد السلام هارون والدكتور محمد زكي شافعي تغمدهما الله برحمته وجزاهما بخير ما يجزي به عباده العاملين المخلصين . واستقبل المجمع في جلسة علنية عالماً جليلا نسعد بضمه إلى رحابه هو الدكتور عبد الرازق عبد الفتاح إبراهيم ، أما سائر الجلسات الباقية فقد نظر المجلس فيها نحو ٢٧٩٠ مصطلحا في الفيزيقا والكيمياء والصيدلة والطب والجيولوجيا والنفط والمعالجة الإليكترونية للمعلومات وعلوم الأحياء والزراعة والهندسة والرياضيات والآثار والجغرافيا والاقتصاد والقانون والتربية وعلم النفس والفلسفة وألفاظ الحضارة المتصلة بمصطلحات الموسيقى . ونظر المجلس في قرارات لجنة الأصول ولجنة الألفاظ والأساليب ، وستعرض على المؤتمر تلك القرارات وما أنجزته لجنتا المعجم الكبير من مواد جديدة .



المسابقة الأدبيــة

كان موضوع المسابقة الأدبية فى الدورة المجمعية السابقة هو « مجموعة قصص قصيرة » ولم يتقدم أحد لنيل جائزتها ، واقترحت اللجنة الخاصة بتلك المسابقة أن يكون موضوعها فى العام المجمعى الحالى ترجمة وافية للمرحوم الشيخ أحمد الإسكندرى عضو المجمع السابق ووافق المجلس على الاقتراح

* * *

مسابقة احياء التراث

وكان موضوع مسابقة إحياء التراث تحقيق نص لغوى أو أدبى لم يسبق نشره تحقيقا علميا سديدا ، وفاز بالجائزة الدكتور أحمد خان عن تحقيقه لكتاب « خلق الإنسان فى اللغة » لأبى محمد الحسن بن عبد الرحمن . ووافق المجلس على أن يكون موضوع المسابقة فى العام المجمعى الحالى نفس الموضوع فى العام الماضى .

* * *

جائزة جـديدة

وافق المجمع فى هذه الدورة على إنشاء جائزة سنوية جديدة تمنح لأهم بحث يصور جمال الأداء القرآنى لغة وأسلوبا ، وتُموَّل من الهدية المقدمة إلى المجمع من فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى عضو المجمع وقدرها خمسون ألف جنيه وأودعت الهدية بنك فيصل الإسلامى المصرى .

* * *

مطبوعات المجمع

أصدر المجمع فى الدورة السابقة المطبوعات التالية :

أ – الأجزاء السابع والخمسين والثامن والخمسين والتاسع والخمسين من مجلة المجمع .

٢ – الأجزاء الثالث والخامس والسادس من كتاب «التكملة والذيل والصلة للزبيدى» .

٣ – الجزءين السابع والعشرين والثامن والعشرين من مجموعة المصطلحات العلمية والفنية .

* * *

وقيد الطبع الآن

١ – محاضر جلسات مجلس المجمع ومؤتمره للدورة الخمسين .

٢ – محاضر جلسات مجلس المجمع ومؤتمره للدورة الحادية والخمسين .

٣ – بحوث ومحاضرات العيد الخمسينى لمجمع اللغة العربية.

* * *

صلات المجمع الثقافيـة

يحرص المجمع دائما على توثيق صلاته بالمجامع العربية والهيئات الثقافية فى مصر والعالم العربى والإسلامى والدولى ، فيشارك فيما تعقده من مؤتمرات وندوات ، وينظر فيما تقدم إليه من مصطلحات ومسائل لغوية ويحيلها إلى اللجان المختصة لإبداء الرأى فيها ثم عرضها على المجلس وقد مثل المجمع الزميل الدكتور محمود حافظ فى إفتتاح الموسم الثقافى للمجمع الأردنى فى شهر إبريل وألقى فيه محاضرة عن اللغة العربية والتعليم العام والجامعى ومثل المجمع الزميل الدكتور مجدى وهبة فى الإتحاد الدولى للمجامع ببروكسلى فى شهر يونية ، وقدم فيه التقرير السنوى عن أعمال لجنة إحياء مؤلفات ابن رشد . ومثل المجمع الدكتور محمد مهدى علام نائب رئيس المجمع فى مؤتمر التعريب بالرباط فى شهر سبتمبر وشارك فى أعماله ، وقدم إلى المجمع تقريرا إضافيا عن قراراته . ورشح المجمع الدكتور عبد الحليم منتصر ، والدكتور محمود حافظ لتمثيله فى مؤتمر مصر عام ٢٠٠٠ الذى انعقد فى أواخر ديسمبر .

ومثل المجمع أيضا الدكتور محمود مختار والدكتور أحمد السعيد فى ندوة اللغة العربية والكمبيوتر بمؤسسة الأهرام فى الشهر الحالى:

ووافق المجمع على قبول الدعوة الموجهة إليه من المعهد القومى للمواصفات بتونس لحضور ندوة تقييس وتوحيد المصطلحات مجال التطبيق فى المدة من ١٣ إلى ١٧ من مارس المقبل ، وقرر إيفاد الزميل الدكتور عبد الرازق عبد الفتاح إبراهيم لحضور هذه الندوة . كما وافق المجمع على قبول الدعوة الموجهة إليه من معهد الإنماء العربى بالإشتراك فى أول مؤتمر علمى له يدور حول الكتابة العلمية باللغة العربية : واقع وتطلعات ، وسنعقد المؤتمر فى عمان بالأردن فى نوفمبر المقبل ، وقرر المجمع إيفاد الزميل الدكتور محمد رشاد الطوبى لتمثيله فيه .

ووافق المجمع على قبول دعوة من معهد أتاتورك للدراسات التركية لحضور مؤتمر الثقافة التركية قبل العثمانيين فى شهر سبتمبر المقبل وقرر المجمع إيفاد الدكتور أحمد السعيد سليمان لتمثيله فيه ، ولا تتوقف صلات المجمع الثقافى عند المجامع والهيئات إذ يتلقى دائما من أفراد الدارسين بحوثاً ومقترحات لغوية يحيلها على اللجان المختصة لدراستها تمهيداً لنظرة فيها . وباستمرار يتبادل مطبوعاته مع الهيئات والمؤسسات الثقافية ودعما للروابط الثقافية بين المجمع وعلماء العالمين العربى والإسلامى إختار المجمع فى الدورة السابقة ستة عشر عضوا مراسلا من المهتمين بشئون اللغة العربية لمعاونته فى أداء رسالته ، وهم :

من جمهورية مصر العربية — الأستاذ الدكتور رشدى راشد ، ومن السودان — الأستاذ الدكتور حسن الفاتح قريب الله ، والأستاذ سر الختم الخليفة ، ومن الأردن الأستاذ الدكتور أحمد سليم سعيدان ، والأستاذ الدكتور محمود السمرة ، ومن السعودية الأستاذ عبد العزيز الرفاعى ، والأستاذ محمد بن عمر بن عقيل ومن فلسطين الأستاذ أحمد شفيق الخطيب ، ومن الجزائر الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله والأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح ، والأستاذ الدكتور عمار الطالبى ، ومن باكستان الأستاذ الدكتور ذو الفقار على مالك ومن أندونيسيا الأستاذ الدكتور فؤاد فخر الدين ومن نيجيريا الشيخ الحاج أبو بكر محمد قمى والأستاذ الدكتور على أبو بكر ومن السنغال الأستاذ إبراهيم محمود جوب .

صلات المجمع الثقافية

جائزة الدولة التقديرية

نال جائزة الدولة التقديرية فى الآداب فى العام الماضى العالم الجليل المرحوم

الأستاذ عبد السلام هارون تقديرا لجهوده طوال حياته فى إحياء التراث ونشر كنوزه النفيسة .

عضو جديد :

وإذا كان المجمع ودع زميلين جليلين هذا العام فإنه سيستقبل — عقب هذا المؤتمر — عالما جليلا فاز بعضويته هو الزميل الأستاذ عبد الكريم العزباوى .

ولا يفوتنى أن أبعث بأطيب أمنيات الصحة والعافية للاخوة الزملاء الذين حالت ظروف طارئة دون حضورهم هذا المؤتمر والله أسأل أن يسعدنا برؤيتهم فى المؤتمر المقبل إن شاء الله .

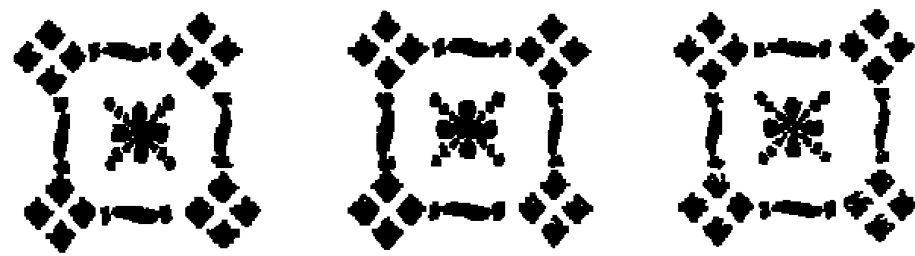
الزملاء المعتذرون هم :

الأستاذ الدكتور أحمد طالب الإبراهيمى ، الأستاذ الشاذلى القليبى ، والأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسى ، والأستاذ الدكتور رودلف زلهايم ، والأستاذ عبد الله كنون ، والأستاذ الدكتور سعيد خدورى ، والأستاذ محمد بهجة الأثرى ، والأستاذ الدكتور محمود السمرة والدكتور شرباتوف .

السيدات والسادة :

يسعدنى فى ختام كلمتى أن أشكر كل من شاركوا فى هذا الحفل ، كما يسعدنى أن أحيى أزكى تحية باسم المجمع الزملاء المجمعيين الوافدين من الأقطار العربية والإسلامية وكذلك من الأقطار الغربية لشهود هذا المؤتمر والمشاركة الخصبة فيه بعلمهم الغزير وآرائهم القيمة ، فلهم منا أجزل الشكر وأصدق الود راجين لهم طيب الإقامة بيننا فى بلدهم مصر .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



٤ - كلمة الأعضاء العرب

للدكتور عدنان الخطيب

سيدى الرئيس الجليل سادتى الأجلاء :

يسعدنى أن أحمل إلى مصر ، التليد مجدها فى الحضارة والعمران ، العظيم شعبها فى الدفاع عن العروبة والإسلام ، العميم فضلها فى الهبوب إلى نصرة المستنجد بها من العالمين العربى والإسلامى ، الشديد بأس أبنائها إذا ما غضبوا لعسف حاق بمقهور ، الحلوة شمائلهم إذا ودعوا ، الفائق كرمهم إذا ما ما استضيفوا .

لا بل أناجدّ سعيد بأن أحمل اليوم إليكم من بلاد الشام ، خالص الحب وجزيل التقدير وأمهات الأطفال فى بلاد الشام ، عرف عنهن ، من قديم الزمان ، بأنهن يرضعن أبناءهن حب مصر وسائر بلاد العرب ، حتى إذاما ألحقنهم بالمدارس ، وكان نشيدهم صباح كل يوم : « بلاد العرب أوطانى . . » .

سادتى الأجلاء :

منذ ربع القرن أو يزيد ، وأنا ألبى الدعوة إلى المؤتمر السنوى لمجمع اللغة العربية ، وما شعرت مرة بغربة الديار وأنا فى مصر ، وما تركتها سنة إلا وشعرت بأن قلبى زاد تعلقا بها ، وما عدت يوما إلى دمشق إلا وكان التحنان إلى مصر ملء جوانحى إلى أن أؤوب إليها كرة أخرى .

أنا لست الوحيد من أهل الشام فى شعورى هذا ، كما لست الوحيد من أبناء الوطن العربى فى حبى مصر ، لأن كل شامى — على ما أعتقد — بل كل عربى ، ما دام على فطرته ، إنما يحب مصر كحبه البلد الذى ولد أو عاش فيه ، حتى إذا ما جاءها يوماً تمنى ألا يفارقها ، وإذا غادرها كانت جل أمانيه ألا يطول غيابه عنها . إن ديوان العرب قد امتلأ بشعر الحنين إلى الأوطان ، وقد جمع الجاحظ فى رسالة له ، وشلا من خضم ما قاله الشعراء فى هذا الحنين كما علل علماء النفس هذا الشعور حتى أنهم (فلسفوه) غير أنهم قصّروا فى تعليل شعور العربى ، وقد يملأ قلبه الحنين إلى أكثر من ربع ، وإلى أكثر

من بلد ، وإلى أكثر من موطن في بلاده الواسعة الأرجاء .

سادتي الأفاضل : لقد احتل الشعر عند العرب مكانة مرموقة بسبب من خصب خيالهم وشدة حبهم البلاغة والإيجاز ، ولمطاوعة لغتهم الجميلة لأفكارهم المختلفة حتى أنهم كانوا يبالغون في تكريم الشاعر إذا نبغ في إحدى قبائلهم ، ويدفعون به إلى الأفق الواسع الرحيب حتى يصبح شاعر العرب قاطبة .

وشذ عن هذا التقليد العربي الأصيل تلقيب كاتب من ألمع كتاب عصرنا الحديث ، وشاعر من فحول شعراء العالم العربي ، لقد كان هذا الشاعر يغوص على المعاني ويولدها ، ثم لايبالي بما يقع عليه من لفظ مادام يؤدي المعنى الذي التقطه أو ولده ، كان يستقصي المعاني ثم يعرضها على قارئه ، وقد زانها فكره العميق واطلاعه الواسع على التاريخ وعلمه الزاخر في كل من الأدب العربي وصنوه الفرنسي .

كان شاعرنا قد ولد في إحدى مدن الشام ، ثم جاء مصر ، وفيها استوفى معارفه ولمع نجمه ، وفيها عاش طوال حياته إلى أن قضى نحبه ، وكان يجمع في قلبه الواحد حبين ، واستطاع أن يوفي حق الولاء للبلدين ، مما دفع العرب إلى أن يغدقوا عليه لقب : شاعر القطرين .

وعندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، وتقاسم المستعمرون من رابحيها ، الأقطار العربية ، وصنعوا فيها حكومات موالية لهم ، متخاذلة مع شقيقاتها العربيات ، جاء خليل مطران يزور بلاد الشام ، فاستقبل ببالغ الحفاوة والتكريم ، وفي أحد المهرجانات وقف شاب في ميعة شبابه ، كان شبه مغمور ، إلا عند قلة من النبهاء كانت تتنبأ له بمستقبل باهر ، وأنشد قصيدة ، وكان مما جاء فيها :

كل الربوع ربوع العرب لي وطن ... ما بين مبتعد منها ومقترب
للضاد ترجع أنساب مفرقة ... فالضاد أفضل أم برة وأب
تمضي العصور وتبقى الضاد خالدة ... شجى بحلق غريب الدار مغتصب

* * *

من مبلغ فتية الحيين مألكة ... كالسهم ريش فإن سددته يصب
فيم التخاذل لافلت جموعكم ... والدهر يزحف بالأرزاء والنوب
مالي وللناس ، جد الناس كلهم ... وضاع قومي بين الجد واللعب
لاتطلبوا الراحة الكبرى بلا تعب ... فراحة المرء بعد الكد والتعب

* * *

أين الشباب وفتيان غطارفة كالأسد في الغيل ما واثبتها تثب
اليعربيون لا حقد ولا غضب قد يسلب الحق بين الحقد والغضب
غنيت قومي بالأشعار أطربهم لو يسمع القوم شدو الشاعر الطرب
وأحزن الشعر بيت راح ينشده دمع تحدر من أجفان مكتئب
خير القصائد ما أوحته عاطفة فسار في كل دنيا غير مغترب

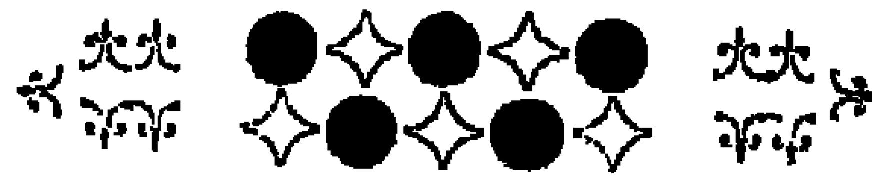
لقد كان الشاعر المغمور يومئذ ، محمد سليمان الأحمد شاعر العربية الكبير بدوي الجبل .

سيدي الرئيس الجليل :
سادتي الأفاضل :

لقد شرفت اليوم بالتحدث إليكم بمناسبة افتتاح الدورة الخامسة والخمسين لمؤتمر مجمع اللغة العربية ، اللغة التي شرّفها الله عز وجل بالتنزيل الحكيم ، ولمصر أن تفاخر شقيقاتها العربيات بمجمعها هذا ، العامل ماوسعه على النهوض بالعربية ، لتؤدي الفصحى رسالة العلم والحضارة على مايحب أنصارها ، المتفانون في خدمتها ، المناضلون في الزود عنها ، الناشطون في ردّ كيد الكائدين الجاحدين بقدسيتها .

وإني لأزداد شرفا ، إذ أعلن باسم الزملاء الوافدين على مصر من سائر أقطار الوطن العربي عن خالص تقديرهم و عميق شكرهم لمصر ولمجمعها الموقر على ما يلاقونه من فائق الترحاب وعلى مايسدى إلى الفصحى من جليل المكرمات .

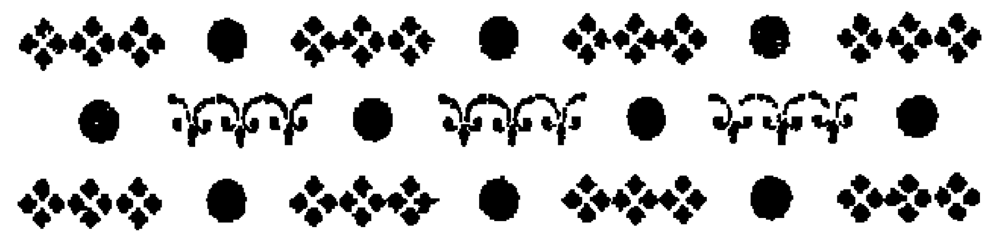
والسلام عليكم ورحمة الله .



كلمة الختام

للأستاذ الدكتور ابرهيم مدكور
رئيس المجمع

في ختام جلستنا هذه لا يسعني إلا أن أكرر ترحيبي بمن حضر معنا من الإخوة العرب ؛ والمستعربين وشكري لمن حضروا الجلسة جميعاً .




البحوث

٢٥ عشرون

الأرقام العربية

بين مشرق الوطن العربي ومغربه

صلة الكلام في تسوية الأرقام

للدكتور عدنان الخطيب

١ ــ عودة الى ماض بعيد :

« . . وأعلن الأستاذ الرئيس موافقة المجلس على أن تبعث لجنة تيسير الكتابة بموافقتها على تعديل كتابة رقم (٢) فقط » ، كان هذا في الجلسة الختامية لمجلس المجمع في سنة ١٩٥٦ التي كان يتولى سدة الرياسة فيها المغفور له استاذنا الجليل أحمد لطفي السيد[١].

إن موافقة المجلس الكريم تمت بعد أن عرضت عليه مذكرة اللجنة الخاصة بتيسير الكتابة التالي نصها :

(ورد المجمع كتاب من المراقب المالي لوزارة التربية والتعليم يشير فيه إلى صعوبة التفريق بين رقم ٢ و ٣ حين يكتبان بالخط النسخي في الكتب وسائر المطبوعات ، ويقترح عمل رسم جديد لرقم ٢ على نحو رسمه في الخط الرقعي ١

وقد أحيل الاقتراح إلى لجنة تيسير الكتابة فدرسته مع الأستاذين محمد علي المكاوي وشفيق متري الخبيرين باللجنة الفنية في تيسير الكتابة ، فقدم الأستاذ محمد علي المكاوي مذكرة أقر فيها اقتراح المراقب المالي لرقم ٢ بحيث لايبعد عن القديم

(*) ألقي في الجلسة الثانية في يوم الثلاثاء ٢٢ من رجب سنة ١٤٠٩ هالموافق ٢٨ من فبراير (شباط) سنة ١٩٨٩ م .

(١) جلسة مجلس المجمع الثلاثون والمنعقدة بتاريخ ٢٨ من مايو سنة ١٩٥٦ انظر ص ٢٩٧ من محاضر جلسات المجمع في الدورة الثانية والعشرين طبعت في القاهرة سنة ١٩٧٩ وانظر ص ٣١٧ من كتابنا عن « العيد الذهبي لمجمع اللغة العربية » دمشق ١٩٨١ .

ويمحو أثر الاشتباه(٢) وأضاف إلى ذلك تغيير الرقم(٥) احساناً له فى مظهره وسط الأرقام(٣) ، وتغيير الرقم (صفر) أيضاحا له(٤) .

ووافق الأستاذ شفيق مترى على هذا الاقتراح ولما عرضت المذكرة على الأستاذ إبراهيم مصطفى وافق على مايختص بالرقم (٢) ورقم (٥) أما الصفر فإنه يرى ألا يجوّف .

وهذه صورة الأرقام المقترحة للاثنين والخمسة والصفر هكذا (٢) (0) ، (0) مقابل (٢) ، (٥) ، (٠) .

ومع هذا نسخة كتاب المراقب المالى ، ومذكرة الأستاذ محمد على المكاوى ، وطابع للأرقام العشرة مكبرة ومصغرة صنعته دار المعارف ليبدو فيه شكل الأرقام بمقاييس حروف الطباعة .

٢٨ / ٥ / ١٩٥٦)

٢ – عيوب صور الأرقام :

تتقاسم العالم العربى اليوم سلسلتان من الأرقام مختلفتا الصور والأشكال ، أرقام مشرقية تسمى (الأرقام الهندية) ، وأرقام مغربية وليدة (الأرقام الغبارية) ، وكلتا السلسلتين من ابداع الحضارة الإسلامية ، ولايجحد عروبتهما إلا مكابر .

ولقد حاولنا فيما سبق أن كتبناه أثبات عروبة الأرقام المشرقية ردا على من يقول بأعجميتها ، وليس لديهم من حجة إلا القول بأنها كاسمها هندية الأصل (٥) إنهم يدعوننا إلى نبذها واحلال (الغبارية) محلها ، وهى التى يطلق عليها الفرنجة اسم (الأرقام العربية) اعترافا بحقيقتها ، وتغنينا

---

(٢) من الواضح أن الاقتراح تغيا الاكتفاء بإحدى صورتى الرقم (٢) وهى معروفة فى القلم الرقعى وشائعة فى الكتابة العادية وفى التخطيط .

(٣) أنا لم أطلع على اقتراح الأستاذ المكاوى ، ولعله كان يود الرجوع إلى كتابة الرقم (٥) على الصورة التى كان عليها عندما تطور عن حرف (هـ) التى ترمز إلى العدد (٥) فى حساب الجمل وهذه الصورة ما زالت مستعملة عند كثير من الأمم الإسلامية .

(٤) من الواضح أن الاقتراح فيما يتعلق بالصفر الذى رفضه المجلس كان يتضمن كتابة الصفر كدائرة مفرغة أى بشكل يشبه رمز الصفر فى الأرقام الغبارية التى أخذها الفرنجة عن العرب فى الأندلس .

(٥) من روائع الأدلة على عروبة الأرقام الموصوفة بالهندية لوحة ابن البواب المؤرخة سنة ٤١٤ هـ بتلك الأرقام قبل تطورها انظر الملحق رقم ١ .

فى هذا المقام الاشارة إلى الموضوع عن كل تفصيل فيه .(٦)

إن عيوب صور الأرقام نشأت من تشابه صور بعضها ، و أهل الحساب كأصحاب الآلات الحسابية فى خوف دائم من أختلاط المتشابه ووقوع القارىء فى الخطأ ، وكل أمانيهم أن يبادر أصحاب الرأى إلى الموافقة على تعديل الأرقام بحيث يرفع التشابه بينها ، ولم تخل أرقامنا المشرقية من عيب تشابه بعض صور فيها ، بعد أن تطورت إلى ماهى عليه اليوم فى الآلات الراقمة أو الحاسبة أو فى التخطيط ، ولم تنفرد هذه الأرقام بهذا العيب دون الأرقام الأخرى ، كما أن المراقب المالى لوزارة التربية والتعليم فى مصر وحدها لم يكن أول من كشف عن مساوىء صور بعض الأرقام ، كما أنه لم يكن آخر من طلب تعديلها (٧).

(٦) يقوم أفراد من كبار علماء المغرب العربى بحماسة بالغة ، بدعوة عرب المشرق إلى نبذ الأرقام التى يستعملونها بحجة أعجميتها ، ثم استعمال الأرقام الغبارية التى يستعملها الفرنجة ويطلقون عليها اسم (الأرقام العربية) .

وتلقف رجال فى مختلف أقطار المشرق العربى تلك الدعوة الآثمة وأخذوا يعملون لتحقيقها بغيرة قومية واضحة وبحماس متفاوت بتفاوت الأقطار التى ينتمون إليها ، وبحسب ما لدى بعضهم من سلطات تنفيذية ، غير عائبين بكون الأرقام المشرقية ، فضلا عن عروبتها الأصيلة التى لم يستطع عالم إثبات أعجميتها ، غدت جزءاً لا يتجزأ من التراث العربى الإسلامى الذى لا يجوز لأحد التفكير فى التخلى عنه على حد قول المجمع الفقهى لرابطة العالم الإسلامى فى دورته السابقة سنة ١٤٠٤ هـ تأييدا لقرار مجلس هيئة كبار العلماء فى المملكة العربية السعودية الصادر عام ١٤٠٣ هـ انظر مجموعة قرارات مجلس المجمع الفقهى الإسلامى لرابطة العالم الإسلامى مكة المكرمة ١٤٠٥ .

(٧) كان مما نشر مؤخرا فى نقد الأرقام المشرقية النقدان التاليان :

أولا : نقد لجنة الأصول والتراث فى مجمع اللغة العربية الأردنى المنشور فى عدد كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٤ من مجلته ، وانحصر النقد فى العيبين التاليين :

١ — عيب رمز الصفر (٠) الذى قد يختلط بالنقطة .

٢ — عيب الرقم (٢) الذى يمكن الالتباس معه بالرقم (٣) .

ثانيا : نقد محمد حسين صفورى المنشور فى عدد حزيران (يونيو) ١٩٨٥ من مجلة المجمع الأردنى وقد ورد فيه : « . . هذه الصيغة فى نظرنا تشكو من شكل الصفر الذى يسهل أن يختلط مع نقطة آخر الجملة ، أو يكاد أن لا يظهر بوضوح عند الكتابة أو الطباعة ثم شكل العدد (اثنين) وشكل العدد (ثلاثة) وهما متشابهان وكثيرا ما يصعب تمييز الواحد منهما عن الآخر » .

إن ماوجه إلى أرقامنا المشرقية من عيوب ينحصر فى صورتين أساسيتين هما :

أولا : عيب صورة الرقم (اثنين) التى انتهت فى الطباعة والتخطيط إلى هذا الشكل (٢) وهى صورة تقلل من فرص التمييز بينها وبين صورة الرقم (ثلاثة) التى انتهت إلى هذا الشكل (٣) .

وهو عيب وجد حلا فى قرار مجلس مجمعنا الموقر المشار إليه آنفا (٨) .

ثانيا : عيب صورة (الصفر) وهى صورة تشابه النقطة وقد تختلط معها . (٩)

أما العيب الذى أسنده الخبير على مكاوى إلى شكل الرقم (٥) فهو عيب ينجم عن الأخذ برأى من يقترح تفادى عيب (الصفر) بتجويف النقطة التى تدل عليه أو بتغيير آخر كجعل رمزه فى الأرقام المشرقية مشابها لرمزه فى الأرقام الغبارية . (١٠)

٣ - الصفر وقيمته فى الكتابة العربية :

لقد مرت على أرقامنا المشرقية عصور تجاوزت الألف من السنين تطورت خلالها تطورا عظيما ، إذ كانت فى نشأتها مختزلة من الحروف العربية بترتيبها الأبجدى وبحسب قيمتها بحساب الجُمَّل ، كما اثبتنا ذلك فى عديد من بحوثنا ، وكانت الأرقام فى نشأتها الأولى أشكالا بدائية يصورها الناس تصويرا لاقاعدة له ولا ضابط يحدده ، إلى أن غدت اليوم جزءا من علم الخط العربى ، تطبق عليها قواعده ويلتزم فيها بضوابطه .

لقد ارتبطت أرقامنا المشرقية فى تطورها وما آلت إليه ارتباطا وثيقا بالحروف العربية وطبيعتها فى الليونة والانسياب حتى أصبحت منذ أكثر من قرن لدى علماء الخط ورجال الفن وحدة لاتتجزأ من حيث جمالها الفنى ومقاييسها المحددة وقواعدها الدقيقة .

---

(٨) إن الحل الذى تضمنه قرار مجلس مجمع القاهرة المؤرخ فى ٢٨ من مايو ١٩٥٦ السابق الإشارة إليه ، جاء فى مشروع مجمع اللغة العربية الأردنى لسنة ١٩٨٥ فقد وردت فيه التوصية التالية : (نوصى الذين يستعملون الأشكال المشرقية :

أولا : أن يستعملوا الشكل (٢) للاثنين بالكتابة والطباعة .. (انظر صفحة رقم ٢٣ من المشروع وص ٢٢٩ من عدد مجلة المجمع الأردنى المذكور فى الهامش السابق) .

(٩) سبق أن أشرنا فى الهامش رقم ٣ ما كان اقترحه الخبير محمد على المكاوى بشأن صورة الصفر أما فى مشروع الرموز الأردنى فقد جاء فى التوصية نفسها المشار إليها فى الهامش السابق ما يلى : (.. ثانيا : (نوصى) أن يستعملوا للصفر شكل (▽) فيكتبوا مثلا العشرة والمئة هكذا : ▽١ ، ▽▽١ إلخ) .

(١٠) لهذا جاء فى تقرير لجنة الأصول والتراث فى المجمع الأردنى المشار إليه فى الهامش رقم ٧ أن الزميل عبد المجيد صغير اقترح أن يكتب للصفر على هذا الشكل (⦸) .

إن قواعد الخط العربي تؤلف اليوم علما ثابتا ومحددا بالنسبة لأكثر أنواع الخطوط العربية الأصيلة ومقاييس الحروف في هذه الخطوط إنما تعتمد على (الصفر) أو على النقطة بالتعبير الدارج والصفر أو النقطة في علم الخط عبارة عن مربع صغير ضلعه يساوي طول قطة القلم الذي يكتب به . فإذا ما روعيت القواعد المجمع عليها بدقة كانت الكتابة في غاية الجمال ومنتهى الذوق الفني الرفيع (١١) .

إن القواعد المشار إليها تقضي بأن رمز الصفر في الخط العربي لا يمكن الاستغناء عنه وأن بقاءه ضرورة يقتضيها جمال الخط ، على أن نحاول ايجاد وسيلة أخرى يجنبنا العيوب التي تسند إليه والتي قد ينجم عنها أخطاء فادحة إذا وقعت بسببه عند استخدام الآلات والأجهزة الراقمة والطابعة والحاسبة آلية كانت أو الكترونية .

٤ ــ كيف نتفادى عيوب الصفر :

ولكي نتفادى عيوب رمز الصفر مع الابقاء على شكله الشائع يمكننا الأخذ بأحد هذين الاقتراحين :

الأول : العودة في كتابة الصفر إلى أحد العهود التي مر بها في تطوره : وذلك برسم دائرة تحيط به ترسم بقلم أشد دقة من القلم الذي تخط به الأرقام المرافقة له ، ويمكن أن تكون الدائرة مفرغة منتظمة أو بيضوية أو مخصّرة على أن يكون ارتفاعها يساوي ارتفاع الأرقام المرافقة له (١٢) .

الثاني : إضافة تاج أو مظلة إلى رمز الصفر على صورة هلال مفرغ أو أعمى أو على صورة أنشوطة أو تويجة يرتفع كل منها إلى علو سلسلة الأرقام التي ينتمي الصفر إليها (١٣) .

لقد عرضت هذين الاقتراحين على بعض أساتذة الخط في سورية ، وكان أحدهم الأستاذ محمود هواري خريج مدرسة أميرين من أمراء الخط العربي هما الأستاذ بدوي الديراني السوري والأستاذ حامد الآمدي العثماني تغمدهما الله برحمته . فاستبعد من الأشكال ما رأى أنه لا يتفق بسهولة مع قواعد الخط الثابتة ، ثم وجد بالتجارب أرجحها وأسهلها في الرسم بالقلم نفسه الذي كتبت به الأرقام المجاورة ثم كتب بخط يده الشهادة المرفقة (١٤) .

---

(١١) انظر نماذج عن هذه القواعد في الملحقات ذوات الأرقام ٤ ــ ٦ .

(١٢) انظر نماذج عن هذا الاقتراح في الشكل الأول من الملحق رقم ٧ .

(١٣) انظر نماذج عن هذا الاقتراح في الشكل الثاني من الملحق المذكور آنفا

(١٤) انظر شهادة الخبير في الملحق رقم ٨ .

٥ ـ نهاية البحث وما أرجو تحقيقه :

كان العالم العربى بأسره ، من مشرقه إلى مغربه يقرن الأرقام الهندية بالحروف العربية ولا يفرق فى الهوية بينهما ، بينما يقرن الأرقام الغبارية بالحروف اللاتينية ويعتبرهما شيئا واحدا ، فلما أعلنت دول المغرب العربى استقلالها وطردت المستعمرين من أراضيها أخذت العربية فى تلك الدول تتصارع مع لغة المستعمرين الشائعة بين شعوبها ، وكان لكل منها أنصارها ، وكان حظ الأرقام الغبارية فائقا إذ اقترن باجماع المتصارعين على الحروف بوصفها عربية الأصل فأقرت إلى جانب الحروف العربية .

ولكن لم يكتف أخواننا علماء المغرب الكبير الأجلاء بنبذ الأرقام المشرقية مع الكتابة بالحروف العربية بل قاموا يتهمون أرقامنا بالعجمة متذرعين بوصفها بالهندية غاضين الطرف عن سبب هذا الوصف الذى كان بسبب أثر الهنود فى وضع النظام الحسابى الذى نقله العرب عنهم وأخذه العالم بأسره بعدئذ .

أما رموز الأرقام نفسها فهى عربية المنشأ ، وعربية التطور وعربية الأسلوب فى ليونتها وملاءمتها وليونة الأرقام الشرقية واضحة وهى على نقيض شقيقتها الغبارية المزواة التى تبدو مقحمة اقحاما بين أنواع الخطوط العربية ، باستثناء الخطوط ذات النزعة الكوفية منها .

واليوم وبعد أن انتقلت جامعة الدول العربية من قلب العالم العربى فى مشرقه إلى مغربه أخذت كفة الأرقام الغبارية ترجح بفضل الجو المغربى من جهة ، إضافة إلى الحماس القومى لدى طائفة من شباب المشرق الذى يبلغ حد الهوس مع ضعف فى معرفة التراث والتاريخ الصحيح من جهة ثانية .

لكل هذا جئت أناشدكم مستثيرا حميتكم فى الدفاع عن العربية وعن الصحيح من أساليب النهوض بها .. اتخاذ الإجراءات التالية :

أولا : اعتبار قرار مجلس المجمع المؤرخ فى ٢٨ من مايو (آيار) سنة ١٩٥٦ مرفوعا إليكم للنظر فيه ومن ثم موافقتكم عليه .

ثانيا : الأخذ باقتراح تسوية رمز (الصفر) بالإبقاء عليه مع إضافة ما لا يفسد شكله ولكن ينفى عنه عيب التشابه مع النقطة (١٥) .

---

(١٥) انظر الشكل المقترح لاصلاح عيوب الأرقام المشرقية الملحق رقم ٢ .

ملحق رقم ١

كتبه علي بن هلال حامداً لله تعالى على نعمه ومصلياً

على نبيه محمد وآله وعترته ومسلماً

سنة ٤٠٨

لوحة رائعة بخط ابن البواب نقلتها الزركلي في أعلامه عن ديوان السادرة كله بخطه ومحفوظ في دار الكتب المصرية برقم (٢١٤٥ أدب)

خط الثلث

الالف الفردية والاحرف التي تتصل به

احرف فردية متنوعة ومسقطة

احرف اولية قابلة للاتصال

احرف فردية متنوعة

احرف فردية متنوعة منها مسقط

الياء المحدودة

ملحق رقم ٣

خط الفارسي "التعليق"

٣٩

رب يسر ولا تعسر رب تمم بالخير وبه العون

رب يسر ولا تعسر رب تمم بالخير وبه العون بحرمة محمد وآله

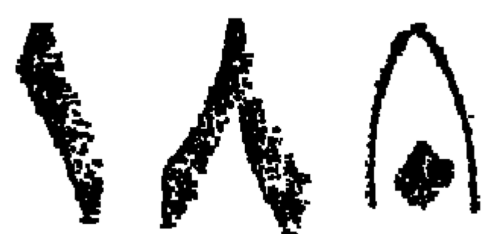
بسم الله الرحمن الرحيم

Yazı talimine başlarken teberrüken (Rabbi yessir) duası ile başlamak âdettir. Yazıda yazışım çok mühimdir. İşte tam kıvamını bulmuş ve noktalarla ölçüleri belirtilmiş ustadın örnek bir yazısı ile sülüs yazısına giriştir.

ملحق رقم ٦

٩٠٧٠٦٥ ٩٦٠٤٥

١٥١٤

الشكل الأول



الشكل الثاني

ملحق رقم ٨

DRAWER

M. ALHAWARI

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطاط
محمود الهواري

الخطاط محمود الهواري يعلن بأن تفادي عيب استعمال شكل الصفر الحالي في الطباعة بالآلات الحديثة لا يكون إلا بما يتفق وقواعد الخط العربي المبنية مقاييسه على النقطة. وأنا أؤيد رأي الدكتور عدنان الخطيب وأرى أن أرجح أشكال الصفر الملائم للحرف العربي هو الشكل التالي.

هواري

دمشق في ٢١ جمادى الآخرة ١٤٠٧ الموافق ٢١ كانون الثاني ١٩٨٧

١ ٢ ٣ ٠ ٤ ٥ ٦ ٧ ٩ ٠

٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠

الملحق رقم ٩



عشــــــرون

الشكل المقترح لرقم عشــــرين

عدنان الخطيب
عضو المجمع من سورية

بشائر في أفق العروبة
(قصيــــدة)

للأستاذ حسن عبدالله القرشي

حُلمٌ غاب في سماءٍ بعيدة *   ثم آبت أطيافُه المحمودة

ومَراءٍ ضاعت وراء عِجافٍ   مِن سِنينٍ ذِئابها مرصُودة

ثم عادَتْ تَرِفُّ مِثل رَفيفِ الـ   فجْرِ ، تُحيي أوطارنا الموءودة

وَحَّدَ (المغرِبُ الكبيرُ) سُرَاهُ   وبهِ جدَّدَ الإخاءُ خُلُودَه

قبْلُ أحْيا (الخَليجُ) وَحْدة شَعْبٍ   ثُمَّ أدْنى مَسارها وحُدُودَه

وبدتْ (مِصْرُ) في شمائِلِهَا الغُرِّ   بِجَمعِ القُلوبِ جِدَّ سعِيدة

تَنشُرُ الزَّهرَ في الدُّروبِ وتَسْمُو   برُؤَاهَا أوطَارُهَا المعْهودة

هِي بيتُ القَصيدِ في أُمةِ (العُرْ   بِ) ومِنْها الزَّمانُ أهْدى نَشِيده

حَمَلَتْ رايَةَ الكِفاحِ ومازا   لتْ ، تُبَاري أيامَهُ المشْهُوده

فاحْمدِ الصَّبر كمْ أنار سبيلاً   كمْ بهِ حقَّق الزَّمانُ وُعُوده

لا أرى الأُفْق غائماً مِثْلما كا   نَ ، ولكنْ أُحِسُّ ثَمَّ رُعُوده

فائتِلافُ النُّفُوسِ يَرجُو مَزيدًا   مِنْ صفاءِ العُروبةِ الممدُودة

ورِفَاقُ الكِفاحِ مَازالَ فيهِمْ   عاتبٌ ، غاضِبٌ ، ورُؤْيا عنيدة .

* * *

* ألقيت في الجلسة الثانية في يوم الثلاثاء ٢٢ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٢٨ من فبراير (شباط) سنة ١٩٨٩ م .

لاتسلني عن أرزِ (لُبْنان) غاب (ا   لأَرْزُ) وأستهدف الجوى غِرِّيده

ويْحُ (لُبنانَ) قدْ عرَاهُ ذبُولٌ   وَأسًى أَرَّثَ الصِّراعُ وَقُوده

غالَـهُ آلُهُ ، ورُب سَـلامٍ   ضَاعَ فى مِحْنةِ الأَمانى البَلبلَة

نحنُ فى موسِمِ الرَّبيع ، فلِمْ لا   نتفيَّـا ظِـلالهُ المنْشُـودة ؟

كلَّما شاقنى عبيـرُ روَابيـ   ـهِ تحاملت ، مُرْسِلاً تنْهِيدة

إنْ أكنْ قد عشِقتُ منه قديماً   إنَّنى رافض بحقٍّ جـديده

أيظلُّ الإنسانُ فيـه مُضَاعاً   وتظـلُّ المذابحُ العرْبيـدة ؟

شَهَرَ الغدْرُ فيـهِ أمضَى سِلَاحٍ   وآستجدَّ العَـدُوُّ فيـه المكيدة

فغدا صرْحُه حمًى مُستباحاً   أتُرى يكسِر الإخـاءُ قيُـوده

أتُرى يستعيدُ مجدًا مُضـاعاً   فَنُجِيٌّ أطيـافَهُ ، وورُوده ؟

لهفَ نفسِى لِجنَّةٍ قدْ تَهاوتْ   وَلحـرِيَّةٍ غَـدتْ مفقُـودة

نَكَّسَ الدهرُ ثَمَّ أعـلامه جَوْ   رًا ، فهل يستعيد خُضْراً بُنُوده ؟

* * *

فى (فَلسطين) عاصفٌ هال (صُهيُو   نَ) فآضتْ آمـالَهُم مَصفُـوده

نهضَ الثـائرون أكفانَ ذلٍّ   وأرتدُوا حُلَّةَ النِّضَـال ا[illegible]

مِنْ صِـغَارٍ عَادُوا كبارًا بعزم   راعَ زَحْفَ العدُوِّ ، فلَّ حديده

تركُوه فى ذمّةِ الدَّهر يهذِى ،   لم يُبالوا تهـديده وَوَعيـده

مضَغُوا الجمْر ، فاستحالُوا شَرارًا   حفزَتْهم إلى الجهادِ العتيـد

صعقُـوه حِجـارةً بـارَكَ اللّـ   ـهُ لِيصْـلَى نِيرانَها الموقودة

أرخَصُـوا من عِنـادِهِ مُسْتبدًّا   نشوةُ الثَّـأرِ تستفِزُّ شهِيدَه

وديارُ الأَحْرارِ مهْما اسْتُضِيمتْ فهى تُخزِى الباغِى ،وتَعْجمُ عُودَه

صمَدُ النَّا شِئُون فى خَيْمةِ الفَقْـ ر فأَضْحوا على الزَّمَان شهُوده

أَذْكَرُونَا أَمْجادَ ماضٍ عَـريقَ فى زمانِ المطَامِحِ المحـدودة

أَرجعُـوا دولةً بِرَغْم المـآسى واستعادُوا كيانَهمَ ، ووجُوده

مصرعُ البغْى حانَ فالبَغْى مخذُو لٌ ، وَأَحْـلامُه غدت موؤُودة !

* * *

أُمةَ العربِ غُربة الرُّوحِ طالتْ ولوى الدهرُ عنْ أَمانِيكَ جيدَه

قد تداعى عليكِ فى غَفْلةِ النصـ ر ، خبيثٌ ضار يَحُثُّ جُنُودَه

فاستعزى بوَحْدة تَرفَعُ الظُّلْـ مَ ، وتُعِلى راياتِنا المعقـودة

إن تَوحَّدتِ فانتصـارُك آتٍ أَو تَفرقْتِ فالأَمَانى بـعيدة

قدرٌ أَن تَعِى مَصِيرَ شُعـوبٍ قَدرُ العربِ ، وَحْـدة مشْهُودَة

مُنْذُ حِين ونَحْنُ نُرقُبُ صُبْحاً قدْ أَطَالَ أَزورَاره ، وشُرُوده

أَتـراهُ يجىءُ بعْـد تَنَـاءٍ فنناجِى بِفَرحَةِ القلْب عِيده؟!

حسن عبد الله القرشى
عضو المجمع المراسل من السعودية



دواب الأرض فى القرآن الكريم

للدكتور محمد رشاد الطوبى

لقد كرم الله سبحانه وتعالى تلك الدواب المختلفة الأنواع ، المتعددة الأشكال والأحجام والألوان ، والتى منها ما يدب على سطح الأرض ، أو يستقر مختبئاً فى طبقاتها السطحية ، أو يطير فى أجواز الفضاء كرمها الله سبحانه وتعالى بالآية التالية :

(وما من دابةٍ فى الأرضِ ولا طائرٍ يطيرُ بجناحيهِ إلا أممٌ أمثالُكمْ) .

(صدق الله العظيم)

إننا نستطيع أن نتلمس فى تلك الكلمات البسيطة الواضحة أن الله سبحانه وتعالى قد رفع من شأنها ، وأعلى من قدرها لتصبح فى منزلة الأمم التى يعتز بها بنو البشر ، كما أظهرت الدراسات الدقيقة التى أجريت على البعض منها – وذلك بعد نزول القرآن الكريم بأزمنة طويلة – أظهرت وجود مجتمعات حيوانية غاية فى الدقة والنظام : حفاظاً على الصالح العام ، وخدمة لجميع أفراد المجتمع دون تفرقة أو تمييز .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى آية كريمة أخرى ، أكثر شمولا من الآية السابقة مما يتعلق بمخلوقات الله سبحانه وتعالى ، وتلك هى :

(ألمْ ترَ أنَّ الله يسْجُدُ لهُ من فى السَّماواتِ ومن فى الأرْضِ والشَّمسُ

(*) ألقى فى الجلسة الثانية فى يوم الثلاثاء ٢٢ من رجب سنة ١٤٠٩هـ الموافق ٢٨ من فبراير (شباط) سنة ١٩٨٩م .

والقمرُ والنُّجُومُ والجِبالُ والشَّجرُ والدَّوابُّ وكثِيرٌ مِن النَّاسِ) ـ صدق الله العظيم .

لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى راض عن جميع الدواب ، لأنها تسجد له وتسبح بحمده ، ولكنه غير راض عن كل الناس ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر .

إن الأصل فى اشتقاق كلمة «الدواب» هو أنها تدب على سطح الأرض ، ويسمع لانتقالها صوت ، وهى كلها تشترك فى ذلك ، من النملة الصغيرة ، التى هى من أصغر مخلوقات الله حجماً ، إلى الفيل وهو أضخم الحيوانات الأرضية المعاصرة على الإطلاق . ولكل منهما فى القرآن ذكر ، كما أن لكل منهما فى القرآن قصة مشهورة

ولا أظن أن هناك من لايعرف قصة النملة التى شاهدت سليمان وجنوده يجتازون الوادى الذى تعيش فيه ، فخاطبت أفراد قومها قائلة :

(يا أَيُّها النَّملُ ادْخُلُوا مسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمنَّكمْ سُلَيْمانُ وجُنُودُه وهُمْ لاَ يشْعُرُون) ـ صدق الله العظيم .

ولما كان سيدنا سليمان عليه السلام على معرفة بلغة الحيوانات على اختلاف أنواعها فقد أدرك قولها على الفور ، وتبسم منه ضاحكاً ، وسوف نستعرض بعد قليل موجزاً عن لغة الطير والحيوان .

أما قصة الفيل ، وهى التى وردت فى قوله سبحانه وتعالى :

(أَلَمْ تر كيْف فَعل ربُّك بأَصْحَابِ الفِيل) ـ صدق الله العظيم .

وتشير تلك الآية الكريمة إلى جيش « أبرهة الحبشى » الذى أعد جيشاً كبيراً على رأسه فيل ضخم هاجم به بلاد العرب ، وغزا مكة المكرمة سبيل الإسلام ، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يتركهم كثيراً يتمتعون بهذا النصر ، بل سرعان ما أرسل عليهم « طَيرا أَبَابِيل » أبادت هذا الجيش عن آخره ، وانقذت مكة المكرمة من الدمار .

وبين هذين الحدين ـ النملة وما هو أصغر منها بكثير كالبكتريا والطحالب الدقيقة والحيوانات وحيدة الخلية ، والفيل وما هو أضخم منه بكثير مثل حوت العنبر

والهرقل وحوت بسكاى وغيرها من الحيتان البحرية ، بين هذين الحدين ينتشر « المليون نوع » من الحيوانات التى استطاع علماء التصنيف توصيفها وتبويبها فى مختلف بلاد العالم إلى :

شعب	Phyla
وطوائف	Classes
ورتب	Orders
وفصائل	Families
وأجناس	Genera
وأنواع	Species
وسلالات	Races

وهى فى مجموعها تستوطن كل مكان على اليابسة أو فى البحر ، حيث تستغل جميع البيئات والمناطق الجغرافية وغيرها ، فمنها على سبيل المثال ما يعيش فى الصحارى الجرداء ، أو فى السهول المنبسطة التى يخضر أديمها بعد هطول الأمطار ، أو عند قمم الجبال المرتفعة ، أو على سفوحها المنحدرة ، أو فى داخل الكهوف والسراديب التى يصعب الوصول إليها ، كما أن منها ما يعيش فى الأحراش والأدغال والغابات ، أو على أشجارها وشجيراتها المتشابكة الفروع والأغصان ، كما يسبح فى أنهار تلك الغابات ومستنقعاتها ومصادرها المائية الأخرى أنواع عديدة من الحيوانات المائية ، كما أنها تستخدم أيضاً مساق تلجأ إليها الحيوانات الأرضية عند اشتداد القيظ ، وخصوصاً فى مواسم الحرارة والجفاف .

وهناك عدد كبير من تلك الدواب ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، بدءا من تلك الحيوانات الصغيرة كالنمل والنحل والذباب والبعوض والجراد والقمل وغيرها من الحشرات ، ومروراً بالحية والثعبان والهدهد ، وانتهاء بالخيل والبغال والحمير والأنعام والإبل والقردة وغيرها من ذوات الأثداء .

وقد ذكر كل من تلك الدواب إما فى إحدى المناسبات التاريخية أو إشارة لإحدى قصص الأنبياء والمرسلين ، أو تذكرة لما تؤديه للإنسان من خدمات فى حياته المنزلية أو الحقلية ، أو لإمداده بما يحتاج إليه من طعام أو ملبس ، أو غير ذلك من الفوائد والمزايا المتعددة التى لا حصر لها

* * *

منطق الطير :

سبق أن ذكرنا أن للحيوانات لغة يتفاهمون بها فيما بينهم ، ويوجد فى القرآن الكريم ما يقطع بصحة هذا القول ، ومن ذلك على سبيل المثال قصة الحديث الذى تم بين الهدهدوسيدنا سليمان عليه السلام ، فقد كان هذا الرسول الكريم يتفقد الطيور والحيوانات الأخرى فلم يجد الهدهد بينهم ، كما يتضح من الآية الكريمة التالية :

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مالِيَ لا أرى الْهُدْهُدَ أمْ كَانَ مِن الغَائِبِين)

(صدق الله العظيم)

وماهى إلا فترة وجيزة حتى حضر الهدهد ، معتذراً عن تأخره ، وموضحاً أن السبب فى هذا التأخر كان لأمر عظيم ، فقد شاهد وهو يطيرفى جو السماء قوماً يعبدون الشمس من دون الله ، وتتولى أمرهم سيدة لها « عرش عظيم » ، وكانت تلك السيدة هى بلقيس ملكة سبأ ، فما كان من سيدنا سليمان إلا أن أمر الهدهد بأن يحمل رسالة يلقيها عليها وعلى أتباعها من القوم الظالمين ، داعياً لهم جميعاً بالهدى والاسلام فى قوله الصريح الواضح :

(أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وأْتُونِي مُسْلِمِينَ)

(صدق الله العظيم)

وبقية القصة معروفة لاداعى للاسترسال فيها ، مع أنها من أمتع القصص التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، ولا يهمنا فى هذا المجال سوى الحديث الذى دار بين سيدنا سليمان والهدهد ، وذلك لأن هذا الطائر المشهور كان بطبيعة الحال يتكلم « بلغة الطيور » ، وهو ما يوضحه لنا القرآن الكريم فى قوله سبحانه وتعالى :

(يا أيُّها النَّاسُ عُلِّمْنا مَنطِقَ الطَّيْر)

(صدق الله العظيم)

وواضح هنا أن المقصود « بمنطق الطير » هو « لغة الطيور » التى يتفاهمون بها فيما بينهم ، كما يتخاطب بنو البشر .

اللغة فى مفهومها العام :

لابد لنا قبل الدخول فى تفصيلات أخرى فيما يتعلق « بلغة الطير والحيوان » من إيضاح المقصود بكلمة « لغة » فى مفهومها العام ، كما هو وارد فى المعاجم

العربية والأجنبية ، فقد جاء فى « المعجم الوسيط » على سبيل المثال أن اللغة « هى أصوات يُعَبِّرُ بها كل قوم عن أغراضهم » ، وجاء فى معجم اكسفورد الكبير أن « اللغة هى طريقة التعبير بالكلمات المسموعة » وجاء فى معجم وبستر أن « اللغة هى نظام للتخابر بين بنى البشر بواسطة رموز مكتوبة أو صوتية » .

يتضح من تلك التعريفات وغيرها أن اللغة الحقيقية تعتمد على عنصرين أساسيين ، وهما : صدور أصوات من مصدر ما ، ثم سماع هذه الأصوات ، وفى الإنسان يتحقق العنصر الأول باهتزاز « الأحبال الصوتية الموجودة داخل الحنجرة » ويقوم اللسان الموجود فى أفواهنا بتكييف تلك الأصوات عند مرورها عبر تجويف الفم إلى الخارج ، أما سماع هذه الأصوات والاستدلال على مفهومها فهو من وظائف الأذن ، وهى عضو السمع عند الإنسان ، وغيره من الطيور والفقاريات الأخرى .

ولذلك فإن الطفل الصغير المصاب بالصَمَمْ ، لا يستطيع سماع الأصوات أو الكلمات التى نتبادلها فيما بيننا ، ولذلك فإنه يصبح فيما بعد من البُكم الذين لايتكلمون ، ولست فى حاجة إلى القول بأن الإنسان يتعلم فى طفولته جميع الكلمات التى ينطق بها كل من حوله من البشر ، أى أنه يتعلم اللغة تعليماً ، ولا يولد على معرفة بها على الإطلاق ، ونستطيع أن نتلمس العلاقة بين الصَمم والبكم فى كثير من الآيات القرآنية الكريمة ، ومنها على سبيل المثال :

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

(صدق الله العظيم)

والواقـع أن البكُم أو الخرس لَهم لغة خاصة يتفاهَمون بها ، وهى لاتعتمد اطلاقاً على الأصوات ، ولذلك فقد قيل فى تعريفها إنها لغة الأصابع ، وجاء فى قاموس اكسفورد مثلا أن « لغة الأصابع » عبارة عن : « التفاهم برموز متفق عليها مسبقاً بواسطة أصابع اليدين » .

لغـة الطـير والحيوان :

ونستطيع من هذا المنطلق إن نتدرج بسهولة إلى المقصود « بلغة الطير والحيوان » فهى تختلف فى مفهومها العلمى اختلافاً واضحاً عن « لغة الإنسان » ، كما أنها

تعتمد فى كثير من الحالات على طرق وأساليب متباينة ، يتوقف كل منها على نوع الحيوان الذى يمارس استخدام هذه اللغة أو تلك ، فقد تكون فى كثير من الحالات على شكل أصوات أو صيحات أو تغريد ، وفى حالات أخرى لاتكون صوتية على الإطلاق ، وتستخدم فيها بعض الحواس الأخرى كالشم واللمس والإبصار وغيرها .

كما أنها قد تكون فى بعض الحالات على شكل « إشارات ضوئية » تصدر عن مجموعات مختلفة من الحيوانات يطلق عليها اسم « الحيوانات المضيئة » ومن أشهر أمثلتها « الذباب المضىء » الذى ينتشر فى كثير من المناطق الاستوائية ، وكذلك « الديدان المتوهجة » ، وكلاهما من الحشرات غمدية الأجنحة ، وقد أجريت عليهما كثير من التجارب المعملية التى أوضحت أن الذكور فقط هى القادرة على إنتاج أضواء قوية ، وأنها لاتصدرها إلا فى ظلمة الليل ، وقد وصفت تلك الأضواء بأنّها من « الإشارات التزاوجية » التى يصدرها الذكور لتستدل بها الإناث على أماكن وجودها .

وأيا كانت وسيلة هذا التفاهم فقد اعتبرها العلماء المختصون لغة لهذه الحيوانات أو الحشرات أو الطيور ، طالما أنها تستخدم فى نقل المعلومات والمشاعر والاحتياجات الغذائية أو الجنسية من فرد إلى آخر .

ويحتوى عالم الحيوان بصفة عامة وعالم الطيور بصفة خاصة على عدد كبير من الأنواع ، يستطيع أفراد كل منها أن يتفاهموا فيما بينهم بوسيلة أو بأخرى من الوسائل التى سبق ذكرها ، وقد استطاع العلماء المختصون بدراسة « سلوك الحيوان » أن يوضحوا لنا أن التفاهم الذى يتم بين أفراد النوع الواحد ، قد يكون بقصد التحذير من أخطار تلوح فى الأفق ، أو التنبيه إلى اكتشاف مصادر غذائية جديدة ، أو التجمع فى قطيع واحد أو سرب واحد ، وخصوصاً أثناء الانتقال أو الهجرة من مكان إلى مكان ، أو بقاء الأسرة متماسكة حتى لايضل صغارها عن الكبار فى موسم التكاثر ، أو غير ذلك من الأسباب .

هجرة الطيور :

ننتقل بعد ذلك إلى موضوع هجرة الطيور ، تلك الهجرة التى تعتبر من أدق

الظواهر الحيوية ، واكثرها شمولا فى الحفاظ على الحياة ، وفى تلك العملية التى تمارسها أنواع خاصة من الطيور عاماً بعد عام فى دقة ونظام ، تلعب « الأصوات » دوراً أساسياً فى تجمعاتها قبل بدء الرحيل ، ثم المحافظة على الآلاف المؤلفة التى يتكون منها السرب الواحد متماسكة متآزرة ، لايضل منها فرد ، أو ينحرف عن خط سير الجماعة فى كل من رحلتى الذهاب والعودة . .

وتعيش تلك « الطيور المهاجرة » طبيعياً فى الأقاليم الشمالية الباردة من نصف الكرة الشمالى ، فى كل من آسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية ، وهى فى الواقع من سكان تلك المناطق ، ولكن عند حلول فصل الشتاء ، تشتد برودة الجو ، ويتساقط الجليد على سطح الأرض ، ويقل الغذاء تدريجياً حتى يكاد ينعدم .

ولا تجد تلك الطيور أمامها وسيلة للعيش سوى القيام بهجرة جماعية نحو الجنوب ، حيث يكون الجو أكثر دفئاً ، والغذاء أكثر وفرة وتنوعاً ، وقد لاحظ علماء الطيور أنها تحدث فى تلك الفترة من تاريخ حياتها ، كثيراً من « الإشارات الصوتية » المتتالية ، وأنها لاتنقطع عن ترديد تلك الأصوات ، حتى تتجمع منها فى النهاية أسراب ضخمة مستعدة للهجرة نحو الجنوب .

ويتكون كل واحد من تلك الأسراب من أعداد ضخمة من الأفراد من نوع واحد فقط ، ويكون لكل منها مرشد أو دليل من أقوى تلك الطيور وأعظمها شأناً ، حيث يسير فى مقدمة السرب وكأنه رمز للكفاح والصمود ، ويقطع البعض من تلك الأسراب آلافاً من الكيلومترات فى تلك الرحلة الجماعية ، ولما كانت هناك أنواع من الطيور لاتهاجر إلا ليلاً ، كان من الضرورى صدور أصوات مميزة ، ليبقى السرب متماسكاً أثناء الطيران ، وخصوصاً فى الليالى الحالكة الظلام ، التى لايجدى فيها الإبصار .

وبعد انقضاء فصل الشتاء الأوروبى تعود تلك الطيور إلى أوطانها مرة ثانية ، حيث تكون أجسامها قد امتلأت شحماً ولحماً ، وأصبحت مستعدة للتكاثر فى تلك الأوطان ، ومن الغريب أن بعضا من تلك الطيور التى تهاجر من انجلترا إلى جنوب

أفريقيا ، تعود بعد رحلتي الذهاب والعودة إلى نفس المناطق التي هاجرت منها ، وأحياناً إلى نفس الأعشاش التي كانت تبيض فيها من قبل .

ومن أشهر الطيور المهاجرة التي تصل إلى مصر :

السمانى (السلوى) والكركى (الغرنوق والعنز (اللقلق الأبيض) والوروار والغر والشهرمان والبلبول والخضارى والشرشير والبجع والحبارى والدريجة والشنقب والطيطوى وقنبرة الماء وغيرها .

أصـــوات لا تســـمع :

يستطيع الإنسان سماع الأصوات التي تصدر من الأنواع المختلفة من الطيور ، ومنها على سبيل المثال زقزقة العصافير ، أو هديل الحمام واليمام ، أو تغريد البلابل والكروان ، أو تلك الصرخات الحادة التي تطلقها الطيور البحرية عندما تشاهد سرباً من الأسماك يسبح بالقرب من سطح الماء .

ولكن هناك أصواتاً أخرى لا يستطيع الإنسان سماعها على الاطلاق ، وتلك هى أصوات الخفافيش ، والخفافيش من الحيوانات الثديية ، الأنثى منها تحمل وتلد وترضع صغارها ، كما تفعل الأنثى من بنى البشر . وهى من الحيوانات الليلية التي تختبىء فى أوكارها أثناء النهار ، ولا تخرج للبحث عن غذائها إلا ليلا .

وقد لوحظ منذ قديم الزمان أنها قادرة على الطيران بسرعة فائقة ، وفى الظلام الحالك ، دون أن ترتطم بالأشجار أو الحواجز الاخرى التى تعترض طريقها ، ولم يكن من المستطاع تفسير تلك الظاهرة ، إلا بعد التجارب الواعية التى أجراها عالم الأحياء الإيطالى المشهور «سبالنزانى» ، فقد كان يضع فى معمله عدداً من الأحبال ، يمدها فى مختلف الاتجاهات ، وقد علقت بها أجراس خفيفة الوزن سرعان ما تسمع جلجلتها عند لمس الأحبال ، ثم يطفئ بعد ذلك أضواء المعمل ، ويتركه فى ظلام حالك ، ويطلق الخفافيش موضع التجربة من أقفاصها ، فكانت تطير فى مختلف الاتجاهات ، حتى لتكاد تلمس وجهه ، وهو قابع فى سكون تام ، فى أحد الاركان دون أن يدق جرس واحد من تلك الأجراس العديدة ، وعرف بعد ذلك أن الخفافيش تصدر أثناء طيرانها الليلى « أصواتاً فوق

سمعية » ، لاتستطيع الأذن البشرية إدراكها ، وأن تلك الأمواج الصوتية تنعكس من الحواجز التى ترتطم بها ، فتلتقطها أذن الخفاش ، وتنحرف عن تلك الحواجز فلا ترتطم بها . وقد استخدمت تلك المعلومات فيما بعد فى تصنيع « أجهزة الرادار » .

دابة الأرض :

بين دواب الأرض جميعاً على اختلاف أشكالها وأحجامها دابة صغيرة اختصها الله سبحانه وتعالى بحدث عظيم ، وتلك هى « دابة الأرض » التى ورد ذكرها فى الآية الكريمة التالية :

(فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ)
(صدق الله العظيم)

إن ما يدور حول تلك الدابة من حديث يدل بشكل قاطع على أن المقصود بها هو « الأرضة » (النملة البيضاء) .

وكانت الأرضة معروفة عند العرب حيث وصفت بأنها دويبة صغيرة تشبه النملة . وقد اشتق اسمها من فعل « أرض » بمعنى أكل ، أما المنسأة فهى العصا الغليظة التى تكون عادة فى حوزة الراعى ليهش بها على الأغنام أو يتوكوءا عليها ، وموجز تلك القصة أن سيدنا سليمان عليه السلام قد أدركه الموت وهو واقف على قدميه ، ومرتكز على عصاه المصنوعة من الخشب . وكانت الأرضة قد وصلت إلى تلك العصا من باطن الأرض ، وأخذت تنخر فيها من الداخل تدريجياً حتى أتت عليها تماماً ، ولم يبق منها سوى قشرتها الخارجية الرقيقة ، وسرعان ما سقط سيدنا سليمان بعد ذلك على الأرض ، حيث أعلنت وفاته بعد هذا السقوط .

والواقع أن « الأرضه » تختلف كل الإختلاف عن « االنمل الحقيقى » الذى يعرفه كل إنسان ، والذى يعيش معه فى المنازل والحدائق والمزارع والمصانع وغيرها . فالنمل الحقيقى له جسم صلب داكن اللون عادة ، ولكن « الأرضة » جسمها لين فاتح اللون ، وهذا هو السبب فى إطلاق اسم « النمل الأبيض » عليها ، ولايوجد للأرضة خصر ضيق بين الصدر والبطن كما فى النمل الحقيقى ، كما أنهما يختلفان أيضاً فى العادات الغذائية .

فالنمل الحقيقى يأكل كل شىء يعثر عليه من بقايا الحيوانات الحية أو الميتة والأوراق النباتية والفطريات ورحيق الأزهار والعصارات النباتية وما يستطيع الوصول إليه من طعام الإنسان كالخبز والسكر والخضراوات والمشروبات الحلوة وغيرها ، بينما لاتتغذى الأرضة إلا على الخشب والمصنوعات الخشبية ، كما تتغذى فى الغابات على جذور الأشجار وسيقانها وفروعها المختلفة .

وفى مجتمع « الأرضة » يمكن تمييز أربعة أنواع من الأفراد ، وهى الذكور والملكات والجنود والشغالة ، ولكل منها وظيفة محددة تودى لصالح هذا المجتمع ، وتكون الذكور عادة قليلة العدد صغيرة الحجم وظيفتها الوحيدة هى إخصاب الملكات .

ولكل مستعمرة ملكة واحدة لاتقوم بأى عمل من الأعمال داخل المستعمرة سوى انتاج البيض ، ويوضح لنا عالم الحشرات « اسكيريتش » (Escherich) فى بحث أجراه على أحد الأنواع الإفريقية من الأرضة أن الملكة تضع مايقرب من ثلاثين ألف بيضة فى اليوم الواحـد ، أى مايقرب من عشرة ملايين بيضة فى العام ، ولما كانت الملكة تعيش مايقرب من عشرة أعوام فى المتوسط فهى تضع مائة مليون بيضة خلال حياتها . وتوضح لنا تلك الأرقام السرعة التى تنتشر بها الأرضة إذا ما صادفت البيئة الصالحة لحياتها .

وهناك من الأفراد من تخصصوا فى الدفاع عن المستعمرة وسكانها وهم الجنود ، وهم يختلفون عن بقية السكان بشكل واضح ، إذ أن لهم رؤوسًا كبيرة وفكوكاً قوية حادة تستخدم كسلاح فتاك فى الهجوم على أى دخيل يحاول اقتحـام المستعمرة أو التعرض لسكانها ، وبذلك يعيش باقى السكان فى أمن وسلام ، ومن الغريب أن هولاء الجنود قد يكونون من الذكور أو من الإناث على حد سواء .

والشغالة أيضًا بعضها من الذكور ، والبعض الآخر من الإناث ، وهى تقوم بجميع الأعباء المنزلية المتعلقة بحيـاة

المستعمرة وازدهارها ، ومنها على سبيل المثال جمع الغذاء الكافى لجميع سكان المستعمرة، ثم القيام بإطعام الملكة والجنود و « الحوريات » الصغيرة التى تفقس من البيض ، وبناء الأعشاش الجديدة اللازمة للسكان الذين يتزايد عددهم يومًا بعد يوم ، وأيضًا عمل الممرات أو السراديب التى تربط جميع الأعشاش بعضها ببعض لسهولة الاتصال فيما بينها .

والواقع أن تلك الشغالة هى التى تقوم بقرض الخشب وابتلاع أجزاء من التربة ، متخذه من تلك المواد طعامًا لها ، وبعد هضم هذا الطعام تقىء الشغالة جزءًا منه لإطعام الملكة والجنود والحوريات الصغيرة كما ذكرنا من قبل . وهى تستخدم فى بناء الأعشاش والممرات مادة من جزيئات التربة تبللها بلعابها ، ثم تقيئها بعد فترة من الزمن فتصبح صالحة للاستعمال — « كمادة لاصقة » ، ويقول عالم الحشرات المشهور هويلر (Wheeler) — إن هذه المادة تصبح بعد جفافها فى صلابة « الأسمنت » الذى يستخدمه الإنسان فى عمليات البناء والتشييد .

ومن أطرف ما عرف عن تلك الدابة الصغيرة أنها قد مارست « زراعة الحدائق » قبل أن يعرفها الإنسان بأزمنة بعيدة ، إذ تقوم الشغالة بالتجول بين نبات الأرض لتجمع منه بعضًا من الفطريات (وهى من النباتات البسيطة الخالية من الكلوروفيل) ثم تقوم بزراعتها داخل المستعمرة ، حيث تنمو إلى حدائق مزدهرة تسر الناظرين ، ويوضح لنا « هويلر » أن « حدائق الفطريات » التى تتم زراعتها على هذا النحو ، تصبح بعد نموها « دورًا للحضانة » فى مستعمرات الأرضة ، فهى تموج بالآلاف العديدة من الأفراد حديثة الفقس ، وتقوم تلك الأفراد الصغيرة فى غدوها ورواحها داخل تلك الحدائق بجنى ثمارها ذات القيمة الغذائية العالية . ومن الغريب أن الشغالة الناضجة وكذلك الجنود لا يقتربون من ثمار تلك الحدائق على الإطلاق ، بل يتركونها لمن هم فى حاجة إليها من صغار النمل .

ولا يقتصر العيش فى جماعات منتظمة يسودها الهدوء والدقة والنظام على الأرضة وحدها ، بل هناك أيضًا حشرات أخرى كالنمل أو النحل تمارس مثل تلك « الحياة

الاجتماعية » ، حيث وصفها الله سبحانه وتعالى بأنها « أُمَمٌ أَمْثَالُنَا » ، ولكنى اخترت من بينها جميعًا تلك الأرضة التى أكلت عصا سيدنا سليمان عليه السلام ، ويرجع هذا الاختيار فى الأساس لأن « الأرضة » قد أخذت تنتشر فى وقتنا الحاضر انتشارًا سريعًا فى بعض القرى المصرية من صعيد مصر ، حيث طالعتنا الأنباء بأنها دمرت قرية بكاملها وشردت جميع سكانها ، وتلك هى « قرية السلام » بمحافظة أسوان ، ثم أخذت بعد ذلك تنتشر فى كثير من القرى المجاورة ، حيث تلتهم المنازل المصنوعة من الخشب وكل ما تحتوى عليه من الأثاث أو المصنوعات الخشبية كما عرفنا أيضًا أنها انتقلت إلى كل من السويس وبور سعيد ، حيث بدأت فى مهاجمة المنازل الخشبية . وخربت مئات الأطنان من الخشب المستورد فى مخازن الجمارك والتجار ، مما استدعى القيام بحملة مكثفة يقوم بها حاليًا المختصون فى وزارة الزراعة لمكافحة تلك الآفة الخطيرة ووقف انتشارها إلى أماكن أخرى .

الانسان ودواب الارض :

هناك من الآيات البينات ما يدل بشكل واضح على أن الله سبحانه وتعالى قد أشار إلى الإنسان نفسه على أنه من دواب الأرض ، ومن ذلك على سبيل المثال الآية الكريمة التالية :

« ولَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ علَيْها مِن دَابَّة وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسمًّى » . (صدق الله العظيم)

وآية أخرى مشابهة :

« إِنَّ شرَّ الدَّوابِّ عِند اللهِ الَّذِين كَفرُوا فهمْ لَا يُؤْمِنون » . (صدق الله العظيم)

ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد ميز الإنسان عن جميع المخلوقات الأخرى بالعقل والحكمة وحسن التدبير ، كما أوضح دون لبس أو غموض أنه سبحانه وتعالى قد وضع كل تلك المخلوقات فى خدمة الإنسان لينعم بالحياة الحرة الكريمة .

ولا تقتصر المنافع والمزايا على تلك الدويبات الصغيرة، التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، ومنها النحل على سبيل

المثال ، وهى التى يقول عنها فى كتابه الكريم :

« يَخرُجُ مِن بُطونهَا شرَابٌ مُخْتلِفٌ ألْوانُه فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاس » .

(صدق الله العظيم)

بل تمتد تلك المنافع والمزايا فى الأساس إلى تلك الدواب الكبيرة التى تودى للإنسان خدمات لا تعد ولا تحصى . فهناك مثلًا دواب الحمل التى تستخدم فى الركوب وجر العربات وحمل الأثقال ، وهى التى ورد ذكرها فى الآية الكريمة التالية :

« والْخيْلَ وَالْبغَال وَالْحَمير لِترْكَبُوهَا وزِينة » . (صدق الله العظيم)

بل إنها تستخدم أيضا فى الحرب والقتال مصداقًا لقوله سبحانه وتعالى :

« وَأَعِدُّوا لَهمْ ما اسْتطَعْتمْ مِن قوَّة ومِن ربَاطِ الْخيْل تُرْهِبُون بِهِ عدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ »

(صدق الله العظيم)

وهناك أيضًا تلك الدواب التى يتخذ الإنسان من لحومها وألبانها طعامًا له ، ولأطفاله فى مختلف بلاد العالم ، وتلك هى « الأنعام » التى ورد ذكرها فى الآية الكريمة التالية :

« والأَنْعَامَ خلقَها لَكمْ فِيهَا دِفْءٌ ومنَافِع ومِنْها تأكلون » .

(صدق الله العظيم)

وفى آية أخرى أكثر شمولًا :

« وجَعَل لَكُمْ مِن جُلودِ الأَنْعَام بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكمْ ويوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشعارهَا أثاثًا ومتاعًا إلَى حِين » .

(صدق الله العظيم)[1]

وقد جاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم الذى أصدره المجمع عام ١٩٧٠ أن كلمة « الأنعام » تطلق فى الأصل على الإبل ، كما أنها تطلق أيضًا على الإبل والبقر والغنم على التوسع . وهى جميعًا من ذوات الأربع (أى تلك التى تمشى على أربعة من الأرجل) .

---

(١) الصوف للغنم ، والشعر للمعز ، والوبر للإبل .

أما الإنسان – وهو الذى وضعه الله سبحانه وتعالى على رأس تلك المخلوقات جميعًا – فهو يمشى على رجلين اثنتين فقط ، ويكون فى سيره معتدل القامة ، مرفوع الرأس بطريقة لا يدانيه فيها أى مخلوق آخر على الإطلاق . وهو ما تشير إليه الآية الكريمة التالية :

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ »

(صدق الله العظيم)

وهناك آية أخرى مشابهة تقول :

« الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ » .

(صدق الله العظيم)

وتحتوى كل من هاتين الآيتين على إشارة واضحة إلى حسن القوام واعتدال الجسم ، كما هو مشاهد وملموس .

وقد أدت استقامة القامة وارتكاز الجسم على رجلين اثنتين بدلًا من أربع ، إلى تحرير الرجلين الأماميتين ، حيث تحورتا إلى ذراعين يستخدمهما الإنسان فى مختلف الأعمال والأغراض ، ولعل من أهم تلك التحورات انزلاق الأبهام ليصبح فى مواجهة الأصابع الأخرى . حيث يستطيع الإنسان عن طريق تلك اليد القابضة الإمساك بمختلف الآلات والأدوات .

ويعزى كثير من العلماء تفوق الإنسان وتقدمه فى العلوم والفنون ، وإتقانه لكثير من الحرف اليدوية التى تحتاج إلى مهارات عالية ، ونجاحه فى ولوج الميادين الزراعية والصناعية وغيرها ، يعزون كل تلك القدرات إلى امتلاكه تلك اليد القابضة التى يقع فيها الإبهام فى مواجهة الأصابع الأخرى فى اليد .

تلك نبذة موجزة عن « دواب الأرض فى القرآن الكريم » ، وهى التى تشكل فى مجموعها موضوعًا متسع الأرجاء ، ومتعدد النواحى والأغراض ، لعلى أكون قد وفقت فيها فى إيضاح بعض الجوانب العلمية والتطبيقية التى لا تخفى أهميتها على أحد ؛ وعذرى فى ذلك هو ضيق الوقت الذى منح لى لإتمام هذا الحديث .

والله ولى التوفيق .

محمد رشاد الطوبى
عضو المجمع

شعراء مغمورون
(عبد الله بن عمرو بن أبي صبح المزني)

للأستاذ عبد العزيز أحمد الرفاعي

١ ــ أخباره

هذا شاعر من شعراء القرن الثاني الهجري ، قلما عنيت به المصادر الأولى ، أو ترجمه المترجمون . . بالرغم مما يتميز به شعره من طلاوة ، حتى كتاب الأغاني الضخم ، الذي استقصى الكثير من الأخبار والأشعار ، لم يرد فيه ذكر هذا الشاعر ، أو أي خبر عنه ، مع أننا نجد أبا الفرج مؤلف الكتاب ، ينقل الكثير الكثير عن الزبير بن بكار ــ والزبير هو المصدر الأول لأشعار هذا الشاعر ــ ولكنه لاينقل إلى الأغاني شيئا من خبره ولاشعره .

والزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ = ٨٧٠ م) ، يكاد يكون المصدر الوحيد الذي نقل إلينا طائفة من شعر هذا الشاعر في القسم الذي طبع من كتابه عن أنساب قريش . . أعني كتاب (جمهرة نسب قريش) ، الجزء الأول ، الذي حققه الأستاذ (محمود محمد شاكر) . . ولم يصدر بعد الجزء الأول شيء .

وحينما أقول يكاد ، فإنما أعني أنني ــ عدا ماذكرت ــ لم أقف حسب اطلاعي الضئيل على شيء من شعره في كتاب مطبوع إلا في (التعليقات والنوادر) لأبي هارون بن زكريا الهجري ، المتوفى حوالى سنة ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م ، وإلا قطعة واحدة من أربعة أبيات ، جاءت في كتاب (الورقة) ، نقلها صاحب (الفهرست) وسيأتي الكلام عنها بعد قليل .

أما ماورد لدى كل من الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) في (تاريخ بغداد) ، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) ، من شعر ، فهو ينتهي بروايته إلى الزبير بن بكار .

(*) ألقي في الجلسة الثالثة في يوم الأربعاء ٢٣ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٢٩ من فبراير (شباط) سنة ١٩٨٩ م .

ولم أقف على من ترجم له ترجمة مستقلة من قدامى المؤرخين ، إلا النديم أو ابن النديم فى (الفهرست) . .

وقد دل على (الفهرست) الأستاذ (محمود محمد شاكر) فى هامش ٦٧ و ٦٨ من كتاب (جمهرة نسب قريش) الجزء الأول ، فى الفقرة (١١٩) .

وبالرجوع إلى (الفهرست (طبعة = (رضا – تجدد) وجدته قد ترجم له فى (فصحاء الأعراب) ، وجاءت ترجمته فى ص (٥٥) وهذا نصها :

«ابن أبى صبيح ، عبد الله بن عمرو بن أبى صبيح المازنى ، أعرابى بدوى ، نزل بغداد ، وبها مات . كان شاعرا فصيحا ، أخذ عنه العلماء ، وله مع الفقعسى أخبار طريفة قال دعبل : حضر الفقعسى دارا فيها وليمة ، وحضرها ابن أبى صبيح الأعرابى ، فازدحما على الباب ، فغلب ابن أبى صبيح ، ودخل قبل محمد وقال :

ألا ليت أنك أم عمرو
شهدت مقاومى كى تعذرينى
ودفعى منكب الأسدى عنى
على عجل بناحية زبون
بمنزلة كأن الأسد فيها
رمتنى بالحواجب والعيون
وكنت إذا سمعت بحق خصم
منعت الخصم أن يتقدمونى» اهـ .

أما خصمه الفقعسى ، الذى زاحمه على باب الوليمة ، فقد ترجم له أيضا صاحب الفهرست ، قبله مباشرة ، ويبدو أنهما يزدحمان حتى على باب الفهرست للترجمة ، ولكن الفقعسى كان هذه المرة هو الغالب ، فقد تقدمه فى الترتيب ، وهذا نص ما أورده صاحب الفهرست (ص ٥٥ أيضا) :

«الفقعسى ، واسمه محمد بن عبد الملك الأسدى ، راوية بنى أسد ، وصاحب مآثرها وأخبارها ، وكان شاعرا ، أدرك المنصور ومن بعده ، وعنه أخذ العلماء مآثر بنى أسد ، فمن شعره يمدح الفضل بن ربيع :

الناس مختلفون فى أحوالهم
وابن الربيع على طريق واحد

وله من الكتب المصنفة «كتاب مآثر بنى أسد وأشعارها» أ هـ [1]

---

(١) يبدو أنه كان محظوظا أيضا عند الزركلى ، فقد ترجم له فى (الأعلام) ولم يترجم الخصم فذهب إلى أن وفاته نحو سنة ٢١٠ هـ = ٨٢٥ م ، وقال انه أدرك أيام المنصور العباسى ، ومدح الرشيد والمأمون ، وبعض رجالهما . واعتمد على (كتاب الورقة) لابن الجراح .

ولكننا نجد ابن الجراح ، محمد بن داود المتوفى سنة ٢٩٦ هـ = ٩٠٩ م ذكر ابن أبى صبيح فى كتابه (الورقة) ص ١٤ ، حينما ترجم لخصمه : محمد بن عبد الملك الفقعسى الأسدى ، سالف الذكر فى ص ١٣ ، (ورب ضارة نافعة) . فقال مانصه :

« قال ابن أبى خيثمة : قال دعبل : حضر محمد بن عبد الملك الفقعسى دارا فيها وليمة وحضرها ابن أبى صبيح الأعرابى ، وكان بدويا نزل بغداد ، ومات بها ، وكان شاعرا مجيدا ، فازدحما على باب الدار ، فغلب ابن أبى صبيح ، ودخل قبل محمد ، فقال ابن أبى صبيح : (ثم أورد الأبيات الأربعة التى سلف ذكرها) .

ونحن نرى تشابه النصين عند ابن الجراح وابن النديم ، ماعدا بعض الاختلاف ، فرواية ابن الجراح تقول : إنه كان شاعرا مجيدا ، ويقول ابن النديم : كان شاعرا فصيحا . وهو عند ابن الجراح ابن أبى صُبيح ، بضم الصاد وبعدها باء فياء بتصغير صبح ، ولكنه عند ابن النديم ابن أبى صبيح بصاد ثم باء فحاء ، وهو يقول فى تعريفه (المازنى) نسبة إلى (مازن) وابن الجراح لم ينسبه إلى قبيلة .

وابن الجراح كان أسبق وأقدم ، وقد نقل ابن النديم من كتابه (الورقة) الشيء الكثير . . وربما اعتمد عليه فى نقل هذا النص مع شيء من التغيير . . وكلاهما ينقل الشعر عن (دعبل) ، وهو دعبل بن على بن رزين الخزاعى (١٤٨ – ٢٤٦ هـ = ٧٦٥–٨٦٠ م) الشاعر المعروف ، له كتاب (طبقات الشعراء)[1] ، وربما كان هو مصدر هذه النصوص .

ولكن لايفوتنا أن ابن الجراح ، يقول فى بداية نصه (قال ابن أبى خيثمة) . . وابن أبى خيثمة هو أحمد بن زهير (١٨٥– ٢٧٩ هـ = ٨٠١ – ٨٩٢ م) ، وهو من أبرز تلامذة المصعب بن عبد الله بن مصعب الزبيرى ، صاحب كتاب (نسب قريش) ، وأحد كبار الرواة للأخبار والأشعار ، وعليه اعتمد ابن أخيه (الزبير بن بكار) فى كتابه (نسب قريش) ، أو جمهرة نسب قريش . . وهذا يقودنا إلى السندالزبيرى . ولا يبعدأن يكون كتاب (جمهرة نسب قريش) ، هو مرجع هؤلاء الذين نقلوا أخبار ابن أبى صبيح أو على الأقل طرفاً من أخباره – بيد أننى لا أستطيع الجزم مادام جزء كبير من هذا الكتاب لم ينشر بعد ، غير ماهو مفقود منه لم يعثر عليه حتى الآن .

---

(١) انظر عنه (تاريخ التراث العربى) لسزكين ج ٤ من المجلد العربى الثانى الخاص بالشعر ، ص ٠ وما بعدها ، وهو يقول عن هذا الكتاب : « وهو كتاب كثر النقل عنه » .

على أنه وقد تطرق الحديث إلى كتاب (الفهرست) وما أورده من تعريف عن ابن أبي صبيح — مهما كان ضئيلا — فلا أود أن أتجاوزه دون أن أذكر أنه قال عنه في باب (الفن الثاني — من المقالة الرابعة ص ١٨٧) من طبعة تجدد: « ابن أبي صبيح مقل »، وسواء أنقل هذا من كتاب (الورقة) لابن الجراح أم لم ينقله، فهو يعطينا معلومة انتهى إليها علمه، وهي أن هذا الشاعر مقل.. فهل كان مقلا حقا..؟ هذا ما أرجو أن أعود إليه بالحديث فيما بعد إن شاء الله.

المصدر الأقدم — اذن — الذي نجد فيه ذكر ابن أبي صبيح هو كتاب (جمهرة نسب قريش)، ولكنه ليس المصدر الوحيد، فهناك مصدر آخر هو كتاب (التعليقات والنوادر) لأبي علي هارون بن زكريا الهجري، المتوفى نحو سنة ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م، أي أنه كان معاصرا لابن الجراح[1].

وقبل أن اتعرض بالتفصيل، لما جاء في هذين المصدرين.. أود أن أقف قليلا عندما جاء من اختلاف في اسم الشاعر ونسبته.. فهل هو ابن أبي صُبح أو ابن أبي صُبيح كما جاء عند ابن الجراح؟ وهل هو من مازن؟ كما قال صاحب الفهرست، وتابعه على ذلك الأستاذ (سيزكين) في (تاريخ التراث العربي)؟

أقول هو عند الزبير بن بكار في جمهرته، وعند (الهجري) في تعليقاته وهما أسبق وأقدم (ابن أبي صبح) أي بدون تصغير، كما هو عندهما مُزَني لامازني.. وبين النسبتين فرق، كما هو معلوم.. وبعض كتب الأنساب تذكر اسم (عبد الله بن عمرو المزني) في النسبة إلى مزينة.. كما هو عند السمعاني (ت ٥٦٢ هـ)، ولا أستطيع أن أجزم أيقصد هذا الشاعر، أو علما آخر.؟ ذلك أن شاعرنا اشتهر بلقب (ابن أبي صبح) يلازم اسمه.. ومهما يكن الأمر فهو ليس مازنيا وقد يكون الخطأ في (الفهرست) تحريفا من الناسخ.

وقد جاء في شعر هذا الشاعر مايجزم بأنه من مزينة مضر، وهو قوله يمدح مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت الزبيري:

أني لأحبس نفسي وهي صادية
عن مصعب، ولقد بانت لي الطرق
رعوى عليه كما أرعى على هَرِم
قبلي زهيرٌ وفينا ذلك الخلق

وزهير الذي يعنيه هو (زهير بن أبي سُلمى) وهو شاعر مُزني من مضر: بل هو يصرح بمزينة في قوله مادحاً مصعباً:

لسارت إليه مدحة مزنية
يلذ بها في المنشدين نشيد

---

(١) لأستاذنا العلامة الشيخ حمد الجاسر كتاب مطبوع عن الهجري.

ولاينبغى أن يفوتنى عندما أعزو معظم ما انتهى إلينا من شعر إلى رواية الزبير ابن بكار ، أن أذكر أن هذا يروى الكثير مما ورد فى كتابه (جمهرة نسب قريش) عن عمه مصعب بن عبد الله بن مصعب الزبيرى ، وهذا كان صديقا حميما للشاعر ، وطالما امتدحه الشاعر ، وسيأتى من الشواهد مايدل على ذلك . . على أنه مما يلفت النظر حقا ، أن مصعبا لم يشر إطلاقا إلى اسم صديقه الشاعر فى كتابه (نسب قريش)، وذلك لأن منهجه فيه كان ايراد الأنساب فحسب ، متجنبا الأخبار والأشعار ، وكأنما كان يدخرها لكتاب آخر ، أو كأنه ادخرها لابن أخيه أعنى الزبير بن بكار ، الذى كان مولعا بالاستطراد الأدبى ، فذكر أخبارا وأشعارا كثيرة إلى جوار الأنساب ، وحسنا فعل ، فقد أصبح كتابه وثيقة تاريخية مهمة ، ومما يؤسف له أن لايصدر منه إلا قسم واحد فحسب ، وأن يظل باقيه مطويا حتى الآن . . وغنى عن القول ، أن بعض القدامى قد أكثروا منه النقول ، ومنهم على سبيل المثال ، ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ ، فى كتابه (تاريخ دمشق) .

* * *

قال صاحب (الفهرست) ص ١٨٧ ، إنه مقل . . أى فى شعره ، ولكن النصوص التى رأيتها فيما نشر من (جمهرة نسب قريش) تدل على خصب انتاجه وشاعريته.. وهى جزء من شعره لا كله ، وربما كان فى سائر الكتاب ، مما لم ينشر بعد ، أو فيما لم يصل إلينا من مخطوطته نصوص أخرى ، فإن الزبير بن بكار كان حفيا به ، لصلته الوثيقة بآل الزبير ، فهو كثير المدح لهم ، والثناء عليهم ، وفيما وقفت عليه من نصوص (الجمهرة) مايدل على أن الشاعر طرق باب الأرجوزة. وإن لم يورد من أرجوزته إلا أبياتا معدودة .

وفى محاولة لاستقراء شىء عن حياته وأسرته ، فيما اطلعت عليه من شعره ، وجدت بعض الإشارات التى نستطيع أن ندرك منها المعلومات التالية :

١ ـ أن له أبناء يفخر بهم ، كما يفخر بأجداده وأسرته أو عصبته :

أبى الضيم لى قلب ذكى وصارم
وأنف حمى قد أبى الذل والخذلا
وأبناء صدق ماجدون ، وأسرة
مصاليت ، كانوا لا بطاء ولا نكلا(١)

---

(١) التعليقات والنوادر لأبى على الهجرى ، تحقيق الدكتور حمود عبد الأمير الحمادى ٢ / ٢٩٠

٢ ــ انه ذكر فى شعره (شميسة) ، وهى فى أغلب الظن اسم زوجته . وذلك فى قصيدة كافية طويلة ، والشاهد فى مطلعها :

قالت (شُميسة) ، إذ قامت تودعنى
والدمع يجرى على الخدين أسلاكا

لايلهينك عنا ، بعُدَ فرقتنا
بُعْدُ المزار ، وأن صاحبت أملاكا

وهو يكنيها بأم عمرو ، إذ يرد بعد البيتين تتمة الحوار :

فقلت : لوكنت أنساكم يوما نسيتكم
إذ قال لى مصعب : لو شئت أجزاكا

خطان فى شبر قرطاس يطير به
منا جرئ ، وتمضى .قلت : كلاكا

لابد من نظرة أشفى بها كمدى
من أم عمرو ، قليلا ثم ألقاكا[1]

فعمرو على مايبدو ابنه من (شميسة) ، ويؤيد ذلك أن مناقضه أبا مدرك ، حاتم ابن مدرك السلمى[2] قال يخاطبه وقد انعقد بينهما صلح فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم :

دعانى أبو عمرو إلى الله دعوة
أصاب بها مافى فؤادى ولايدرى

إلى حلق من خير من وطئ الحصا
وفى روضة بين الأساطين والقبر

فتبنا وأشهدنا الزبير ، وأن نعد
بنقض فما من توبة آخر الدهر[3]

فقد كناه الشاعر هنا . . بأبى عمرو . .

ونعلم من نص آخر ورد فى (جمهرة نسب قريش) ١ ــ ٢١١ ، أن له ابنا اسمه (عدى) ، وهذا هو النص :

« أنشدنى عدى بن عبد الله بن عمرو ابن أبى صبح المزنى لأبيه ، يمدح مصعب بن عبد الله بن مصعب ، حين أجمع المسير إلى اليمن ، لميعاده مصعبا أن يطلع أهله ثم يأتيه بصنعاء فقال :

« تقول ابنة الزيدى : أصبحت وافدا
على ملك أى الملوك تريد ؟ »

إلى آخر القصيدة . .

(١) الأبيات من قصيدة طويلة وردت فى (جمهرة نسب قريش) ١ ــ ٢٨ وسترد فى أشعاره .

(٢) يبدو أن هذا الشاعر من الأغفال الذين لم تترجم لهم المصادر التى بين أيدينا ، يقول الأستاذ (محمود محمد شاكر) محقق كتاب (جمهرة نسب قريش) ١ ــ ١٠٨ فى الهامش عند ايراد هذه الأبيات : (لم أجد له ترجمة) ، ويقول محقق كتاب « التعليقات والنوادر » لأبى على الهجرى ، ٢ ــ ٢٥٤ فى ذكر بعض مناقضاته لابن أبى صبح ، ورد اسمه فى اللسان فى مادة (نهض) يهجو أبا البوق ، ولم يرد ما يفصح عنه شيئا فى المصادر الباقية أقول : لم يذكره الزركلى فى (الأعلام) ، ولم أجده لدى سيزكين فى كتابه (تاريخ التراث العربى) ، المجلد الثانى ــ الجزء الرابع (الشعر) .

(٣) جمهرة نسب قريش للزبير بن بكار ، ص ١ ــ ١٠٧ .

أقول : ولعل المراد بابنة الزيدى هنا هو (شميسة) .

* * *

ولا يعين ما وقفت عليه من النصوص والأخبار على تعيين مولده ، ولا موضع ميلاده ، ولا منازله ، ولا تاريخ وفاته ولكنها تفيدنا مما ذكره عن ممدوحيه الذين سنجد أسماءهم فى النصوص التى سأوردها —إن شاء الله—ما يجعلنا نقول إنه من شعراء القرن الثانى من الهجرة ، وإنه كان يقصد الزبيريين بمدائحه فى المدينة المنورة وفى صنعاء وإنه كان صديقا حميما لمصعب بن عبد الله بن مصعب ، وإنه لحق به فى صنعاء عندما ولى هارون الرشيد أباه (عبد الله بن مصعب) إمارة اليمن ، حيث احتفى الأب والإبن به ، ونزل ضيفا فى دار الإمارة ، وقد بلغ من حفاوة مصعب به أنه كاد أن يحمله معه إلى صنعاء، لولا أن الشاعر استمهاله ريثما يصل إلى أهله فيزورهم ويودعهم ، وذلك ما صرح به فى قصيدتيه . . (قالت شمسيه) . . و(تقول ابنة الزيدى) .... وهذا يدل على أن أسرته لم تكن تقيم فى المدينة ، وأن منازله تحتاج إلى عداء أو جرى أو نجاب . . . إذ قال لى مصعب لو شئت أجزاك ، خطان فى شبر قرطاس يطير به منا جرى ، ونمضى . . ؟ قلت كلا . . لابد من نظرة أشفى بها كمدى من أم عمرو ....» .

وهو فيما تدل عليه نصوصه الشعرية شديد الالتزام للزبيريين وليس لمصعب وأبيه فقط . . بل لغيرهم أيضا ممن سترد أسماؤهم فى أشعاره ، وهذا مناقضه حاتم بن مدرك يقول له .

«. . وتنذرنا آل الزبير ، كأننا
طلبنا بجزم ، أو حملنا لهم ذحلا »

وهذه النصوص تدل على أن شاعرنا كان أعرابيا متبديا ، وأن دياره قريبة من المدينة المنورة ، يسهل على العداء أن يصل إليها على قدميه ، فهو إذن يسكن حوالى المدينة المنورة ، مما يدل على أنه من مزينة .

وبالرغم من أن إحساسا يخامرنى — مما رأيت من طلاقة الشاعر ، وانصرافه للمديح خاصة لمن عاش فى كنفه من الزبيريين ودخوله أحيانا فى بعض المعارك الشعرية وتطرقه إلى شئ من الغزل — أن شعره كان كثيرا جدا ، ولكن لم يصل إلينا منه إلا هذا القدر الذى تداوله بعض المؤلفين .

أما وقد أوردت ما وسعنى الوقوف عليه من معلومات عن هذا الشاعر، فقد حان أن أنتقل إلى الجزء الثانى من المقال ، وهو إيراد ما عثرت عليه من شعره فى المصادر القليلة التى أتيح لى الاطلاع عليها ، ولعل من الباحثين من يستطيع أن يضيف إليها نصوصا جديدة ، خدمة لتراثنا الشعرى والأدبى .

٢ ـ اشعاره

البـــاء

١ . قال يمدح أبا بكر بن عبد الله بن مصعب الزبيرى :

لعمرك ان المنتمى بابن مصعب
لمعتدل المجراة ، جزل المواهب

وان امرأ بين الزبير اذا انتمى
وبين أبي بكر لمحض المضارب

البيتان فى جمهرة نسب قريش ، للزبير بن بكار ، الجزء الأول ، شرح الأستاذ محمود شاكر وتحقيقه ، ص ١٤٢ .

المعنى : أن من كان عبد الله بن مصعب أباه ، فهو على طريق مستقيمة ، أجزل الله له المواهب ، كيف وقد جاء من جدين عظيمين هما الزبير بن العوام ، جده من جهة آبائه ، وأبو بكر الصديق جد عبد الله بن الزبير لأمه ، فهو ابن أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين .

٢ ـ قال يمدح مصعب بن عبد الله بن مصعب الزبيرى :

إذا شئت يوما أن ترى وجه سابق
بعيد المدى فانظر إلى وجه مصعب

ترى وجه بسام أغر كأنما
تفرج تاج الملك عن ضوء كوكب

فتى همه أن يشترى الحمد بالندى
فقد ذهبت أخباره كل مذهب

مفيد ومتلاف كأن نواله
علينا نجاء العارض المتنصب

المصدر : ١ /٢١٣ من جمهرة نسب قريش ، وقد جاءت الأبيات أيضا فى تاريخ دمشق لابن عساكر ، المجلد السادس عشر من المخطوطة ص ٥٥٠ . وفيه البيت الأخير : (بحار) بدلا من (نجاء) . والنجاء : جمع نجو ، وهو السحاب أول ما ينشأ ، والعارض : السحاب المطل يعترض الأفق ، كما جاءت الأبيات فى ج ١٣/ ١١٣ من تاريخ بغداد . وفيه فى البيت الأخير ، (المتصبب) بدلا عن (المتنصب) .

الدال

١ ـ قال يمدح عبد الله بن مصعب الزبيرى ، وابنه أبا بكر :

أكرم بذى شرف ألفى مكارمـه
فوق الثريا فعلى فوق ما وجدا

ذاك ابن مصعب الموفى بذمتـه
أعطى الجزيل ، وأوفى كل ما وعدا

من فتية صبروا فى كــل نــائبــه
حتى نفوا عنهم ما عاب فانتقـــدا

بيض بها ليل سيما الملك شاملهم
لا يسأل الناس عنهم : من هم أبــدا

إن امتدحكم فقد جلت صنائعكم
مجرى المديح وقد راخيتم الأمــدا

قد رشتمونى ، فهذا ريشكم خضل
بادٍ علىّ ، وقــد أنعمتم رغــدا

إن الحوارى والصديق وابنهمـــا
وابن الرباب ، بنوا بنيانكم صعدا

ثم الأميران شدا عقــد عروتكــم
ولا سبيل إلى حل الــذى عقــدا

نعم الأميران بكـّـار ووالـــده
ما أشرف الوالدَ الميمون والولدا

المـــالكـــان بعــدل الله قبضتــه
والمصلحان ، بإذن الله منا فسـدا

والحافظان لمــا أوصى الإلــه بــه
من حق ذى الحق إن غابا وإن شهدا

والصادران معا عن كل ما تركــا
والواردان جميعا كل مــا وردا

والطاعنان صدور الخيــل مقبلــة
والضاربان إذا غاب القنا قصدا

أعزز بمن كان عبد الله نــاصره
ومن يكون أبو بـكر لــه عضــدا

المصدر ١ / ١٤١ و ١٤٢ من جمهرة نسب قريش للزبير بن بكار.

٢ — وقال يرثى عبد الله ومحمدا ابنى مصعب بن ثابت :

قــل للأمير جزاه الله عــارفــة
وأهلَ ودّى جميعا من بنى أسدِ

إنى نذرت إن الرحمن ســلّمنى
حتى أقوم صحيحا غير ذى أوَدِ

مشيـــا بحقـكمُ حتى أؤديــه
هل يبردن ذاك من حَرٍّ على كبد

أو ينشرن ذاك عبــد الله لى أبــدا
أو ينشرن لى أخاه آخر الأبد

أن يشمت اليومَ حسادى بموتهما
فقد يموتون قبل اليوم من حسد

وقد أرانــا وعبــد الله يحملنــا
كحامــل الغيث بين الغور والنُّجُد

فإن جزعتُ فمثل الشر أجزعنى
وإن صبرت فأدنى لى إلى الرّشَد

وإن شكرت فقــد أبقى الإله لنــا
خلائقا من بنيه ثبت العُمُد

إن يُعْقب الله يومــا من مصيبته
فبالأمير ، ولالــج بى كمــدى

المصدر : ١ / ١٥٢ و ١٥٣ من جمهرة نسب قريش والمقصود ببنى أسد هنا :

أسد بن عبد العزى جد الزبيريين : والأبيات على ما يبدو موجهة للأمير أبي بكر بن عبد الله بن مصعب ، الذي خلف أباه في إمارة المدينة المنورة ، وهو المعروف ببكار .

٣ – قال يمدح مصعب بن عبد الله ابن مصعب ، حين أجمع المسير إلى اليمن لميعاده مصعبا أن يطلع أهله ثم يأتيه بصنعاء :

تقول ابنة الزيدى : أصبحت وافدا
على ملك أيّ الملوك تريدُ ؟
فقلت لها : مستوردٌ حوض مصعب
فقالت : وأنىّ والمسير بعيدُ ؟
فقلت لها : لو كنت في سجن عارم
بدمياطَ ، قد شدّت عليّ قيودُ
لسارت إليه مدحة مزنية
يلذ بها في المنشدين نشيدُ
أرى الناس فاضوا ثم غاضوا ومصعب
على العهد يَطْغى بحره ويزيدُ
إذا صدرت بالحمد عن حوض مصعب
وفودٌ ، وحلت بعد ذاك وفود
تهلّل فياض الندى عاجل القرى
إذا انهل وهناً قِطقِطٌ وجليدُ
أقول لمغتاظٍ عليّ كأنما
بلِيتُه حامي السنان حديد :
تبرد بعيي في الخلاء فإنه
نفى العيب عنى مشهد وجدودُ
وبغرةُ أملاك تنجيت نوءها
فأسميتُها والحاسدون شهود
تعلقت الحساد منها زمانة
فلم يبق إلا أن يموت حسود

المصدر : جمهرة نسب قريش ١ / ٢١١ و ٢١٢ ، وقد رواها الزبير بن بكار عن عدى بن عبد الله بن عمرو بن أبي صبح المزنى ، ابن الشاعر . وقد نقلها ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٦ / ٥٥٢ – المخطوط .

وفي البيت الرابع اشارة صريحة إلى قومه (مزينة) ، ويغطى في البيت السادس معناها يزيد ، ومعنى قِطْقِط في السابع: صغار البرَدَ والبغْرة: في البيت العاشر معناها الدفعة الشديدة من المطر .

السراء

قال يمدح مصعب بن عبد الله :

فما عيشنا إلا الربيع ومصعب
يدور علينا مصعب وندور
وفي مصعب ان غبنا القطر والندى
لنا ورق مغرورق وشكير
متى ما يرى الراؤون غُرّة مصعب
ينير بها لإشراقه ، فتنير

يروا مملكاً كالبدر أما فناؤه
فرحب ، وأما قدره فكبير
له نعمٌ من عسجدٍ قصَّر دونها
وليس بها عما يريد قصور
عددنا فأكثرنا ومدت فأكثرت
فقلنا كثير طيب وكثير
لعمري لئن عددتُ نعماء مصعب
لأشكرها إني إذا لشكور

المصدر : جمهرة نسب قريش ١ / ٢١٢ ، ونقلها ابن عساكر فى المجلد السادس عشر .

المخطوط ص ٥٤٩ ، كما نقل خبرها الوارد فى الجمهرة ونصه : « حدثنا الزبير ابن بكار ، وكان أبو غزية محمد بن موسى الأنصاري ، كثيرا ما يجلس إلىَّ ، فجلس إلىَّ ليلة بين المغرب والعشاء الآخرة ، فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو إذ ذاك قاض ، فتحدثنا إلى أن ذكرنا الشعر ، فقال : ابن أبي صبح المزني أشعر الناس ، حيث يقول لعمك » ثم ذكر الأبيات .

أقول : وترجمة محمد بن موسى فى أخبار القضاة ١ / ٥٧ مات سنة ٢٠٧ وفى هامش ص — ٢١٢ من جمهرة نسب قريش ذكر المحقق بعض مصادر ترجمته .

ومعنى (الشكير) فى البيت الثاني : الورق الصغير يتلو الورق الكبير فى النمو .

الصاد

وقال :

أبى قلبه منهن أن يتخلصا
وقد محَّ سربال الشباب وقلصا
رمين وأرماهن فى كل موطن
فأحذينه نبل الخبال ، وأشخصا
إذا شئن أن يوطئنه حبل عاثر
ليصطدن منه فرصة ...
تلبسن أبرادا ، وأبرزن أوجها
حسانا ، وأظهرن الجمان المخرصا
وفيهن طورا أن دعت قلت : نادب
أجاب ، وان نصنصن قلت تنصنصا
سقى الله من نوء الثريا ظعائنا
تيممن نجدا ، واختصرن المرخصا
ظعائن ممن سار فاحتل رابغا
وودان ، أيام الجلا ، فالأخمصا
أقمن به حتى أتى الصيف قادما
وقضى لبانات الربيع فأشخصا

المصدر : التعليقات والنوادر لأبي على الهجرى : مصورة مخطوطة الجمعية الآسيوية فى (كلكته) ، أطلعنى على محل الشاهد

أستاذى الشيخ حمد الجاسر ، جزاه الله خيرا ، وخطها غير جلى، وقد استعنت ببعض الأصدقاء على حل رموزها ، وتركت محل كلمة بياضا لعدم وضوحها ، وذلك فى البيت الثالث .

الألفاظ الغريبة :

١ — مح : بلى ، قلص : تقلص .

٢ — أحذينه : أعطينه ، وأشخص : يقال الشخص أشخص السهم إذا مرق أعلى الغرض (الهدف) ، والمقصود أن سهامهن أصابته وأخطأ سهمه فلم يصبهن .

٤ — الخرصا : أى الذى ازدان بالخرصان وهى حلق الذهب والفضة وما يماثلها .

٥ — أشخص (فى البيت الأخير) : ارتحل .

الفــاء

قال يمدح عبد الله بن مصعب وابنيه أبا بكر ومصعبا :

يا أيها الرجل المهدى الفناء لــه
من كل شعب يــدانى ثم يختلف
دع عنك ليلى ، فما ليلى بجــازية
لا تجلهن ولا يلجج بك الكلف
واذكر بأحسن قول أنت قائلــه
آل الزبير ، فقد أعطوا وقد عطفوا
وقد سقوك بسجــل من سجــالهمُ
حتى رويت ، وقد زادوا وقد لطفوا
وقــد كفــاك نداهم نوء غيرهم
فلا تعول على الغرف الذى غرفوا
قد كان لى فى أبى بــكر ووالــده
ومصعب ذى الندى من تالد خلف
والثابتيون قــوم فى ودادهــم
غنم الحيــاة ، وفى أحقادهم تلف
اللاحظون بنور الله إن غضبوا
والشاملـون بيمن حيثما انصرفوا
والفارطون فلا تــوبى حياضهم
بالواردين ، وان ذوادها قصفوا
ان ابن مصعــب الميمــون طــائره
ثبى على خير ما سدى لــه السلف
لا يدرك الناس فى المجراة غايتــه
ولو تعالوا، ولو خبواو لو خنفوا
تمشى الملوك على أذيــال لأمتــه
إن سارساروا وإن أوما وقفوا وقفوا
يا ابن الزبير لقد فرجت من كربى
ورفلتنى لك الفيضــات والتحف
وقد جبرت جناحى بعــد رقتــه
حتى انتهضت ، وحتى مسنى الترف
وقــد تخلصتنى من بين مأسـدة
أذلنى لهم السلطان والصحــف
ادركتنى بعــد أن دارت عقــابهم
وقد بللت لها رأسى وقد وحفوا

المصدر : جمهرة نسب قريش ١ / ١٤٠ وينظر أيضا ١ / ١٢٢ .

ومعنى البيت التاسع أنهم يتقدمون قومهم وقوله لا توبى حياضهم : أى لا تنقطع من الماء . وقصفوا : تزاحموا .

وفى البيت العاشر ، معنى ثبى : اقتنى وسدى : خلف .

وفى البيت الحادى عشر أراد الشاعر أن الناس لو جاروه لما استطاعوا اللحاق به مهما استعملوا من أنواع العدو .

وفى البيت الثالث عشر : أراد فى الشطر الثانى : أنك جعلتنى أرفل فى فيضك وتحفلك .

وفى البيت السادس عشر (الأخير) يقول : أدركتنى بعد أن تهيأت لاستقبال الحالقة ، وبللت رأسى لحلق لمتى ، وهو نوع من التعزير كان يخضع له المغلوب والأسير ، ومعنى وحفوا : أسرعوا .

القـاف

١ – وقال يمدح أبا بكر بن عبد الله ابن مصعب من أرجوزة يقول فيها :

يا بكر أدعوك وفيا صادقا

ثم قال فيها :

وقد رأيا الحلق المصالقا
وهى تسامى ترسل الشقاشقا
إن نظرت يوما إليه باسقا
أو كر فيها ناظرا أو ناطقا
ألقت على الأرض له العنافقا

المصدر : جمهرة نسب قريش ١ / ١٨٥ .

المعنى : الحلق : جمع حلقة المصالق : ذات الضجيج تسامى : تتعالى . الشقاشق : الهدير . العنفقة : الشعر تحت الشفة السفلى : أى أن حلقات الرجال التى تهدر بضجيجهم إذ جاءها فنظر أو نطق أبدت خضوعها واستمعت إليه .

٢ – وقال يمدح مصعب بن عبد الله :

وقد علمتُ ، ألا والله يعلمه
ما قلت زورا ولا من شيمتى الملق
إنى لأحبس نفسى ، وهى صادية
عن مصعب ، ولقد بانت لى الطرق
رعوى عليه كما أرعى على هرم
قبلى زهير ، وفينا ذلك الخلق
مدح الكرام ، وسعى فى مسرتهم
ثم الغنى ، ويد الممدوح تندفقُ

المصدر : جمهرة نسب قريش ١/٢٠٧ تاريخ دمشق ١٦ / ٥٤٩ مخطوط .

المعنى : الرعوى : الرعاية والإشفاق وهو يشير فى هذا البيت الثالث إلى أن زهير بن أبى سلمى ، وهو مزنى مثله ،

كان يشفق على ممدوحه هرم بن سنان. ذكر محقق الجمهرة الأستاذ محمود أحمد شاكر فى الهامش نقلا عن الأغانى ١٠ / ٣٠٥ أن هرما كان قد حلف أن لا يمدحه زهير إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا يسلم عليه إلا أعطاه ، فاستحى زهير مما كان يقبل منه ، فكان إذا رآه فى ملأ قال : عموا صباحا غير هرم ، وخيركم استثنيت .

وفى البيت إشارة إلى كونه من مزينة ، ولعله يقصد بالغنى فى البيت الرابع (الأخير) التعفف .

٣ — وقال يمدحه أيضا :

إذا رفعت أحراسه السير واستوى
على ظهر مصفوف عليه النمارقُ

بدا ملك فى صورة البدر طالعا
فيالك حُسْنا زينته الخلائقُ

خلائق أحرار الملوك ونورُها
يلوح عليها نظمها المتناسقُ

فتى لم تفته خطة مجمع التقى
إلى المجد إلا ضمها فهو رائقُ

فنحن بفضل الله فى فضل مصعب
لنا صابح من ذى نداه و غابقُ

ستبلغ عنى مصعبا — غير باعد —
مدائحُ تذروها الرياح الزواعق

جزاء بآلاء له ان شكرتها
شكرت عظيما لم تصفه المناطق

ألم تُلفنى ذا خلة فاصطنعتنى
وأطلقت مالى ، وهو فى الرهن غالق

وأنقذتنى من لُجة الدَّين بعدما
غرقت ، وغاشى لجة الدين غارقُ

وأغنيتنى عمن سواك وأنبتت
رياحك ريشى والنجاء الدوافقُ

وأسبلت إسبال الربيع وأخصبتْ
رياضك للجادين ، والله رازقُ

فاقسم لا أحصى الذى فيك مادحٌ
بمدح ، ولكنى جزوفٌ مخارقُ

ولا ضن نصحا عنك بالغيب مؤمن
تقى ، ولا عاداك إلا منافقُ

ولا خفت إلا الكاشحين ملمة
عليك ، ولكنى بذى العرش واثقُ

المصدر : جمهرة نسب قريش ١ / ٢٠٩ ، ٢١٠ ، وهى فى مخطوطة تاريخ دمشق لابن عساكر ١٦ / ٥٥١ و٥٥٢ وقدم وأخر فى البيتين الأخيرين .

وفى البيت التاسع إشارة إلى أن ممدوحه فك الرهن الذى كان فيه ماله ، ولعل هذا يفسر لنا قوله فى القصيدة الفائية التى سلفت حينما قال :

وقد تخلصتنى من بين مأسدة
أذلنى لهمُ السلطان والصحف

أدركتنى بعد أن دارت عقابهم
وقد بلت لها رأسى وقد وحفوا

الكاف

١ — قال يمدح مصعب بن عبد الله :

قال (شميسة) إذ قامت تودعنى
والدمع يجرى على الخدين أسلاكا

لا يلهينك عنا ، بعــد فرقتنــا
بعد المزار ، وإن صاحبت أملاكا

فقلت: لوكنت انساكمُ يوما نسيتكمُ
إذ قال لى مصعب لو شئت أجزاكا

خطان فى شبر قرطـاس يطير بـه
منا جرئٌ ونمضى . قلت : كلاكما

لا بد من نظرة أشفى بهــا كبـدى
من أم عمرو ، قليلا ، ثم ألقاكما

دع عنك ما فات ، واكس الرحل معترفا
أعطاكه مصعب أيام ألفاكـــا

عارِ جناحك قد حُصّت قوادِمُه
قد عضك الدهر عضات فأدماكا

يا ذا الندى ، ليس لى فى غيركم وطر
أغنيتنى بالغنى ، والله أغنـاكـا

إن امتدحتكم ، فخير القول مدحكمُ
وقـد ننال بغير المـدح جدواكا

يا أوسع الناس فضــلا بعد والــده
إن تَعْطِ خيراً فإن الله أعطاكا

مجدا تطأطأ عنه كــلُ ذى شرف
فيمنع الناس أن يجروا بمجراكا

مد ابن أسماء كفيه بمكرمـــة
وابن الربــاب فقالا مصعب هاكا

أنت ابننا ، ما اجتمعنا قط فى رجـل
فيستطيع لـه الساعون إدراكــا

ثم الأمير أدام الله صــالحــه
نعم المبوّا بحمــد الله بــواكـا

رقاك فى المجد حتى نلتَ ذروتـه
فمن بغاك محلّ النجم وافـاكـــا

المصدر : جمهرة نسب قريش ٢٠٨/١ و٢٠٩ ، ومخطوطة تاريخ دمشق لابن عساكر ١٦ / ٥٤٩ و٥٥٠ وفيه البيت الثالث بدون (فقلت) وهى هنا زائدة ، وبها يختل الوزن وفى الخامس (كبدى) محل (كمدى) .

وقد ذكر (الزبير بن بكار) قصة هذه الأبيات ، بعد إيرادها ، فقال :

« حدثنى عبد الله بن عمرو بن أبى صبح المزنى قال : لما استعمل عبد الله بن مصعب على اليمن ، قال لى مصعب بن عبد الله : امض معنا إلى صنعاء . فقلت : لم أعلم أهلى ذلك . فقال : ترسل رسولا

ونكتب معه بحاجتك ، وتمضى معنا وتكفاهم . فقلت : لا بد لى من مطالعتهم، ثم ألحقكم ، وهو حين قلت هذه القصيدة ثم قدمت عليهم صنعاء ، فأنزلنى عبد الله ابن مصعب معه فى دار الامارة ، وأجرى على خمسين دينارا فى كل شهر ، وأكرمنى ثم غرضت (قلقت) فشكوت ذلك إليه ، واستأذنته فى الانصراف ، فأذن لى فأعطانى خمسمئة دينار ، وكسانى كسوة فاخرة من عصب اليمن ، وأمرنى فدخلت على نجائبه، فأخذت منها نجيبا مهريا ، فانصرفت سالما غانما إلى أهلى» أ هـ .

اللام

١ — قال يمدح أبا بكر بن عبد الله :

كأن لم ترى غب ارتحالى وغيبتى
وعرف أبى بكر بسجل على سجل
مدحت أبا بكر فما خاب عنده
مديحى ، وما ألفيته عنه ذا شغل
وماكذبتنى سنح الطير دونه
وماكذبت رؤياى إذ خطت بالرمل
أنخت فلما ملت فى نشوة الكرى
رأيت على الريش أخضر كالبقل
وأبصرتنى أسمو إلى البدر طالعا
وأعقد فى أسباب أحبله حبلى
وأغرف من فيض الفرات وأكتفى
من النيل عبابا فأسقى به نخلى
فقلت لأصحابى : جرت طير أسعد
لكم فوق أعناق الغريرية الفتل
ورؤياك أخذ الكف بالكف بشرت
بيوم ندى من ذى ندى واسع الفضل
متى تهبطوا أرض الزبيرى تعتقوا
خشاش المطايا ، من سأم ومن هزل
أثابك عنا الله حسن ثوابه
بعدلك فى الأحكام والخلق الجزل
خلفت لنا الصديق تهدى كهديه
وهدى الزبير حذوك النعل بالنعل
وسرت إلينا والبلاد كأنها
لما غب من أدوائها مرجل يغلى
فداويتها حتى إذا ما شفيتها
من الداء والتامت جميعا على العدل
وطئت على سيسائها فكأنما
رسا ورقان فوقها وقرى تبل
فأصبحت يا ابن الخير تنمى إلى العلى
على حنق الأعداء والحدق الشهل
وإن أمير المؤمنين لعارف
غناءك عنه فى البلاء الذى تبلى
وإنى لمثن بالذى قد فعلتم
بنى ثابت فى الناس ما اشتد لى عقلى

وإنى لأدعوكم إذا جلّ حادث
من الدهر أو ضاقت بنا عروة الحبل
وأعلم لــولا الزهر من آل ثــابت
لمرت ببعض القوم خفاقة الرّجل
ولكنهم جادوا وسادوا وأنعموا
وقادوا وردوا بالندى طيرة الجهل
وماحوا وراحوا بالندى حين لم ترح
بدرتها أم عوان عـــلى طفـل

* * *

وكانت بينه وبين أبى مُدرك ، حاتم بن مدرك الحبشى ، من بنى الحارث ، سُلمى ، ملاحاة شعرية وقد جاء فى كتاب (التعليقات والنوادر) لأبى على هارون بن زكريا الهجرى[1]، انشدنى شيخ من جبلة الفرُع[2] لأبى مدرك يرد على عبد الله بن أبى صبيح المزنى :

ألا أيها الغادى اتــق الله واحتمـل
لنا حاجة لا تستبين لها ثقـــلا
تبلغ يعقوب بـــن يحيى رسالــة
وعمّرا وشبلا أودع الله لى شبلا
وحى بنى لقمان فــالحى حيرة
وتقرا عليهم من تحيتنا مثلا[3]
وكل بنى عيشس الكرام فإنهم
صديق وجيران أرى لهم فضلا
إذا جئتهم من مخدع الغيب ساعة
لأنظر ما هم لم أجد لهم دغــلا
وقل بعد هذا كله : إن حاتمـا
يقول لكم : قولوا لصاحبكم مهلا
وقولوا له : ما بـــال عقلك ناشئـا
وجهلك لما عدت ذا شيبة كهلا ؟
كأنك لم تقرأ من الــوحى سورة
بأرض ، ولم تسمع بها ساعة تتلى
إذا ما التقينا عدّ ماكان ما بيننا
من الحلف والإسلام واجتنب الجهلا
وان غبتُ عنه ساعة ظـل يفترى
علىّ ، فلا أدرى أأشتمه أم لا ؟
أم اعرض عن عوراته فهـو جاهل
فيكفر إحسانى ، ويحسبــه ذلا

(١) توفى نحو سنة ٣٠٠ هـ=٩١٢ م كما فى (الإعلام) للزركلى ، ولأستاذنا الشيخ حمد الجاسر كتاب عنه .

(٢) جبلة والفرع : موضعان قرب المدينة .

(٣) حيرة : وردت بالحاء وأظنها بالجيم .

أم أشتم جيرانى فـأصبح مثلـه
أعوذ بربى ، أن أكون له مثلا
وإنى لأستحيى من القوم أن أرى
جبانا جهولا لا حليما ولا نكلا
وأن يعلم الأقوام أنى كـالـذى
يكون على معروفه أبدا قفلا
فما زلت تغشانـا بشنيلـك ظالمـا
ونصفح حتى مـا تظن لنا عقلا
وتنذرنـا آل الزبير كـأننـا
طُلبنا بجرم أو حملنا لهم ذحلا
وتقتحم الأنساب من دون خندف
كأنك تُعطى دونهم باليد السفلى
كأنك لم تعلم أبـا لـك دونـه
بلى ، قد علمنا إن فى خندف فضلا
وإن قريشا خير من وطئ الحصى
وأنعمه فرعـا وأكرمـه أصلا
فإن كنتم إخوانه فـابن عمـه
حبيب قريب الدار مستوجب وصلا
كريم فلم يبسـط يدا بعداوة
إليهم ولم يبعث بهـا لهم رجـلا
فلا تطرحنا إن سقوك عـلى الظما
مع الناس يوما من سجالهم سجلا
فما هى الانقمـة تبتـلى بهـا
كما كنتَ بالأولى التى قبلها تُبلى

فليت لنـا عدلا فيحكم بيننـا
وأهون مما بيننا نبتغى عـدلا
له ريذى مـن قُرى قطـرية
شديد جـديد مُذيح محكم فتلا
فينظر أسوانا إذا كـان عائبا
لصاحبه عيبا ، وأقبحـه فعلا
وأشبنها وجها إذا كـان بيننـا
بوجه الظلـوم ثم يوجعـه غسلا
ويشهدنا آل الزبير وهـاشم
وآل أبى بكر مجـالس لا تقلى
ويجلس ذلفـاء المليحة عندنـا
وجملا فإن الله ملح لى جمـلا
هجانان قال الله كونـا فكانتـا
كما قـال لا تدرون أيهما أحلى
وذلفاء من غير التماس لعيبها
بغور فلم تسكن دماثا ولا سهلا
وليست كأخرى بالبياض فأعطيت
بياضا ولحما مـايرا وشوى خدلا
ملا العين ، ريا الحجل يلعب سمطها
كأن بعينيها ولم تكتحل كحـلا
فلا يرفع الجلاد عنـه سياطـه
بمحضرهم حتى يقولـوا له: بَسْلا
وحتى يرى آلُ الزبير وهـاشم
وآل أبى بكر عقـوبته مثلا
ويقدر للمظلوم أن يجمعا لـه
ويجلـد أسواطا أشدهما بخـلا

٢ — فأجابه عبد الله بن أبي صبح المزني :

ألا حييا الدلفا ألا حييا جملا
وقولا : تغني حاتم بكما جهلا

لكيما تظنا أنه اليوم فارغ
وأقسم إني قد ملأته بي شغلا

وفضلكم يا جمل وكيما لعلني
أروح مغيظا قد حملت لكم ذحلا

وأنت من أن تشفي بنا كحامة
بمكة ، يغدو سربها حرما سهلا

سقى الله ذلفاء الربيع وتربها
وجملا فاسقى الله من صيّف سَجلا

سقى الله كل منجادَ المحلة والنوى
اناة . . ضا تملأ القلب والحجلا

إذا برزت بين القطين وأبرزت
جميل المحيا لا كئيبا ولا جبلا

رأيت إليها البيض ميلا كأنما
أمرن بأن يرعينها الحدق النجلا

. . . مهلا فإنك قلت لي مهلا
وإن قلت قولا فانتبل نبلا جزلا

إليك فإني غافر لك ما مضى
من اللغو الا أن تحملنا ثقلا

وتلقى علينا جانبيك كليهما
وتسرع في أعراضنا الجد والهزلا

وتعرض دون الجانبين فلا أرى
لمثلك ألا أن أعرضه نكلا

فإن كنت قد أبصرت من بعد عشوة
فأهلا بما أحدثت من سلمنا أهلا

فلست ولا أطغى بأول عاش
عشا ، فجعلت القافيات له كحلا

وما أن أحب الشر ما لم تجره
على جناتي أو أكون له نعلا

بل أصفح اجالا وأدرأ سبته
بأحسن ما يُدرى وأدمله دملا

وأدفعه حتى إذا حل ساحتى
صليت بأذكى جمرة كل من يصلى

أبى الضيم لى قلبٌ ذكى وصارم
وأنف حمى قد أبى الذل والخذلا .

وأبناء صدق ما جدون وأسرة
مصاليت كانوا لا بطاء ولا نكلا .

وعقدى بحبلى مصعب وابن مصعب
وحبل أبي بكر برغم العدى حبلا

كأنك نشنا أن فخرت بخندف
كأنك لا ترضى طريقتك المثلى

كأنك لم تعلم أبا لك مثله
ولا وأبيكم لا تكونوا له مثلا

فإن تلك قد أصبحت ثوبان آمنا
مشبلا وغرتك الأكبولة والرسلا

فلا تأمن الأولى التى قد تعرقت
فقارك حتى عدت ذا شيبة كهلا

ألا يا لقوم من ترى مثل حاتم
يجور ويبغى بيننا حكما عدلا

ويدعو لنا أن يرسل الله جالدا
على شرنا رأيا ، وأقبحه فعلا

وأشبهنا وجها إذا قيس بيننا
بوجه الظلوم ، ثم توجعه غسلا

ويشهدنا آل الزبير وهاشمٌ
وآل أبى بكر مجالس لا تقلا

فقلت له : آمين آمين إنما
دعوت على الأردى فبسلا له بسلا

فإن شهدت آل الزبير وهاشم
وآل أبى بكر فقد علموا الغلا

وكلٌّ قريش يعلمون أمورنا
وحيث يظنون الدواغل والدغلا

تمشيت للذلفاء نجلا لعلها
تعاقب ، والذلفاء خالية تخلا

وسمحت جملا وهى ظنى بخيلة
ولكن بما قد تنطق الكلم الخطلا

المصدر : التعليقات والنوادر ٢/ ٢٥٤ وما بعدها .

ويلاحظ أن فى هاتين القصيدتين ألفاظا غير مفهومة ، وبعضها ترك محله محقق الكتاب بياضا ، ويبدو أن المخطوطة كانت عسرة الخط .

الميم

١ قال يمدح هاشم بن يحيى بن هاشم بن حمزة :

فمن سائلى عن هاشم : كيف هاشم ؟
فإنا وجدنا هاشما خير هاشم

وجدنا فتى أفضت إليه جدوده
ببنى المعالى ، واكتساب المكارم

المصدر : جمهرة نسب قريش ١/٦٧ و ٦٨ .

وحمزة : هو حمزة بن عبد الله بن الزبير .

٢ — وقال يمدح أبا بكر بن عبد الله بن مصعب ، وما تمتع الناس به من أمن على عهد ولايته للمدينة المنورة :

أمسى الحجاز أمنت أصرامه[1]
وصح نجد وبرى سقامه

رفعه وقد وهت أخصامه[2]
بالعدل حتى سكنت عرامه

(١) الأصرام : الفرقة من الناس ينزلون ناحية من الماء .

(٢) الأخصام : هى زوايا المزارة وجوانبها .

ثمت جادت بالندى رهامه[1]
فهو كغيث مسبل غمامه
أرزامه[2] بالوبل وانهزامه
ما قال فيه بحضرٍ يشامه
عدل أبي بكر ولا إسلامه
ولا الحواري ولا إقدامه

المصدر : جمهرة نسب قريش ١ / ١٦٥

٣ — وقال يمدح مصعب بن عبد الله ابن مصعب :

ان الحواري والصديق وابنهما ... دعائم الدين إذ شدت له الدعمُ
وثابتا ذا الندى والمصعبين معا ... وذا اليمينين ، عبد الله بعدهم
شدوا عرى مصعب في كل مكرمة ... وعلموه من الخيرات ما علموا
فهو الكريم ملاقاة ومختبرا ... وابن الكرام إذا ما حصّل الكرم
رحب الفناء ، رخي الباع ، محتمل ... للمضلعات إذا اشتدت بنا الأزم
لا تنكر العُوذُ منه أن يضربها ... ولا العشار إذا أضيافه قدموا
ولا يبالي وإن كانت ممانحة ... أن يخضب السيفَ من أنسائهن دم
ياذا الندى ، والندى حج الحجيج له ... هل بعد هذا على ذي محتة قسم
لئن نشرت ثناء لاخفاء به ... لقد بسطت عطايا مالها قيم
ذقنا الثناء فلم تألُ الجزاء به ... وقد جهدنا وما في نصحنا وَخَم
لن ينفد القولَ ما أسديت من حسن ... يا ابن الحواري حتى تنفد الكَلِم
ولا نزال بخير ما بقيت لنا ... تَمّتْ علينا بك الآلاء والنعم

المصدر : جمهرة نسب قريش ١ / ٢١٣ و ٢١٤ ، وهي في تاريخ دمشق ، المجلد ١٦ / ٢٥٢ المخطوطة .

---

(١) الرهام : المطرة الصغيرة الدائمة .

(٢) الإرزام : صوت الرعد يصحب الغيث والانهزام : تشقق السحاب بالماء مع صوت وقال إذا تفرس فأخطأ ولم يصب .

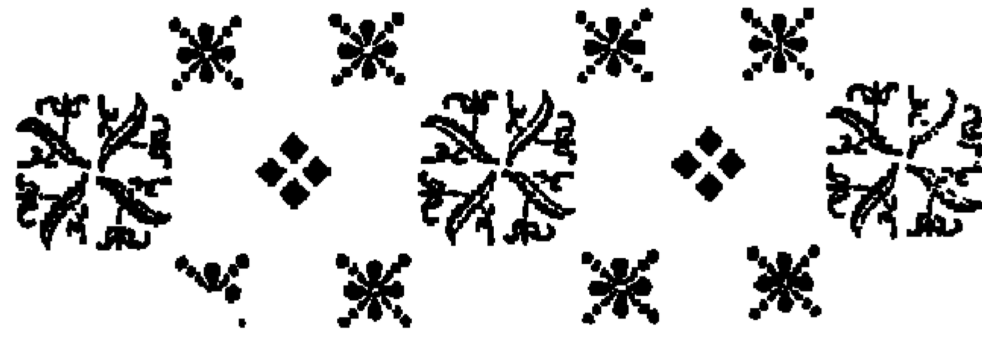
النـــون

قال ابن أبي خيثمة : قال دعبل : حضر محمد بن عبد الملك الفقعسي دارا فيها وليمة ، وحضرها ابن أبي صبح الأعرابي ، وكان بدويا نزل بغداد ومات بها ، وكان شاعرا مجيدا ، فازدحما على باب الدار ، فغلب ابن أبي صبح ودخل قبل محمد ، فقال ابن أبي صبح :

ألا ياليت أنسك أم عمرو
شهدتِ مقاوي كي تعذريني
ودفعي منكب الأسدي عني
على عجل ، بناحية زبون
بمنزلة كأن الأسد فيها
رمتني بالحواجب والعيون
وكنت إذا سمعت بحي خصم
منعت الخصم أن يتقدموني

المصدر : كتاب الورقة لابن الجراح ١٤ ، والفهرست ٥٥ .

عبد العـزيز الرفاعي
عضو المجمع المراسل من السعودية



أفكار وقضايا حول معجم موحد لألفاظ الحضارة فى الوطن العربى

للدكتور عبد الكريم خليفة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد :

فقد دأب مجمعنا بالقاهرة على اختيار قضية أساسية من قضايا العربية فى العصر الحديث ، يجعلها فى كل عام الموضوع الرئيسى للبحوث فى مؤتمره السنوى. وبذلك سن سنة حميدة إذ يطرح للبحث والدراسة أمام المجمعيين وعلماء العربية ؛ جوانب مهمة من قضايا العربية فى العصر الحديث . وهى قضايا تمس جوهر وجود أمتنا ووحدتها وارتقاءها فى سلم العلم والحضارة ، والانتقال من حالة التبعية الفكرية إلى حالة المشاركة الأصيلة المبدعة فى العلوم والتقنيات الحديثة . وقد جاء موضوع البحث فى « ألفاظ الحضارة فى الوطن العربى » ليكمل الصورة الكلية لخدمة العربية والعناية بها فى جوانبها المتعددة من حيث التعريب وجعل العربية لغة التدريس والبحث فى الجامعات والمؤسسات العلمية ، وكذلك من حيث الارتقاء بلغة وسائل الاتصالات الجماهيرية فى الصحف والمجلات ودور الإذاعة المسموعة والمرئية ، وكذلك الموضوعات التى تثار حول الصراع بين العاميات باتجاهاتها الأقليمية الضيقة وقدراتها الفكرية القاصرة ، وبين اللغة الفصيحة ، بقدراتها الفكرية المبدعة وباتجاهاتها الموحدة .

وأن النظرة الشاملة للقضايا التى تواجهها العربية فى العصر الحديث فى مختلف أقطار العروبة لتؤكد وجود قضية أساسية تتمثل بألفاظ الحضارة . وهذه القضية المهمة ، ولئن بدت منفصلة إلى حد ما عن اللغة الأدبية واللغة العلمية ، فأنها متصلة بهما أشد الاتصال ، لأنها لغة الحياة العملية والتعامل اليومى .

(*) ألقى فى الجلسة الخامسة يوم الخميس ٢٤ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٢ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م .

ومن البدهى أن ننبه إلى أن الحديث عن ألفاظ الحضارة سواء أكانت الدارجة منها أم المقترحة ، لايعنى بالضرورة الحديث عن اللغة العامية أو اللهجات العامية . فالحديث عن العامية حديث عن هذه اللهجة من حيث نحوها وصرفها وأساليب التعبير بها ، فى حين أن الحديث عن ألفاظ الحضارة الدارجة أو المقترحة ، هو حديث عن مفردات من حيث جرسها وايحاءاتها ودلالاتها وأصولها . . . وقد تجد هذه المفردات طريقها إلى اللغة الأدبية كما تجد طريقها إلى اللغة العلمية . وتجد طريقها إلى اللغة الفصيحة كما تجد طريقها إلى اللغة العامية . وبما أن الألفاظ الحضارية متصلة أشد الاتصال بالحياة اليومية للناس فى ظروفهم الحياتية ومعاملاتهم المعاشية فإنها تخالط العامية وتمازجها تمازجا كليا يصعب التفريق بينهما . وربما أن مبادرة الجمهور باحساسه اللغوى وعفويته فى إطلاق هذه اللفظة أو تلك على ذلك المدلول ، يصلح أساسا لتفسير هذه الظاهرة فى إغناء اللغة المحكية من حيث الألفاظ الحضارية .

ونحن عندما نتحدث عن « ألفاظ الحضارة » ، فنعنى بها جميع الألفاظ التى يستعملها الأنسان العربى فى حياته المعاشية ، من مأكل ومشرب وثياب ومايتعلق بها ، ومن منزل وأدوات منزلية وأسماء الأماكن ومايتعلق بها ، ومن المكاتب وأدواتها والمركبات ومايتعلق بها . وكذلك مما يتعلق بالحرف وأنواع المهن والصناعات وأدواتها والمواد المستخدمة فيها ، فضلا عن التربية الرياضية وغيرها من الألفاظ والمصطلحات التى تدخل لغة وسائل الاتصال الجماهيرية واليومية . . ولاشك أن هذه الألفاظ الحضارية ، من حيث اتصالها بالحياة والاستعمال اليومى ، قد تتسع فى دوائرها حتى تتصل بمصطلحات الفنون الجميلة على مختلف أنواعها ومذاهبها .

وربما كان من المفيد أن نحدد أن الفاظ الحضارة التى تعنينا فى هذا البحث ، هى الألفاظ التى تعبر عن ظروف الحياة ومستلزماتها المعاشية لجماهير أمتنا العربية فى أقاليمها المختلفة . ومن هنا تنشأ الخصوصية التى تميز معجم ألفاظ الحضارة بالعربية عن غيره من المعاجم المتخصصة .

فقد أدى تعثر الحياة العلمية وجهودها فى أقطار العروبة منذ القرن السادس عشر الميلادى . ولاسيما فى حقول العلوم الحديثة من تطبيقية وبحتة إلى توقف العربية عن استيعاب المصطلحات العلمية . وعندما بدأت النهضة العلمية الحديثة ولاسيما منذ أوائل القرن العشرين ، واجهت مؤسساتنا اللغوية والعلمية فراغا يكاد أن يكون تاما فيما يتعلق بمصطلحات العلوم والفنون الحديثة باللغة العربية . وما أن بدأت بذور هذه النهضة العلمية فى الوطن العربى حتى نشب الصراع بين أنصار العامية من جهة

وانصار العربية الفصيحة من جهة أخرى . وكان يساير هذا التيار ، ويجسد أهدافه العدائية صراع آخر مازال محتدما ، مع الأسف حتى يومنا هذا ، بين أنصار جعل العربية لغة التدريس الجامعي والبحث العلمي فى جميع حقول المعرفة الانسانية ، وبين القلة المتنفذة التى مازالت تتشبث فى أبعاد العربية عن أن تكون لغة الفكر العلمى العربي فى مؤسساته العلمية وجامعاته الوطنية .

وإذا تجاوزنا هذه المرحلة من تاريخنا العلمى واللغوى ، إلى مرحلة سيادة العربية فى أوطانها ومؤسساتها العلمية والجامعية وهى بالغتها قريبا إن شاء الله — وجدنا أنفسنا أمام قضية جوهرية واحدة ، وهى توحيد المصطلحات العلمية والحرص على أن تكون هنالك لغة علمية واحدة بالعربية .

فإذا كان هذا هو الحال ، فيما يتعلق بالمعجمات العلمية العربية المتخصصة فإننا لحال مختلف فيما يتعلق بمعجم «ألفاظ الحضارة» . فألفاظ الحضارة مستمرة فى حياة أمتنا فى اقاليمها المختلفة ، عبر القرون باستمرار الحياة ذاتها والحاجة إلى التعبير عن لوازمها. فنحن أمام سيل متصل من ألفاظ الحضارة فى مجتمعنا العربى فى أقاليمه ومناطقه المختلفة ، وفى مدنه وأريافه وبواديه . . » ولا شك أن ألفاظ الحضارة هذه هى نتائج ظروف الأمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية . فنحن فى هذا المجال لانواجه قضية الفراغ الذى واجهناه ونواجهه عند وضع المصطلحات العلمية ، وإنما نواجه قضية من نوع آخر . ولعل دراسة هذه القضية تؤدى بنا إلى تحديد معالمها ، من حيث أصول بعض هذه الألفاظ الحضارية ومنابعها الأولى سواء أكانت عربية صليبية أم معربة ، وكذلك من حيث الشيوع وملاءمة رونق العربية وأساليبها . ومن حيث الذوق والخفة على السمع واللسان. هذا من جهة ومن جهة أخرى ، فان معجم ألفاظ الحضارة ، باللغة العربية يواجه أيضا فراغا فى بعض جوانب الحياة الحضارية الحديثة . ومن هنا فهو معجم دائم النمو ومن الواجب أن يتابع المتطلبات الحياتية للأفراد والجماعات .

وقد أشار مجمعنا العتيد بالقاهرة إلى عظم هذه المشكلة وأهميتها ، وطرحها للبحث منذ وقت مبكر فى أواسط هذا القرن . فقال الأستاذ الرئيس الدكتور إبراهيم مدكور فى تصديره لمحاضر الدورة الثانية عشرة لعام ١٩٤٥ — ١٩٤٦ ، وكان إذ ذاك أمينا عاما للمجمع : « ألفاظ الحضارة ضرب آخر من المصطلحات اللغوية ، وقد تكون معالجتها أعسر من معالجة المصطلح العلمى ، والإجماع عليها ليس بالأمر الهين ، ولابد أن نستعين عليها بشتى الوسائل » .

أما أن معالجتها أعسر من معالجة المصطلح العلمي وأن الاجماع عليها ليس بالأمر الهين ، فهذا لاشك فيه ، ولكننا نتساءل كيف أن أمة قد وحدت لغتها الأدبية وتحاول توحيد لغتها العلمية ، بتوحيد مصطلحاتها ، مازالت تغض النظر عن معالجة موضوع ألفاظ الحضارة وضعا وتوحيدا على الرغم من الوسائل العلمية والتقنية التي تيسرها وسائل العلم والتقنيات الحديثة . . . أليس من الواجب أن يكون هنالك معجم شامل باللغة العربية يستوعب جميع ألفاظ الحضارة يصلح أن يكون أساسا للغة حضارية واحدة بين جماهير الأمة العربية في مختلف أقطارها.

ولكي نستوعب عظم هذه المشكلة ومدى أهميتها ، جمعت عدداً من الألفاظ الحضارية في مدينة ما من المدن الأردنية . ودون استقصاء أو محاولة أقامة دراسة جادة . فقد اكتفيت بنماذج عشوائية تشمل أسماء الأدوات المنزلية وأثاث المنازل والمكاتب والملابس وأدوات بعض المهن وأسماء المأكولات وغير ذلك من التعابير الحضارية .

حقا ، لقد هالني الأمر . فهنالك الاختلاف بين الألفاظ الحضارية بين مدينة وأخرى وبين منطقة وأخرى . وهذا الاختلاف قد يضيق ويتسع وفق ظروف مينة أو تباعد المسافات . وهنالك الاختلاف الملحوظ بين كثير من الألفاظ الحضارية بين جيل وآخر . أما الألفاظ الحضارية الوافدة من البلاد الأجنبية ولاسيما من الغرب ، فقد وجدت طريقها بصورة عمياء إلى الجماهير المستهلكة وإلى وسائل الاتصالات الجماهيرية ؛ من صحف ونشرات وإعلام رسمي وشعبي . . . وتعدى ذلك إلى طغيان حضاري حيث يتمثل بإشاعة الأسماء الأجنبية واطلاقها على المحلات العامة من تجارية وصناعية . . . ويبلغ هذا الطغيان مداه عندما نرى هذه الأسماء الأجنبية تكتب أيضا بحروف عربية. فقد رأيت في أحدى القرى الأردنية النائية ، حانوتا كان أشبه بمدخل ضيق . . . وأن محتوياته من البضاعة المعروضة للبيع ليست بأحسن حال من مبناه ، ويخيل إلى أن صاحبه يستطيع القراءة والكتابة بصعوبة... ومع ذلك فإن المحل يحمل اسم « سوبر ماركت » ! ! ! أما في شوارع العاصمة والمدن المهمة . . . فحدث عن ذلك ولاحرج .

ونحن إذا تجاوزنا حدود قطرنا إلى الأقطار العربية المجاورة والبعيدة ، فإن الأمر يصبح مذهلا وخطيرا . فالاختلاف في ألفاظ الحضارة ، يجعلنا ، مع الأسف ، نقف أمام حاجز خطير يمنع تفاهم جماهير أمتنا بعمالها وفلاحيها ، بعضهم مع بعض . . . وإذا كان المثقفون يجدون في اللغة الفصيحة المكتوبة أو في اللغة المحكية القريبة منها ، وسيلة للتفاهم ، فإنهم أيضا يصطدمون بعسر التفاهم ، إذا تناولوا ألفاظ الحضارة بالاستعمال . . . والأمثلة على ذلك كثيرة ،

سواء أكان منها تراثيا شائع الاستعمال فى أقطارنا العربية منذ أزمان قديمة أم كان منها دخيلا حديثا حملته الحضارة الحديثة إلى شعوبنا صانعة أو مستهلكة .

فهنالك مثلا القمح والحنطة والبر والغلة وجميعها ألفاظ تراثية ، وغالبا ما تستعمل مترادفات فى كل قطر .

ولنأخذ مثلا كلمة « البطيخ » وكم تتعدد الاختلافات فى مدلولاتها فى مختلف الأقطار . وقد يضطر الباحث مع الأسف أن يضع مقابلها اللفظة الأجنبية كى يحدد مدلولها . فهنالك « بطيخ أصفر » فى الشام ، وشمام فى الأردن وفلسطين ، وشمام وقاوون فى مصر هذا مع العلم أن كلمة « قاوون » تركية وهكذا تتعدد الألفاظ لمسمى واحد . فهو : بطيخ أخضر وبطيخ أحمر وبطيخ شامى وبطيخ هندى ، ودلاع وخربز وَحَبْحَب ، وجَبَس وَرَقِّيٌّ . حيث تسود كل لفظة فى قطر من الأقطار أو فى منطقة دون أخرى .

وقلّ مثل ذلك فى كثير من أسماء الفواكه والأطعمة والمأكولات والأدوات المنزلية وغيرها من ألفاظ الحضارة . فالوعاء مثلا الذى يوضع فيه أعقاب السجائر يسمى : متكة ومكته ومنفظه وطَقْطُوقة وسَنْدرية ... الخ .

وفى أدوات الكتابة ذاتها ومستلزمات المكتب ، اختلاف كبير فى الألفاظ الدالة عليها . . أما الأدوات الحديثة التى دخلت فى الحرف والمهن والصناعات ، فقد دخل معظمها بألفاظها الأعجمية ، بعد أن أصابها التحريف العفوى ، أو المبادرة المحلية بعيدا عن كل قاعدة أو قانون ينظمها .

ومنذ مطلع هذا القرن جرت محاولات ودراسات ، كانت غايتها أغناء اللغة العربية بما يجد من ألفاظ الحضارة الحديثة . وكثيرا ما كان الأمر يغيم فتتداخل مصطلحات العلوم الحديثة بألفاظ الحضارة الحديثة ، دون أن يفرد أيضا موضع خاص بمصطلحات الفنون الحديثة مثل : التصوير والنحت والمرسومات والخزف والسينما والموسيقى . . . الخ .

وكان لمجمعنا بدمشق ومجمعنا بالقاهرة فضل الريادة فى أثارة هذا الموضوع الخطير . وقام مجمعنا بالقاهرة ، منذ أوائل الأربعينات بالبحث فى الوسائل التى يمكن استخدامها من أجل تزويد اللغة العربية بمصطلحات الجديد فى ميادين الحضارة الحديثة . . . ولأن المناقشات والآراء المختلفة التى طرحت فى ذلك الوقت ، وحفظتها محاضر جلسات المجمع ، تكون مصدرا مهما من أجل وضع الأسس العلمية التى يمكن أن تصلح منطلقا منهجيا لمجامعنا اللغوية من خلال اتحاد المجامع ، لوضع « معجم موحد لألفاظ الحضارة فى الوطن العربى » .

ومازالت مقولة المرحوم العالم المجمعي الأستاذ محمود تيمور ، تكون أساسا صالحا تقوم عليه فلسفة هذا المعجم الحضاري ، وتعطيه هويته العربية الجامعة ، حيث يقول – رحمه الله – : « إن السعي إلى وضع مقابل صحيح لألفاظ الحضارة أو الحياة العامة ليس مقصودا به فرض ذلك على أفواه العامة في البيوت والأسواق ، ولكن المقصود به أسعاف الأقلام الكاتبة بما يسد حاجة التعبير من ألفاظ فصاح لمسميات حضارية شاملة ، وإشاعتها في الصحف السيارة والكتب المتداولة ، ولإذاعتها في مجالات الأذاعة الفصيحة على اختلاف منابرها وممارستها في حياتنا التعاملية والاجتماعية في أرحب نطاق »(١) .

ونحن الآن لا يدور في خلدنا أننا نهدف إلى التغيير القسري لما يستعمله عامة الناس في كل قطر من الأقطار العربية ، ولكن من الواجب ، كما أشرنا سابقا ، أن يكون هناك معجم شامل باللغة العربية يستوعب جميع ألفاظ الحضارة ومستلزمات الحياة الحديثة ، يمكن أن يكون مرجعا لكتاب العربية وأدبائها في العصر الحديث في مختلف الفنون الأدبية ، من قصة ورواية ومسرحية وغيرها ، وفي جميع وسائل الاتصال الموجهة إلى جماهير الأمة العربية . . . ولا شك أن هذا الوضع سيؤدي إلى اشاعة هذه الألفاظ ، وأحيائها بالاستعمال . . . وبالتالي ستحل الألفاظ الحضارية الموحدة محل تلك الألفاظ المحلية ، بصورة طبيعية ودون عنت أو قسر ، وإن لغة الثقافة كفيلة بنشرها . . وهنالك أمثله كثيرة يمكن الاستشهاد بها من حياتنا العملية . فنحن نعلم مثلا أن هنالك كثيرا من الألفاظ المغرقة بعاميتها ، محليا أو قطريا ، قد اختفت من الاستعمال العام ، وحلت محلها ألفاظ فصيحة أو أقرب إلى الفصيحة ، مما يخف وقعه على الأسماع ويسهل دورانه على الألسنة . . فلو أخذنا مثلا لفظة « سيارة » ، هذه اللفظة التراثية الجميلة قد باتت تسير على جميع الألسنة ، دالة على هذه الآلة الحضارية الحديثه ، في حين أننا لو رجعنا إلى نصف قرن أو يزيد ، لوجدنا ألفاظا كثيرة مختلفة للتعبير عنها في كل قطر من الأقطار العربية فهنالك « الأوتوبيس » و « الأوطمبيل » « الطنمبيل » و « الكاره » و « الحنتور » . . الخ ، من الألفاظ الأعجمية والعامية الجلفة . . . وقد حل محلها جميعا في الاستعمال الثقافي وبين عامة الناس أيضا لفظة « السيارة » . وقد نقلت من معنى تراثي معروف في اللغة الفصيحة إلى معنى اصطلاحي يدل على هذه الآلة المحددة . . . ولا أظن أن الذهن

(١) معجم ألفاظ الحضارة ومصطلحات الفنون ، تصدير الأستاذ بدر الدين أبو غازي ، القاهرة ، ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ / ص ز .

يتجه إلى أى معنى آخر لهذه اللفظة فى الوقت الحاضر بين عامة الناس والمثقفين ..

وقد قام مجمعنا القاهرى ، بتأصيل هذا الاتجاه ، بنشر ما وضعته لجنة ألفاظ الحضارة وخبراؤها ، وأطلق عليه تفاؤلا اسم « معجم ألفاظ الحضارة ومصطلحات الفنون » .

وجاء تصدير الزميل الأستاذ بدر الدين أبو غازى . رحمه الله – على ايجازه شاملا وعميقا لموضوع « الألفاظ الحضارية » .

وهنالك محاولات أخرى فى هذا المجال كان لمجمعنا بدمشق مشاركة مهمة فيها . .

ومنذ حوالى عقدين من الزمن نشر الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله فى مجلة اللسان العربى التى تصدر عن مكتب تنسيق التعريب فى الرباط سلسلة من معاجم المهن مثل « الخبازة والنجارة ، والحدادة . . . الخ .

وقد قامت مؤسسة « دار لسان العرب ، ببيروت » بنشر مجلد خاص الحقته بمجلدات معجم لسان العرب ، تحت عنوان (معجم المصطلحات العلمية والفنية » (عربى – فرنسى انجليزى – لاتينى) ، قام باعداده وتصنيفه الأستاذ يوسف خياط . وقد سار على نهج ابن منظور فى محاولته جمع وتصنيف المصطلحات العلمية والفنية الواردة فى عدد من المصادر المجمعية والجامعية عند بعض المؤلفين . وقد تداخلت فيه بعض الألفاظ الحضارية مع المصطلحات العلمية .

وليس من شأننا فى هذه الكلمة أن نعرض لموضوع المصطلحات العلمية ، التى كان فيها لمجامعنا اللغوية ومؤتمرات التعريب جهود مشكورة خيرة .

أيها السادة العلماء ، فهذه كلمة عامة وعرض سريع ، لقضية مهمة من قضايا العربية التى نواجهها فى أواخر القرن العشرين وان مجامعنا اللغوية ومؤسساتنا العلمية : لمدعوة ، بحكم واجبها أن تتصدى لجميع هذه المشكلات والقضايا التى مازالت تقف عائقا بين لغتنا العريقة فى تاريخها العلمى والحضارى والفكرى ، وبين استيعابها جميع معارف الحضارة الأنسانية الحديثة . وان موضوع « معجم موحد لألفاظ الحضارة » ليندرج فى هذا السياق ، من أجل وحدة الأمة ، وفسح المجال الرحب أمامها من أجل بناء نهضتها العلمية والأدبية والفكرية والمشاركة الأصيلة فى بناء الحضارة الحديثة.

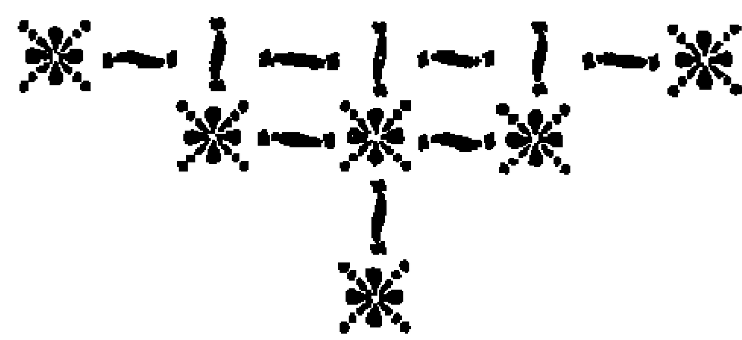
ونحن نعتقد أنه قد آن الأوان ، كى تقوم مجامعنا اللغوية العربية ، ومن خلال اتحاد المجامع بالعمل على انشاء مؤسسة خاصة بالمعاجم العربية ، حيث تستغل امكانات الأمة العلمية والمادية من أجل وضع المعاجم

المتخصصة فى مختلف العلوم والفنون والمعجم الحضارى ووضع المعجم التاريخى للغة العربية ، الأمل الكبير الذى طالما تطلعت إليه أمتنا فى مختلف مؤسساتها العلمية. أما ما يخص المعجم الموحد لألفاظ الحضارة فى الوطن العربى « فنحن نعتقد أنه من الضرورى أن توضع خطة علمية شاملة على مستوى الوطن العربى . . . فنجمع جمع استقصاء جميع ألفاظ الحضارة التى تستخدم فى جميع الأقطار العربية ، سواء منها ماكان من ألفاظ المؤسسات العلمية أو ماكان من ألفاظ السوق أو الأسماء التى يطلقها أصحاب الصنعة على آلاتهم وأدواتهم . . . الخ ، وان تضبط ضبطا كاملا وأن تشرح شرحا واضحا ، وقد يستعان بالرسم عند الحاجة .

ولابد من استخدام الحاسوب والتقنيات الحديثة فى مثل هذه الأعمال اللغوية الجليلة ، فنخزن جميع هذه الألفاظ ، مع الضبط والشرح والجهة التى تشيع فيها . . . وأن يكون هذا كله أحد المصادر التى يستعان بها إلى جانب المعاجم القديمة والحديثة ، العربية منها والأجنبية . . . ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن الاجتهاد فى الوضع والنقل والاشتقاق والنحت . . وغير ذلك من أساليب العربية ، يجب أن تكون الفلسفة التى تنزع عنها هذه المؤسسة فى اصدار المعجم الموحد لألفاظ الحضارة فى الوطن العربى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ، ،

عبد الكريم خليفة
عضو المجمع من الأردن



ألفاظ الحضارة فى التراث
للدكتور حسين على محفوظ

إذا ولدت الحضارة فى هذه البلاد وإذا اتسعت وامتدت وتعمقت وتنوعت وآتت أكلها فى هذه الرقعة من الأرض : فقد وجدت فى اللسان العربى المبين ما يعبر عن مقاصدها وأغراضها وحاجاتها ، ومايفى بمعطياتها وابكارها وأفكارها من الألفاظ والتراكيب والكلمات والمشتقات . وهذه المزية هى أحدى خصائص هذا اللسان القديم الكريم المعرق المدهش العجاب .

اشتغل العلماء العرب — فى تاريخ الإسلام— بالتأليف ، وصنفوا الكتب فى مختلف الموضوعات والعلوم . وأمتلأت الخزانة العربية بالتأليف فى أبواب المعارف والفنون. ولو وصل إلينا كل ماألف القدامى فى العلم تعذر احصاؤه والإحاطة به فضلا عن تلخيصه ، والتماس مضامينة واستخراج ألفاظه واصطلاحاته .

هذا — وقد كنت تتبعت ماتيسر تحصيله والاطلاع عليه من المصادر والأصول وعرفت به ، واستخرجت مايحتاج إليه مما فيه من ألفاظ الحضارة وأسماء الآلات والأدوات والأشياء والحاجات ومصطلحات العلوم والمواضعات والتعريفات . وهو أمر يشترك فى بعض جوانبه كثير من المهتمين باللغة والتراث الآن ومن قبل . والاهتمام به قديم فى اللغة والعلم .

وقد ألف العلماء واللغويون من الكتب والمعاجم فى الاصطلاحات والألفاظ والعلوم مالاينفده تزاحمنا عليه وازدحامنا على الاستقاء منه .

لا أحتاج إلى التنبيه على مافى خزانة التراث من طرائف الكتب فى اللغة والعلم — وهى كثيرة وما ضاع أضعاف مابقى — ولا أحتاج إلى توضيح مافى المعاجم المبوبة ، وكتب اللغة المرتبة على الموضوعات ، وجوامع المفردات الثنائية المصنفة على الأبواب أو

(*) ألقى فى الجلسة الخامسة يوم الخميس ٢٤ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٢ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م .

الحروف من غنى فى ألفاظ الحضارة مما ينفع فى تدوين المعجم التاريخى وقواميس العلوم والفنون والحضارة واللغة .

ولا أحتاج إلى إيراد الأمثلة ، وهى تستغنى عن التعريف . وإنما أكتفى فى هذه الدراسة المقتضبة من مباحث ألفاظ الحضارة فى التراث باستخراج مصطلحات الصيدلة وتعريفها من اقرابا ذين القلانسى ، والتنبيه على أهمية كتاب شرح كليات القانون لابن النفيس ، والتعريف بكتاب بحر الجواهر لليوسفى الهروى الطبيب .

أما بدر الدين محمد بن بهرام بن محمد القلانسى السمرقندى فقد كان « مجيداً فى صناعة الطب » كما قال ابن أبى اصيبعة . وكتابه (الاقراباذين) « قد أستوعب فيه ذكر مايحتاج إليه من الأدوية المركبة »..

وقد جعله مشتملا على (٤٩) باباً فى التقاط الأدوية ، وادخارها ، وأحكام الاحراق والغسل والجمود والمجاورة والممازجة ، وتركيب الأدوية المفردة وكيفية استعمالها فى الأدوية المركبة ، وكيفية الأحراق والقلى والشى والغسل ، و عمل الأدهان والأضمدة والقيروطى ، وطبخ السرطانات ، واستخراج الأدهان وعسل البلاذر ولبن الشبرم ودخان الكندر ، وتطرية العود ، واصلاح الدبق ، وحفظ المرارات والشحوم والأدمغة ، واتخاذ دم التيس وماء الجبن .

والباب العشرون والباب الحادى والعشرون هما مقصد هذا البحث . فقد اضطما على عشرات الاصطلاحات والتعريفات .

فسر القلانسى فى الباب العشرين أسامى الأدوية المركبة باليونانية . وشرح فى الباب الحادى والعشرين أسامى الأدوية المركبة بالعربية .

يحتوى الباب العشرون على (٤١) تعريفا لمجموعة من الألفاظ والتعابير ، و يحوى الباب الحادى والعشرون على (٥٠) تعريفا كذلك . والتعريف يقرب المراد من المصطلح ويفيد فى تحديد مايقابله من الألفاظ الأجنبية .

قال فى تفسير أسماء الأدوية المركبة اليونانية :

الترياق — كل دواء قاوم السموم —. ويسمى الترياق الأكبر ، وترياق الأفاعى ، وترياق الفارق .

المترو ذيطوس — ترياق عمله مثرو ذيطوس الملك ، وسماه باسم نفسه ،

ترياق الأربعة — ترياق عمل من أخلاط أربعة .

الاثاناسيا — معجون ينفع من أوجاع الكبد وغيرها ، ومعناه المنقذ :

الدحمرثا — الحادورة ، كأنها تحدر الرياح والطمث وتحطمها

يد الله — هو الدواء المتخذ بدم التيس ، النافع فى تفتيت حصاة المثانة . وإنما سمى بهذا الاسم لجلالته .

المعجون المسمى الجاويدانى — أى المعمر .

الأطريفل — أى الثلاثة أخلاط وهى المليبح والبليج والأبلح .

قرص الكوكب — الغالب على الامراض، الذى لاتغلبه الأمراض .

دواء الخطاطيف — المتخذ بالخطاطيف المحرقة .

جوارشن الحكماء — جوارشن سليمان

المعجون المغيث — يسكن جميع الأوجاع

معجون ابى مسلم ألف فى عهدة فسمى باسمه . وكان ذلك قبل عهد جالينوس (كذا ؟) .

الأكسيرين — كل دواء مركب ، منبت للحم فى القروح ، ملصق للجراحات .

القيروطى — الشموع المذابة ، المرفقة مع الأدهان او مياه البقول والثمار — المركبة فى الشمع والدهن .

الخشتجات — الحبوت المسهلة .

الكشتجات — كذلك. وقيل معناه (المدقوق) هو الذى يدق ثم يستعمل ...

الايارج — معناه الشريف .

— اسم للمسهل المصلح .

— الدواء الألهى .

المرهم — ما يعالج به القروح والجراحات وهى الأدوية المليثة بالأدهان والمخاخ والشحوم ونحوها .

وذكر — أيضا — من أسماء الأدوية المركبة الكثير النجاح — والمفلح ، وهبة الله — والمخلص الأكبر .

ويلاحظ ان القلانسى اشتبه أحيانا فى التأصيل ، وخلط فى نسبة الألفاظ إلى الأصول فى بعض الأحايين .

ومن شروح أسماء الأدوية المركبة بالعربية

الفرزجة — ما يتحمل فى القبل ؟ وجمعه فرازج

الشياف — ما يتحمل فى المقعدة .

— ويستعمل أيضا لدواء العين

البلوطة — التى يتحمل بها .

البندقة

الفتيلة —

شبار — إن كانت طويلة .

الحقن — مياه مطبوخة مع الأدوية ، وما يجرى مجراها ، تصب فى المقعدة .

البنادق — جمع بندقة . وهى أكبر من الحبوب ، فى هيئة البندقة .

الحب — ما حبب على هيئة الحبات . أى جعل على هيئاتها مدورة ومطولة ، صغارا وكبارا . وجمعه حبوب .

المطبوخات — مياه الأدوية اذا طبخت والغرض منها تليين الطبع واسهاله .

الاكحال — أدوية العين إذا كانت يابسة .

الأطلية — ما يطلى على العضو . والفرق بين الضماد بين الطلاء إن الضماد أغلظ والطلاء أرق . وهو يساعد اليد ويجرى معها . والطلى ولا يساعد اليد ، ولا يجرى معها .

الأضمدة — هى الأدوية التى تخلط وتبل بالادهان ، وتلين بالصموغ . وتوضع على العضو .

الأشربة — مياه الفواكة وغيرها إذا طبخت مع السكر والعسل حتى يكون لها قوام مثل السكنجبين وشراب التفاح .

الربوب — مياه الفواكة وغيرها ، إذا طبخت وحدها حتى تغلظ .

الافشرجات — هى الربوب والأفشرج معرب معناه العصارة. ولا يكون ربا حتى يطبخ ويغلظ .

الجلنجبين — الورد المربى .

السكنجبين — الشراب المركب من الخل والعسل .

الميبة — شراب مركب من رب السفرجل والخمر .

السرداروج — التقوية التى تلقى فى الدواء المطبوخ بعد التصفية لى. معرب من سردارو

الجوارش — هو الهاضوم .

المعجون — كل ما عجن من الأدوية .

والفرق بين المعجونات والجوارشنات أن المعجونات تكون مرة وحلوة ومنتنةوطيبة والجوارشنات لا تكون الاعذبة الطعوم طيبة الروائح .

الشموم — ما يشم من الرياحين والأدهان وغيرها .

النشوع (أو النسوع فى أكثر النسخ) بالعين غير المعجمة ما يصب فى الأنف وكذلك النشوغ . بالغين المعجمة .

النشوق — ما ينشق بالأنف ليدخل فيه بخاره أو رائحته .

الكبوب — ما يطبخ به الأدوية ، ويكب على بخاره .

الغسول — ما يغسل به العضو أو البدن .

الصبوب — ما يصب على العضو صبآ واسعآ .

النثور — ما ينثر على القروح والجراحات .

السكوب — ما يسكب على العضو من ماء أو دهن ونحوهما قليلا ، ويستعمل فى الشيء الرقيق .

النطول – ما ينطل على العضو أى يصب ويستعمل فى الشيء الغليظ . ويشبه أن يكون من النطل وهو العددى .

– كل ما أغلى من الأدوية وصب على العضو .

– ويطلق أيضاً على ماء مسخن يصب على العضو ، من غير أن يطبخ فيه شيء من الأدوية .

– ويطلق أيضاً على الصوفة المغموسة فى الماء المطبوخ فيه الأدوية إذا وضعت على العضو .

الكماد – كل شيء يسخن بالنار ، مثل خرق أو نخالة أو نحوهما ، ويوضع على العضو . كما يوضع على البطن الملح المسخن المصرور فى القولنج المريحى .

البرود – دواء يتخذ لتبريد العين .

اللعوق – ما يلعق من الأدوية .

الذرور – أدوية يابسة تذر فى العين أو فى القروح والجراحات .

القرص – واحد الأقراص والقرصة ، أدوية تدق وتحيا . مثل الأقراص صغارا أو كباراً ويقال أيضاً قرصة للواحد .

القميحة – ما يؤكل من الأدوية يابساً ، ويكون مقداره لقمة .

السفوف – ما يستف كالسويق ونحوه . ويقال قمحت الدواء ، وسففته ، واقتمحته واستففته .

البخور – ما يلقى فى النار .

السنون – ما يدلك به الأسنان من الأدوية .

اللطوخ – ما يلطخ به العضو .

المسوح – ما يمسح به .

المروخ – ما يمرخ به .

المضوغ – ما يمضغ .

الغرور – ما يتغرغر به .

المضوض – ما يتمصمض به .

الوجور – ما يصب فى الفم .

اللدود – ما يصب فى أحد شقى الفم .

النفوخ – ما ينفخ فى الأنف أو اللهاة والحلق من الأدوية اليابسة .

القطور – ما يقطر فى الأنف أو الأذن أو الأحاليل من دهن أو ماء أو كل سيال .

السعوط – ما يقطر فى الأنف .

العطوس – ما يعطس به .

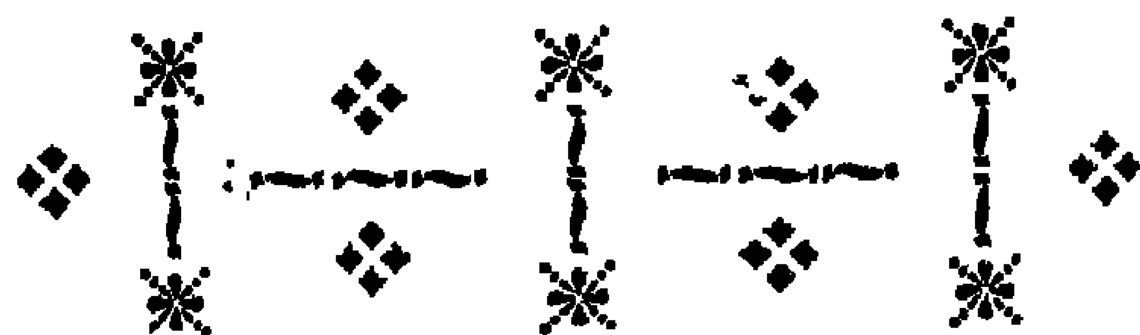
المربيات – كل ما يربى فى السكر أو العسل حتى يتحول فيكتسب كل واحد قوة من صاحبه ولا يتحداه .

الانبجاتِ -- هي المربيات واحدها انبجة . وهي معربة . وأصلها أو ميخته ومعناه الخلط والمزج .

والحق أن فى كتاب الأقرباذين للقلانسى وشرح كليات القانون لابن النفيس ، وكتاب بحر الجواهر لليوسفى من ألفاظ الحضارة فى الصيدلة والطب خاصة ما نحتاج كل الاحتياج إليه فى التعبير والتعريب ، ومالا نستغنى عنه فى اختيار ما تمس الحاجة إلى معرفة مقابله العربى من اللفظ الأجنبى .

حسين على محفوظ

عضو المجمع المراسل من العراق



المصــادر والمراجع

١ – اقرباذين القلانسى .

٢ – بحر الجواهر – الطبيب الهروى .

٣ – شرح كليات القانون – ابن النفيس .

٤ – علم الصيدلة فى التراث - د . حسين على محفوظ .

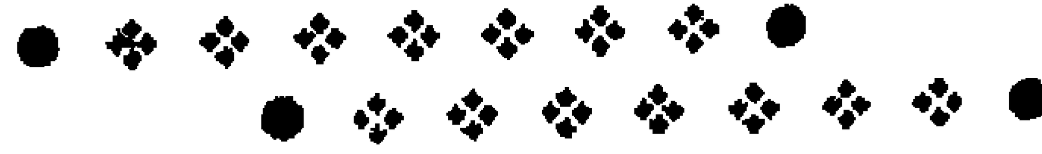
٥ – نقول - د . حسين على محفوظ .

٦ – دراسات وأبحاث ومقالات - د . حسين على محفوظ .

٧ – مطالعاتى – د . حسين على محفوظ .

٨ – قاموس التراث - د . حسين على محفوظ .

٩ – الحدود - د . حسين على محفوظ .



من قضايا السيرة النبوية
(تصحيح لمفاهيم خاطئة)
للدكتور محمد الطيب النجار[*]

مقدمة

كانت سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم هي الأساس الكامل لدعوته الكريمة التي أضاءت المشارق والمغارب وملأت العالم بالهدى والنور . ومن أجل ذلك كانت أهمية هذه السيرة الوضاءة العطرة للمسلمين بل للإنسانية جمعاء . حيث تناقلتها الأمم والشعوب جيلا بعد جيل . ثم سجلت على مختلف العصور في كتب يضيق بها الحصر والتعداد . وسوف تظل الكتابة فيها متصلة الحلقات إلى أن تنفطر السماء وتنكدر النجوم وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات .

وواجب المؤرخ الذي يتصدى لكتابة السيرة النبوية أن يستضيء أول ما يستضيء بكتاب الله عز وجل ، ثم يلي ذلك في الأهمية كتب السنة الصحيحة ، وتجيء بعد ذلك المراجع الأساسية الأصيلة في التاريخ الإسلامي ويضاف إلى ذلك كله ما كتبه المؤرخون المحدثون ؛ كي يستنير الباحث بآرائهم الصائبة أو يضيف إليها ما يمكن أن يهتدي إليه من آراء جديدة . أو يفند ما جاء في بعضها من الآراء التي لاتستند إلى أساس سليم .

ومن المعروف أن المستشرقين الغربيين قد تناولوا حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما تناولوه من الأبحاث في التاريخ الإسلامي ولكن روح التعصب والتحامل كانت تطغى على معظم كتاباتهم ومن أبرز هؤلاء الذين ظهرت فيهم روح التعصب في كتاباتهم عن الرسول « وليم موبر » و « كايتاني » . ومن المعروف — أيضاً — أن كتب السيرة كغيرها من سائر الكتب الإسلامية قد دست إليها في

(*) ألقي في الجلسة السادسة يوم السبت ٢٦ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٤ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م .

عصور التدوين الأولى بعض المفتريات وكان أساسها هؤلاء الذين أسلموا ظاهراً ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم . أو دخلوا فى الإسلام ولم تكتمل معرفتهم بكل مبادئه وآدابه .

لذا أصبح لزاماً علينا أن نتبين مثل هذه الروايات الدخيلة وأن ننظر إليها بعين الفاحص المتأمل حتى يمكن أن نصفيها - بقدر ما نستطيع - من الشوائب والرواسب . أو نطرحها جانباً إن كانت خبيثة الجوهر فاسدة العنصر مهما كانت خادعة المظهر ومهما لبست من ثياب براقة زاهية .

على أن ذلك كله فى نطاق محدود ويجب أن يكون بعيداً عن المعجزات الثابتة للرسول صلى الله عليه وسلم فإن هذه المعجزات كشق الصدر وانشقاق القمر . إلى غير ذلك من سائر المعجزات التى صحت نسبتها ورجحت روايتها لاينبغى أن تناقش فى ضوء المنطق وعلى أساس من الأسباب والمسببات . وإلا لما كانت معجزات . أما المعجزات التى لم تصح نسبتها ولم ترجح روايتها فإن رسول الله فى غنى عنها ولا ينبغى لنا أن نتمسك بها .

وإذا كانت قضايا السيرة هى الأحداث الكبرى التى مرت على الرسول أو مر هو بها فإن الحديث عنها يطول كثيراً ويكاد ينتظم حياة الرسول جميعها ، ومن أجل ذلك آثرنا أن نتحدث عن بعض الأحداث التى اختلفت فيها وجهات النظر . وتعرضت لأفهام خاطئة من بعض الكتاب المسلمين أو لمفتريات كاذبة من غير المسلمين ثم نحاول أن نبين وجه الحق فيها بقدر ما نستطيع ونسأل الله أن يسدد خطانا على الطريق ، وأن يجنبنا شر الزلل ويوفقنا لخير العمل . وبالله التوفيق .

١ – « قل انما أنا بشر مثلكم »

كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه الدنيا كحياة المشكاة النيرة يتألق ضوؤها ذات اليمين وذات الشمال وفى كل مجال ويهدى الله بها من يشاء من عباده . فلما قضى الله على رسوله أن يلحق بالرفيق الأعلى ويوضع جسده الطاهر فى باطن الأرض رجع الناس بسيرته نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم وسوف يظل هذا النور هداية للناس ورشاداً ما دامت السماوات والأرض وما بقى الوجود كله .

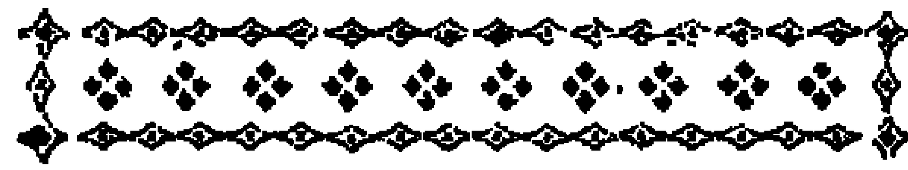
وإنه لحق علينا – نحن المسلمين – أن ننتفع بهذا النور المبين وأن نحسن استغلاله بدل أن تعشى به أبصارنا فيلتوى علينا القصد ويضيع منا الطريق . بيد أن بعض المسلمين قد عشيت أبصارهم بهذا النور إذ فتنوا بحبهم للنبى محمـــد صلى الله عليه وسلم فضلوا عن الحق وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . ذلك بأنهم قد بالغوا فى تقديس النبى مبالغة أنستهم أنه بشر وأنه خلق من طين كما خلق سائر البشر فقالوا عنه إنه خلق من نور وقالوا عنه إنه أول خلق الله ، واستدلوا على ذلك بروايات موضوعة لا تمت إلى الحق بأى سبب وغفلوا عن الآيات الواضحة الصريحة التى ذكرها الله عز وجل فى محكم كتبه والتى يتبين منها حقيقة البشرية التى أكدها الله وأمر رسوله أن يعلنها للناس فى مثل قوله سبحانه فى سورة الكهف : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى » ، ثم زادها تأكيداً فى آية أخرى تشير إلى أن محمداً خلق من نفس الطينة التى خلق منها سائر البشر وذلك حيث يقول فى سورة التوبة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ».

ولقد ذكر بعض المفسرين فى تفسيرهم لقول الله تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ذكر بعض المفسرين أن المقصود بالنور فى هذه الآية الكريمة هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن هنا ساغ لبعض ضعفاء العقول أن يقول إن محمداً مخلوق من نور جهلا منهم بما يفهم من الآية . إذ لا شك أن النور الذى جاء فى الآية الكريمة هو النور المعنوى الذى يضىء للناس طريق الحق وليس النور الحسى الذى تراه العين والذى يضىء كما تضىء المصابيح وكما تضىء الكواكب ؛ فالواقع الذى تطمئن له النفوس وتنهض به الحجة أن محمد أنور لأنه أضاء للناس طريق الخير بما آتاه الله من العلم والحكمة ولكنه مخلوق من التراب الذى خلق منه سائر البشر وليس يضيره فى قليل أو كثير أن يكون

مخلوقاً من التراب ما دام الله قد اصطفاه واختاره لرسالته الكريمة التى أضاءت المشارق والمغارب وملأت العالم كله بالهدى والرشاد..

والواقع الذى تطمئن إليه النفوس وتنهض به الحجة أن محمدا أول خلق الله منزلة وأعلاهم قدراً وليس أول خلق الله وجوداً وأقدمهم مولداً ذلك بأنه فى التسلسل الزمنى كان خاتم الأنبياء والمرسلين . فهو مكمل للبناء العظيم الذى أقامه الأنبياء لإسعاد البشر منذ وجد آدم أبو البشر ، ولا يستقيم مع المنطق السليم أن يكون محمد صلوات الله وسلامه عليه من أبناء آدم ثم يوجد قبل ابيه .ولا يستقيم مع المنطق السليم — كذلك — أن تكون الأفضلية بين الناس بقدم الميلاد وإلا لكان الآباء أبداً أفضل من الأبناء . . وكان الأجداد — على توالى العصور — أفضل من الآباء والأحفاد .

وإذا كان من واجبنا — كمسلمين — أن نقدر نبينا العظيم حق قدره فإنه لحق علينا — كذلك — ألا نسىء الفهم وتتجاوز الحد فنبعد نبينا عن منزلته وقدره فما ؛ أبعد الفرق بين التقدير والتقديس وبين الحب والعبادة .



٢ ــ ((قصة الفيل والطير الأبابيل))

يقول الله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » .

وتشير الآيات الكريمة إلى تلك المحاولة التى قام بها القائد الحبشى أبرهة الأشرم حيث توجه إلى مكة يريد هدم الكعبة. ولسنا الآن بصدد الأسباب التى دفعته إلى هذه المحاولة ولكننا سنقف عند تلك الآية الكبرى التى تجلت فى ذلك اليوم فكانت معجزة باقية على الدهر وسجلها الكتاب العزيز فى سورة من سوره حيث أرسل الله على الجيش الحبشى . جماعات من الطير أمثال الخطاطيف ومع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحدا إلا هلك .

وقد ذعر الأحباش واستولى عليهم الرعب والذهول فخرجوا يبتدرون الطريق الذى منه جاءوا وحينئذ رآهم أعرابى فى هــذه الحيرة فأدرك أنهم قد أحيط بهم وقال :

أين المفر والإله الطالب
والأشرم المغلوب ليس الغالب

وجعلوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك وأصيب أبرهة فى جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة وكلما سقطت أنملة خرج وراءها الدم والقيح الكثير ، وما زال هكذا حتى انصدع صدره عن قلبه . وهكذا كان هلاكهم كما أشارت السورة الكريمة حيث يقول سبحانه مشيراً إلى نهايتهم : « فجعلهم كعصف مأكول » .

ومن عجب أن تكون الآيات الكريمة واضحة كل الوضوح فى تصوير هذه الحادثة ومع ذلك يوجد من علماء المسلمين من يحاولون تأويلها ويقولون إن الله عز وجل يريد بالطير الأبابيل الرياح المتجمعة وبالحجارة من السجيل ذرات التراب التى حملت ميكروب الجدرى. وممن ذهب إلى هــذا الرأى الإمام الشيخ محمد عبده فى تفسيره لجزء عم والدكتور محمــد حسنين هيكل فى كتابه حياة محمــد والدكتور طه حسين فى كتابه على هامش السيرة .

ومن واجبنا أن نقول لمن يقرعون هذه الآراء إنه لم يعهد فى لغــة العرب أن يقال عن الرياح إنها طير أبابيل أى جماعات من الطيور

ولا ينبغي أن يقال ذلك إلا بطريق مجازى بعيد ، ولا يصح أن يلجأ إلى مثل هذا المجاز مادامت الحقيقية غير مستحيلة على قدرة الله تعالى . وكذلك لايقبل في لغة العرب أن يقال عن الذرات من التراب إنها حجارة من سجيل أي من طين مطبوخ في النار وهو الآجر ، وإذا كانت الريح — كما يزعمون — قد حملت ميكروب الجدرى فلماذا هلك الأحباش وحدهم ولم يهلك معهم العرب ؟ . وإذا كان حادث الفيل قد وقع عام ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم فمن المعقول أن سورة الفيل قد نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم في وقت كان يعيش فيه من أهل مكة أناس رأوا حادث الفيل بأعينهم وبعضهم كان من المشركين الذين لم يؤمنوا برسالة محمد . فلو لم تكن الطيور طيوراً حقيقية والحجارة حجارة حقيقية لظهر من العرب من يسارع إلى تكذيب هذه السورة ويعلن ذلك على رءوس الأشهاد . وينتهزها فرصة في الكيد لمحمد والطعن عليه ، . ولكن الواقع أن سورة الفيل قد نزلت فتلقاها العرب بالقبول لأنها تقرر حقيقة معروفة عندهم لاشك فيها ولا يجرؤ أحد على إنكارها .

وعلى هذا فالطير الأبابيل هي الطيور الحقيقية المعروفة لدى الناس جميعاً ، ولعلها غارات جوية وقعت في هذا العالم قبل الأوان. لم يصنعها إنسان ليبطش بأخيه الإنسان ولكن صنعها القهار ليكبح بها جماح الظلم والعدوان.

ولقد سجل العرب في شعرهم هذا الحادث العجيب وتغنوا به أمام العصور والأجيال، ومن ذلك قول نفيل بن حبيب يصور ماوقع للأحباش في ذلك اليوم :

ألا حييت عنا ياردينـــا
تعمناكم مع الإصباح عينا
حمدت الله إذا أبصرت طيرا
وخفت حجارة تلقى علينـــا

وقول أمية بن أبي الصلت :

إن آيات ربنـا ثاقبـــات
لايمارى فيهن إلا الكفور
حبس الفيـل بالمغمس حتى
ظل يحبـو كأنه معقـور

وقول عبد الله بن قيس :

كاده الأشرم الذى جاء بالفيل فولى وجيشه مهزوم

واستهلت عليهم الطير بالجندل حتى كأنه مرجوم

وهكذا حمى الله بيته المحرم من عدوان الظالمين لأنه البيت العتيق الذى كان مصدر

الهدى والنور منذ رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . فلما تغيرت الأحوال وعبد العرب الأصنام وتركوا النور وتخبطوا فى الظلام شاء الله ألا يطول عليهم الأمد فى هذه الظلمات وأراد بهم الخير فحمى هذا البيت من عدوان الأحباش ليعود إليه مجده التليد ، ويتلألأ فيه النور من جديد على يدى محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذى ولد فى هذا العام . ثم بعثه الله بعد ذلك هداية ورحمة للعالمين .



٣ ــ ((الحجر الأسود

يتطلع المسلمون ــ كلما أذن الإيمان فى نفوسهم بالحج أو العمرة أو الطواف إلى ذلك الحجر الأسود الذى وضعه إبراهيم عليه السلام فى الركن الجنوبى الشرقى للمسجد الحرام ثم تركه وديعة غالية حفظتها الأجيال والقرون وبالغت فى حفظها حتى أن الإسلام الذى غير وبدل وهدم وأقام لم يتعرض لهذا الحجر بنقض أو هدم أو تغيير بل بقى فى مكانه وبقى له قدره ومكانه فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل عليه ويقبله وكان المسلمون من وراء نبيهم يفعلون مثل ذلك وهم جميعاً يؤمنون بأنه حجر لاينفع ولايضر وفى ذلك يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلمته المأثورة حينما طاف بالبيت :

« والله إنى أعلم أنك حجر لاتضر ولاتنفع ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك ».

وقد وردت آثار كثيرة فى فضل هذا الحجر وفيها ما يدل على أنه من الجنة . ولا بد لنا أن نقف أمام هذه الروايات وقفة الفاحص المتأمل الذى لاينخدع بالعاطفة ، والذى يبتغى الحق لوجه الحق وحده ــ « فقد روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الحجر والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما . ولولا أن الله طمس نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب ولأبرءا من استلمهما من الخرس والجذام والبرص »

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بنى آدم » ويذكر العلامة تقى الدين الفاسى فى كتابه « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام رواية أخرى عن ابن عباس تتعارض مع الرواية السابقة المذكورة عن ابن عباس نفسه إذ يقول : « وإنما غيره الله بالسواد لئلا ينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة وإنه لياقوتة بيضاء » :

وهذه الروايات وأمثالها تحمل فى طياتها ما يهدمها لما يظهر فيها من تعارض ، ثم هى فى ذاتها لاتقوم على أساس ولا تستهدف غرضاً سليماً ؟؟ فأما تعارضها فلأن الروايتين المذكورتين عن ابن عباس تفيد إحداهما أن الحجر كان أشد بياضاً من اللبن ثم اسود من ذنوب بنى آدم وخطاياهم ، وأما الثانية فإنها تفيد أنه اسود قبل أن يطوف به أحد

وأنه كان ياقوتة بيضاء ثم غيره الله بالسواد حتى لاينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة حينما يرون الحجر وهو ياقوتة بيضاء .

وأما أنها لا تقوم على أساس ولا تستهدف غرضاً سليماً فلأن قيمة هذا الحجر لاتزداد إذا كان من أحجار الجنة ولا تنقص إذا كان من أحجار الأرض وذلك بأن قيمة الشيء إنما تكون في الجوهر دون العرض وفي اللباب دون القشور ، فالذهب وسط التبر هو الذهب وسط التراب ، والحصى بين اللآلىء الغالية هو الحصى بين الرمال السافية .

والكعبة المشرفة التى بنيت من أحجار جبل أبى قبيس هى بيت الله الذى يشع بالهدى والنور ويسمو على مافى الجنة من دور وقصور .

ومن حقنا الآن أن نتساءل : ما الحكمة فى أن ينزل الله من الجنة ياقوتتين مضيئتين ثم يطمس نورهما ؟ إنهما إذن يفقدان خاصيتهما الكريمة وينزلان إلى مستوى الحصى والرغام ؟ ؟ أوما كان الأجدر أن يظلا ياقوتتين مضيئتين ليكونا من آيات الله الخالدة ؟ . وإذا قيل إن هذا الحجر كان أشد بياضاً من اللبن ثم سودته خطايا الناس وذنوبهم فلماذا لم يره أحد من الناس فى زمن بياضه ؟ ولماذا لايزداد اسوداده على توالى الأزمنة والعصور ؟؟

كل هذه الخواطر التى تجول فى النفس تجعلنا ننظر إلى مثل هذه الروايات فى حيطة وحذر . وتشك كل الشك فى نسبتها للرسول صلى الله عليه وسلم ولاسيما أنه لم يذكر شىء منها فى الصحيحين . وحينما ذكر الترمذى الحديث المروى عن عبد الله بن عمر قال إنه حديث غريب ؟؟ .

ولابد لنا إذن أن نتلمس السبيل إلى رواية أخرى لايتطرق إليها مثل هذا الضعف والوهن وتلكم الرواية هى ماذكره ابن الأثير فى تاريخه حيث قال : إن إبراهيم عليه السلام حينما أمره الله ببناء البيت الحرام قال لولده إسماعيل : فأطع ربك ، لقد أمرك الله أن تعيننى على بنائه ، قال : إذن أفعل . فقام معه فجعل إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة . ثم قال إبراهيم لإسماعيل : ائتنى بحجر حسن (أى متميز فى لونه) أضعه على الركن ليكون للناس علما فأخذ حجراً من جبل أبى قبيس وهو الحجر الأسود ووضعه فى موضعه فلما ارتفع البنيان كان إبراهيم يقف على حجر وإسماعيل يناوله وهذا الحجر هو مقام إبراهيم . وهكذا تعاون إبراهيم وإسماعيل حتى رفعا قواعد البيت وأتما بناءه » .

ومن هذه الرواية الواضحة وما يؤيدها من روايات ذكرتها أمهات الكتب التاريخية يتبين لنا أن الحجر الأسود لم ينزل من الجنة وإنما هو من أحجار جبل أبى قبيس

وقد أراد الله أن يوضع فى ركن من أركان بيته المحرم ليكون علما أى علامة يبدأ منها الطواف وينتهى إليها . فلما أذن إبراهيم فى الناس بالحج كان الحجر الأسود موضع بدء الطواف ونهايته وكان الطائفون يبدءون باستلامه وكأنما يسجلون أنفسهم فى هذا السجل الخالد ويقترن ذلك فى نفوسهم بأجل الذكريات عن النبى الكريم إبراهيم فيزداد حبهم لهذا الحجر المبارك وهم إنما ينظرون من خلاله إلى رب الحجر وخالق الحجر . ويوقنون إن إبراهيم الذى وضع هذا الحجر فى هذا المكان هو الذى حطم الأصنام وقضى على عبادة الأوثان .



٤ ـ « روايات عن ارهاصات النبوة »

تتحدث كتب السيرة عن الإرهاصات التى وقعت قبل البعثة النبوية والتى كانت من البشائر التى سبقت النبوة ، وقد ذاعت بعض هذه الإرهاصات لدى الكثرة الغالبة من الناس مع أنها لم ترد فى كتب السيرة الأصيلة ولم يتحدث عنها الرسول فيما صح من أحاديثه .

ومن ذلك ما يروى أن أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى سقطت ليلة الميلاد ، وأن نيران المجوس خمدت فى هذه الليلة ، وأن بحيرة ساوة قد غاضت وانهدمت الكنائس التى حولها فى تلك الليلة « كذلك » ، وأثارت هذه الروايات شعور الشعراء وهزت مشاعرهم فأخذوا يتغنون بها على توالى العصور . ومن ذلك ما قاله البوصيرى فى قصيدته المشهورة (بردة المديح) :

أبان مولده عن طيب عنصره
يا طيب مبتـدأ منه ومختتم

يوم تفرس فيه الفرس أنهم
قد أنذروا بحلول البؤس والنقم

وبات إيوان كسرى وهو متصدع
كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم

والنار خامدة الأنفاس من أسف
عليه والنهر ساهى العين من سدم

وساء ساوة أن غاضت بحيرتها
ورد واردها بالغيظ حين ظمى

وقد علق الكتاب القدامى والمحدثون على هذه الروايات وكان منهم من يؤيدها ومنهم من يعارضها وينفيها ، ويعجبنى مما جاء فى هذا المجال ماذكره الشيخ محمد الغزالى فى كتابه « فقه السيرة » حيث نفى مثل هذه الروايات نفياً قاطعاً فقال : « إن هذا تعبير غلط عن فكرة صحيحة فإن ميلاد محمد كان حقاً إيذاناً بزوال الظلم واندثار عهده واندكاك معالمه ، وقد كانت رسالة محمد بن عبد الله أخطر ثورة عرفها العالم للتحرر العقلى والمادى ، وكان جند القرآن أعدل رجال وعاهم التاريخ وأحصى فعالهم فى تدويخ المستبدين وكسر شوكتهم طاغية إثر طاغية . فلما أحب الناس بعد انطلاقهم من قيود الفسق تصوير هذه الحقيقة تخيلوا هذه الإرهاصات وأحدثوا لها الروايات الواهية . ومحمد فى غنى عن هذا كله فإن نصيبه الضخم من الواقع المشرف يزهدنا فى هذه الروايات وأشباهها .. ؟؟

ونحن نؤيد هذا الرأى السديد ونزيد على ماقاله الشيخ الغزالى أن معظم الكتب الأصيلة فى التاريخ والسيرة وكتب السنة الصحيحة لم

تذكر هذه الإرهاصات فيما ذكرته من سائر الإرهاصات والمعجزات التى رويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم ومثل هذه الحوادث الخطيرة لا يمكن إغفالها لو كانت قد وقعت ، ولو أن أعداء الإسلام رأوها لما أنكروها بل كانوا يسجلونها فى كتبهم التى أرخوا فيها لتلك الفترة ويتلمسون لها أسباباً أخرى ويحاولون أن يرجعوها إلى أسباب كونية وعوامل طبيعية أو إلى غضب الآلهة عليهم إلى غير ذلك من التعليلات التى تخرج بها عن إثبات الفضل لمحمد ولدينه . . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وبهذا يصبح واضحاً أن مثل هذه الروايات لا تحمل من أسباب القوة ما يجعلنا نطمئن إليها ونرجح وقوعها . .



٥ ــ ((حادثة شق الصدر))

ونخصها بالحديث لأنها كانت حدثاً هاماً في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم إذ وجهت الأنظار إليه وهو في هذه السن المبكرة .

وقد جرت سنة الله مع أنبيائه أن يكرمهم بالمعجزات الخارقة قبل أن يبعثهم للناس حتى تتهيأ العقول بعد ذلك لقبول دعوتهم .

وتذكر الروايات التاريخية عن محمد وهو في الثالثة من عمره أنه كان مع أخيه من الرضاع خلف بيوتهم فعاد أخوه الطفل السعدى يقول لأبيه وأمه : ذلك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه (أي يقلبانه) . .

تقول السيدة حليمة : فخرجت وأبوه فوجدناه قائماً ممتقعا وجهه فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : مالك يابني ؟ قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لم أدري ماهو .

وقد خشيت السيدة حليمة على محمد أن يكون قد أصابه شيء فأرجعته إلى أمه آمنة وقصّتْ عليها النبأ العجيب فطمأنتها آمنة قائلة : إن لابني هذا لشأنا ؟ فلم أكن أحس أثناء حمله بشيء مما تجده الحوامل وقد رأيت وأنا أحمله كأن نوراً خرج مني فأضاء لى قصور الشام ثم طلبت إليها أن تعود به إلى البادية مرة ثانية فعادت به حليمة . وظل معها حتى قارب الخامسة من عمره .

وتروى كتب السنة والسيرة وقوع هذه الحادثة للرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج فلقد روى الإمام أحمد والإمام مسلم وقوع هذه الحادثة للرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج .



مناقشة هذه القضية

ويختلف رأى العلماء فى معنى شق الصدر فيذهب البعض منهم إلى أنه شق حقيقى وأنه معجزة وقعت مرتين : مرة قبل البعثة ومرة بعدها ، فأما قبل البعثة فلكى تكون إرهاصاً ومقدمة للنبوة وبشيراً بما ينتظر لمحمد من مركز عظيم ومقام كريم . وأما بعد البعثة فلكى تكون معجزة تضاف إلى المعجزات الأخرى التى كرم الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم ، والتى تؤيد صدقه فى دعواه .

ويذهب البعض الآخر إلى أن حادث شق الصدر لم يقع حقيقة وإنما هو من قبيل المجاز ويقصد به ما يفهم من قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك » فهى بذلك تكون إشارة إلى تطهير الرسول صلى الله عليه من الشوائب التى توجد فى نفوس الناس والسمو به إلى درجة عالية من الطهارات النفسية والخلقية .

ولكننا نقول إن محمداً صلوات الله وسلامه عليه لم تدعه العناية الإلهية غرضاً للوساوس التى تناوش غيره من سائر الناس ، وإنه لولم يقم الملكان بشق صدره لما كان أبداً غرضاً للوساوس . بل لكان مثله كمثل جميع الرسل الذين اصطفاهم الله من عباده وطهر قلوبهم من الوساوس دون أن تشق صدورهم .وإنما أراد الله بهذه الحادثة الفريدة فى نوعها أن تتوجه الأنظار والقلوب إلى محمد فى طفولته وبعد بعثته ويعرف الناس عنه أن عناية خاصة تحيط به وتميزه عن غيره . وأن العناية التى أحيت الموتى وأبرأت الأكمه والأبرص على يدى السيد المسيح عليه السلام هى العناية التى شقت صدر محمد ثم أرجعته فى لحظات إلى حالته الطبيعية وهذا شأن المعجزات التى لاتخضع ولا ترتبط بالأسباب العادية .

ولا ينبغى بأى حال أن تحمل القصة على أنها من الأساليب المجازيه لأن سياق القصة والتعبير بلفظ « جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض » وكلمة « فأضجعانى وشقا صدرى » وفرار أخيه من الرضاعةفزعاً مما رأى ، ومجئ السيدة حليمة هى وزوجها ومقابلتهما لمحمد وهو ممتقع لونه وحكايته للقصة بنفس هذه الألفاظ . . كل ذلك يجعل الحقيقة فى هذه القصة واضحة لذى عينين ويبعد بها عن الأسلوب المجازى بعد المشرقين .

وإذا كان بعض المستشرقين مثل سيروليم موير ودر منجم ينكرون هذه الحادثة لأنها تعتمد على رواية طفلين لايصح الأخذ بقولهما فإننا نرى أن رواية الأطفال أقرب إلى الصدق وأبعدعن الكذب من رواية الرجال لأن الأطفال فى مثل هذه السن الصغيرة لا يمكن أن يختلقوا الكذب ويتفقوا عليها بمثل هذه الصورة ،

الدقيقة ومع ذلك لقد تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه الحادثة بعد البعثة حينما كان يسترجع ذكريات الطفولة ويقصها على أصحابه وأخبر كذلك . عن المرة الثانية التى وقعت له فى ليلة الإسراء والمعراج .

وإذن فالرأى الذى ترتضيه هو أن حادث شق الصدر قد وقع بطريقة حسية وأنه حقيقة لا ريب فيها . وهو من الإرهاصات التى تبشر بنبوة محمد وتسلط الأضواء عليه قبل النبوة إذ ليس هناك ما يمنع من ذلك ما دمنا نؤمن بالعناية الإلهية التى تصاحب الأنبياء منذ فجر حياتهم ..



٦ - « قصة الغرانيق »

قصة الغرانيق مشهورة وقد كثر فيها كلام الكتاب والباحثين المعاصرين ومن العجيب أن بعض المراجع الأساسية فى التاريخ كالطبرى فى تاريخه وابن سعد فى طبقاته . وابن الأثير فى كتابه الكامل ، كل هذه المراجع قد أثبتت هذه القصة دون أن تعلق عليها بما يدل على بطلانها وفسادها مع أنها تحمل فى طياتها ما يهدمها من أساسها ..

ومجمل هذه القصة أن محمداً صلى الله عليه وسلم لما رأى تجنب قريش إياه وإيذاءهم له ولأصحابه تمنى ألا ينزل عليه شىء من القرآن ينفرهم فجلس يوماً فى إحدى أنديتهم حول الكعبة فقرأ عليهم سورة النجم حتى بلغ قوله تعالى : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » . فقرأ بعد ذلك : « تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى » ثم مضى إلى نهاية السورة كلها وسجد فى آخرها عندقوله : « فاسجدوا لله واعبدوا » ، وهناك سجد القوم جميعاً ولم يتخلف منهم أحد ، وأعلنت قريش رضاها عماتلاه النبى . وقالوا له : قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا تشفع لنا عنده . أما إذ جعلت لها نصيباً فنحن معك وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبينهم وفشا أمر ذلك فى الناس حتى بلغ أرض الحبشة فقال المسلمون الذين كانوا قد هاجروا إليها عشائرنا أحب إلينا ورجعوا إلى مكة ...

وتضيف الرواية أن محمداً قد كبر عليه قول قريش : « أما إذ جعلت لآلهتنا شفاعة فنحن معك وأنه جلس فى بيته حتى إذا أمسى أتاه جبريل فعرض عليه النبى سورة النجم فقال له جبريل : أوجئتك بهاتين الكلمتين؟ : مشيراً إلى (تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى) فقال محمد حينئذ : لقد قلت على الله مالم يقل . ثم أوحى الله إليه .

« وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا » .

وبذلك عاد يذكر آلهة قريش بالشر وعادت لمناوءته وإيذاء أصحابه .. ، « تلكم هى قصة الغرانيق فى جملتها وهى قصة واضحة الكذب ولغة الوضع فيها ظاهرة ولذلك لم تنطل على كثير من العلماء الثقات أمثال محمد ابن إسحاق والقسطلانى فقالوا عنها : إنها من وضع الزنادقة ولعل بعض المؤرخين الذين أثبتوها كانوا يؤمنون بفسادها ولكنهم وضعوها فى كتبهم على أنها مجرد رواية مطمئنين إلى فطنة القارئ ويقظته . ولعلها دست إلى بعض هذه الكتب بعد موت أصحابها .

وحسبنا فى إبطال هذه القصة أن تقرأ الآيات القرآنية فى سورة النجم لنرى فيها أبلغ الرد على ما تدل عليه الجملتان الموضوعتان وذلك حيث يقول سبحانه :

« أفرأيتم اللات والعزى — ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى — تلك إذاً قسمة ضيزى ، إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » .

فكيف يعقل أن تحشر فى هذه الآيات التى وضحت دلالتها على حقارة الأصنام وسفه من يقدسونها جملتان ترفعان من شأن هذه الأصنام وتجعلان لها شفاعة مرجوة ؟ وكيف تمكن أن يسجد المشركون بعد أن يسمعوا هذه الآيات وفيها طعن صريح على آلهتهم حيث يقول الله عنها « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

وأما أن محمداً قد كبر عليه قول المشركين إنهم معه مادام قد جعل لآلهتهم نصيباً من الشفاعة فهذا كلام لا يتفق و جوهر الدعوة الإسلامية ومبادئها العامة التى تحارب الشرك بكل مظاهره والتى تقوم على التوحيد الخالص البعيد عن كل الوسطاء والشفعاء .

وأما أن الرسول قد أوحى إليه بعد ذلك بتلك الآيات الكريمة : وهى قوله تعالى : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا ، ولولا أن ثبتناك لقــد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا » فلا شك أن هذه الآيات لا تؤيد مثل هذا الادعاء ولا تفيد وقوع مثل هذا الافتراء . لأن مفهوم الآيات أن الله قد ثبت رسوله على الحق فلم يركن إليهم لا قليلا ولا كثيراً وقد حال الله بينه وبين الافتراء على الله والركون إلى أعداء الحق .

وأما ما ساقه هؤلاء الكاذبون الذين وضعوا هذا القصة من الاستشهاد على وقوعها بقول الله تعالى فى سورة الحج :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ، ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم» . وتفسيرهم للتمنى بالقراءة . وتعزيزهم لهذا التفسير ببيت من الشعر يحكى قصة عثمان بن عفان رضى الله عنه قبل مقتله فيقول

تمنى كتاب الله أول ليلة
وآخرها لاقى حمام المقادر

فهذه الآية الكريمة لا ينبغى أن يفسر التمنى فيها بالقراءة لأن هذا التفسير بعيد كل البعد عن المقصود . وليس له فى الأساليب العربية وجود إلا فى هذا البيت وحده ، وفى هذا دليل واضح على أن هذا البيت قد وضع لهذا الغرض خاصة ...

هذا ولو أننا فسرنا التمنى بمعنى القراءة فإن معنى ذلك أن يلقى الشيطان فى قراءة كل نبى كلا ماليفتن به الناس ثم ينسخه الله بعد ذلك، وهذا مالم يقع للأنبياء الذين لم تنزل عليهم كتب حتى يغير الشيطان فيها ثم ينسخ الله بعد ذلك ما يفعله الشيطان ، على أن سنة الله فى رسله وأنبيائه أن يؤلف حولهم القلوب فى مبدأ دعواتهم بإجراء المعجزات والخوارق على أيديهم بدل أن يمكن الشيطان من إلقاء الفتنة وإشعالها بين أتباعهم بنسخ ما ينزل عليهم بسبب تسلط الشيطان فينفر الناس منهم ويضعف الثقة فيهم .

والآية حينئذ تفسر على النحو الواضح المألوف فى لغة العرب ، ويكون المعنى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى هداية قومه ألقى الشيطان فى أمنيته : أى وضع الشيطان فى طريق تحقيق أمنيته العقبات والعراقيل فينسخ الله ما يلقى الشيطان أى فيذهب الله ما وضعه الشيطان من تلك العقبات بفضل إيمان المؤمنين وجهادهم ثم يحكم الله آياته أى يظهر الحق ويرسى أسسه ودعائمه والله عليم حكيم » .

وبهذا يتبين لنا أن قصة الغرانيق قصة مختلقة دست إلى بعض الكتب القديمة . وأنها ليست هى السبب فى رجوع المسلمين من الحبشة وإنما رجع هؤلاء المهاجرون من الحبشة إلى مكة بسبب ما علموا من إسلام حمزة وعمر واعتقادهم أن إسلام هذين البطلين سيعتز به المسلمون وتقوى شوكتهم .



٧ ـ « دور الملائكة في يوم بدر »

كان يوم بدر يوم السماء نزلت فيه الملائكة إلى الأرض لتثبت الذين آمنوا وتلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب . وفى ذلك يقول الله عز وجل : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » ويقول إذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » ..

وقصة إمداد الله للمسلمين بالملائكة قصة عجيبة قوامها قدرة الله الذى الأرض جميعاً قبضته والسماوات مطويات بيمينه ، وقد اختلف العلماء فى الغرض الذى من أجله أمد الله المسلمين بالملائكة ، فذهب بعضهم إلى أن الملائكة إنما نزلت للقتال . فهى جيش من السماء وأنزله الله لإضعاف شوكة الشرك والطغيان فى الأرض . ويستدلون على ذلك بما روى من أن رجلا من المسلمين كان يطارد رجلا من المشركين فى يوم بدر فسمع صوت ضربة بالسوط فوقه فنظر إلى المشرك قد خر مستلقياً وشق وجهه فلما أخبر الرسول بذلك قال : ذلك من مدد السماء .!! وما روى عن أبى داود المازنى حيث قال : تيممت رجلا من المشركين لأضربه يوم بدر فوقع رأسه بين يدى قبل أن يصل إليه سيفى . وهم يقولون إن الأمر فى قوله تعالى : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » أمر للملائكة بالضرب والقتال . ومعنى ذلك أن الله قد قضى بإنزال الملائكة للضرب والقتال .. !!

ويذهب البعض الآخر إلى أن الملائكة إنما نزلت لتثبيت قلوب المؤمنين وتقوية الروح المعنوية لديهم وأنهم لم يشتركوا فى القتال ويذكرون فى الاستدلال على رأيهم حججاً وأدلة كثيرة .

أولهما : أن الملك الواحد يستطيع إهلاك الكفار جميعاً فى لحظة واحدة فلماذا ينزل الله لقتال الكفار ألفاً من الملائكة ؟

وثانيها : أن الله لو قدر للملائكة أن تشترك فعلا فى القتال لما كان هناك مزية للمسلمين الذين اشتركوا فى هذه الغزوة . ولما كان هناك داع للأخذ بالأسباب العادية فى هذا الوجود حيث يأمر الله المسلمين بإعداد العدة للقضاء على الكفار فيقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

وثالثها : أن المعركة حينئذ ستكون بين فئتين : فئة قليلة وهم المشركون ، وفئة كثيرة وهم المسلمون بعد انضمام الملائكة إليهم إذ يصبحون ألفاً وثلاثمائة ، بل إذا نظرنا إلى ما جاء في سورة آل عمران حتى أن الملائكة قد زادوا فأصبحوا ثلاثة آلاف . ثم زادوا بعد ذلك حتى وصلوا إلى خمسة آلاف كما جاء في قوله تعالى : « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين». إذا نظرنا إلى ذلك وجدنا أن المسلمين مع الملائكة سيزيدون على خمسة آلاف وحينئذ لا ينبغي أن يقال : إن الفئة القليلة هي التي غلبت الفئة الكثيرة ..

ورابعها : أن الملائكة لو اشتركت في القتال بهذا العدد الكبير ثم انجلت المعركة عن قتل سبعين من المشركين فحسب لكان هذا موقفاً مخزياً لملائكة الله ولاعتبر ذلك نصراً للمشركين وهزيمة للملائكة والمسلمين . وبذلك يتبين لنا أن الملائكة لم تنزل للقتال وإنما نزلت لتثبيت القلوب وتقوية الإيمان ومما يزيد هذا المعنى تأكيداً قول الله تعالى : « وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم» أي وما جعل الله إمدادكم بالملائكة ليساعدوكم باشتراكهم في القتال وإنما جعله الله للبشرى لكم بالنصر ولتسكن وتطمئن بهذا الإمداد قلوبكم حيث تدركون أن الله معكم فيزداد إيمانكم وجهادكم ويتحقق النصر بأيديكم ، ويكون الأمر في قوله تعالى : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان »أمراً موجهاً إلى المؤمنين وليس موجهاً إلى الملائكة. ويصبح المعنى المراد من الآية : إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم بمعونتي فثبتوا أيها الملائكة ثبتوا الذين آمنوا وشجعوهم وأخبروهم بأن الله معهم وأنه سيلقي في قلوب الذين كفروا الرعب . وإذا كان الأمر كذلك فاضربوا أيها المؤمنون فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان .

وبهذا يتبين لنا - بما لا يقبل الشك والجدال - أن الملائكة إنما نزلت لتثبيت القلوب ولكنها لم تشترك في القتال .



٨ ـ « أزواج النبى »

يثير هذا الموضوع أهمية بالغة لدى العلماء والمفكرين من المسلمين وغير المسلمين . وذلك لما يبدو فيه من شذوذ يدعو إلى العجب وغرابة تدعو إلى التساؤل : متى كان نبى الإسلام يتميز عن غيره من المسلمين ؟ ويبيح لنفسه ما يحرمه على غيره ؟ ولماذا يكون عدد الزوجات محدوداً بأربع لجميع المسلمين وتقيد الزيادة عن واحدة بشروط خاصة وفى ظروف خاصة بينما الرسول وحده هو الذى يتمتع بحرية مطلقة فى هذا المجال ؟

وقد انتهز المفكرون من الأجانب هذه الفرصة وحسبوا أنها نقطة ضعف تشين محمداً صلوات الله وسلامه عليه فأخذوا يوجهون سهامهم المسمومة ويطعنون خلق الرسول ويشوهون من تاريخه الحافل بالفضائل ويقولون : إنه رجل تسيطر عليه الشهوة الجنسية وتملك زمامه ، وإنه حينما وجد أن تقييد عدد الزوجات بأربع لا يطفىء غلته ولا يرضى إربته أطلق لنفسه العنان كما يشاء فجمع إلى عصمته هذا العدد الضخم من النساء .

وكان من واجب المسلمين الذين يتصدون للكتابة عن تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجلوا غواشى الشك فى مثل هذه النقطة الغامضة حتى لا تضل فيها الأفهام وتزل بها الأقدام . وقد نشطوا لذلك — والحمد لله — على توالى الأزمنة والعصور وبينوا الدوافع القوية التى كانت تحيط بزواج الرسول صلى الله عليه وسلم من كل واحدة من زوجاته الكثيرات ، والتى كانت تجعل هذا الزواج هادفاً إلى المصلحة العامة دون سواها ، وأقاموا حججهم على دعائم قوية من المنطق السليم .
فتتبعوا تاريخ محمد وما عرف عنه من العفة والزهد فى متاع الدنيا وزينتها . والطهارة الكاملة فى كل فترة من فترات حياته بشهادة أعدائه قبل أصدقائه ، وكيف مرت عليه فترة الشباب الحرجة دون أن يتزوج ، ولم يعرف عنه خلال هذه الفترة ما عرف عن الكثير من أترابه ولداته من النزق والطيش والانحراف العابث ، بل كان فى كل أحواله وظروفه مضرب المثل فى الخلق الكريم والمسلك القويم .
وبعد أن تزوج من السيدة خديجة — وكانت قد بلغت الأربعين وهو سن يعف عنه الكثير من الشباب — كان محمد صلوات الله وسلامه عليه راضياً بها ومطمئناً لها وسعيداً بالمعيشة معها لأنه لايطلب من الزوجة إلا الإخلاص والوفاء وقد وجد فى زوجته خديجة الغاية

المرجوة من الإخلاص والوفاء . وهكذا ظل الرسول صلى الله عليه وسلم مع زوجته خديجة حتى بلغ من العمر خمسين عاماً . ثم توفيت السيدة خديجة فتزوج الرسول سائر نسائه فى العقد السادس من حياته .

وفى مثل هذا العمر تضعف الغريزة الجنسية حتى لدى الأشخاص العاديين الذين لا يرهقهم التفكير فما ظنكم بمن حمل الأمانة الكبرى ووسدت له الإمامة الكبرى ومن استغرقت رعيته وأمته كل دقيقة من تفكيره وكل لحظة من لحظات حياته ؟ وماذا يمكن أن يبقى له من الطاقة حتى يصرفها فى ملذاته أو يقسمها على سائر زوجاته ؟

ولكن هذا المنطق السليم لم يقنع هؤلاء السادرين فى الغى والضلالة فظلوا على موقفهم من نبى الإسلام يطلقون حوله التهم الكاذبة والأراجيف الباطلة ، فماذا يمكن أن يقال لهؤلاء مادام الحقد على نبى الإسلام قد أكل قلوبهم ؟

ألا إننا سنقول لهم ويحق ما نقول :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
ويشتكى الفم طعم الماء من سقم

إننا نقول لهم ذلك ماداموا لا يؤمنون بالقضايا المنطقية ، فإذا تجاوزنا ذلك كله فليس يعيبنا أن نقول : إن هذه خصوصية للرسول صلى الله عليه وسلم وقد أباح الله له ذلك تأليفاً لقلوب القبائل التى يتصل بها برابطة النسب وحتى لا ينحصر شرف الاتصال بنسب رسول الله فى دائرة محدودة ، وحتى ينتشر الإسلام فى أكبر عدد من قبائل العرب ممن يرتبطون بمصاهرة الرسول ..

وحينما نزلت الآية الكريمة التى تقول : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » حينما نزلت هذه الآية كان لابد من تطبيقها على جميع المسلمين عدا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان من يدخل فى الإسلام يطلق ما يزيد على أربع من زوجاته إن كان تحت يده عدد أكبر حتى أن غيلان الثقفى أسلم وتحته عشر نساء فتخلص مما زاد على أربع منهن .

وسواء أكانت هذه الآية قد نزلت قبل أن يزيد عدد نساء الرسول عن أربع أو نزلت بعد أن زاد عددهن فإن الثابت أن الرسول قد ظل غير مقيد بعدد خاص حتى نزل قول الله تعالى : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج » فلم يتزوج الرسول بعد ذلك وحينما لحق بربه كان فى عصمته تسع نساء فماذا عسى أن يكون موقف الرسول من هؤلاء الزوجات ؟

إن أزواج الرسول هن أمهات المؤمنين أنزلهن الله هذه المنزلة السامية وقال سبحانه : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » . وقد جعل الله من كرامة الرسول

عنده ألا تتزوج واحدة من نسائه من بعده فقال سبحانه : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيما ». وإذا كان الله قد حرم على نساء الرسول أن يتزوجن من بعده فكيف يطلق الرسول النساء الزائدات عن الأربع ويقضى عليهن بالترمل أبداً بينما يباح الزواج لأية امرأة إذا طلقها زوجها ؟

إن من حق زوجة الرسول وهى أم المؤمنين أن تظل طول حياة الرسول لابسة هذا الثوب الكريم الذى جمّلها الله به تعويضاً لها عما يمكن أن يصادفها من حرمان لا تتعرض له غيرها من سائر زوجات المسلمين بعد وفاة أزواجهن وقد قضى الله بذلك حيث قال لرسوله : «لايحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن » فهذه الآية تقضى بألا يزيد الرسول عدد زوجاته وألا يبدل زوجة بأخرى مهما كانت الظروف والأحوال.

ونعود فنقول لهؤلاء المرجفين الذين يتهمون النبى صلى الله عليه وسلم بأنه رجل شهوانى : رويدكم أيها المضللون وحسبكم «إن الرجل الشهوانى لا يطيق أن يصبر على عدد معين من النساء لأنه يرى لذته فى أن ينتقل من زوجة إلى زوجة فيقضى مع كل واحدة وقتا من الزمن ثم يبحث عن أخرى ليقضى معها الوقت الذى يليه فترى الرجل منهم إذا أراد أن يتزوج بامرأة أعجبه حسنها وكان تحت يده أربع نساء يطلق الرابعة ثم يتزوج من يشاء وتظل هذه العملية تتكرر كلما صرخ سعار الشهوة فى نفسه وبهذه الطريقة كان يستطيع أن يتزوج بالعشرات من النساء ، بينما لا يزيد عدد من يظللن فى عصمته عن أربع نساء .

وهكذا يسفر الصبح لذى عينين . وتظهر لنا ساحة الرسول صلى الله عليه وسلم مبرأة من الشوائب والعيوب بعيدة كل البعد عن الشهوات الدنيا متوجة بالطهر والعفاف ومكارم الأخلاق .

* * * *

وبعـد ، فهذه بعض القضايا من السيرة النبوية وهى تلك التى تعرضت للأباطيل والمفتريات وباء بإثمها بعض الناس سفها وبغير علم أو كذبا وبهتاناً وارضاء لقلوبهم الجاحدة ونفوسهم الحاقدة .. ولا يزال الكثير من قضايا السيرة النبوية فى حاجة إلى توضيح وتصحيح. وأسأل الله أن يوفقنا لأداء هذا الواجب حتى يعرف الأعداء والأصدقاء مدى ما تزخر به هذه السيرة العطرة من القيم الإنسانية والمثل الأخلاقية .

هذا ومن الله العون وبه التوفيق .

محمد الطيب النجار

عضو المجمع

دور مؤسسات التعليم العالى في التدريب والبحوث في مجال الدراسات الإسلامية

للدكتور حسن الفاتح قريب الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله عدد كمال الله وكما يليق بكماله .

الفاتحـــة

هـــذا بحث تناولت فيه المفهوم الحقيقى ثم العرفى للدراسات الإسلامية ، وقـــد أوضحت فيه أن الإسلام باعتباره نظاما شاملا لكل شئون الحياة — كان قد جعل كل العلوم الإنسانية فرض كفاية ، غير أن البعض أخيرا جعل للدين علوما وللدنيا أخرى ، ثم عاد فجرد ماتبقى من علوم الدين — مما كان لها من روح وما أريد لها من عمل فصارت تبعاً لذلك دراسات أكاديمية نظرية . وتناولت كذلك تحديد مفهوم التدريب والبحث فى مجال الدراسات الإسلامية العرفية خاصة والإنسانية عامة وقد صنفت تبعا لذلك العلوم الإسلامية من حيث التدريب إلى قسمين نظرى بحت وعمـلى . ثم فصلت القــول فى الدور الذى ينتظر من مؤسسات التعليم العالى فى التدريب والبحوث من حيث اختيار الأستاذ وتأهيلة داخليا وخارجيا ، وتوفير مايحتاج إليه من كتب ووسائل أطلاع ونشر ومناخ علمى ودينى ، يمكنه من أداء مهمته.

---

* ألقى فى الجلسة السادسة يوم السبت ٢٦ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٤ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م .

وتحدثت عن المناهج الحالية وبعدها عن الفكر الإسلامي واقترحت تعديلا لها يناسب حاجة البلاد ووضعت تصورا يعين الدولة على سد حاجتها من القوى العاملة في شتى مجالات الحياة وأبنت كذلك أهمية الجانب الروحي والعملي والإنساني والصحي والإداري .

والله ولي التوفيق .

* * *

الباب الأول

مفهوم الدراسات الاسلامية

(أ) المفهوم الحقيقى للدراسات الاسلامية :

الإسلام كما هو معلوم ، منهج شامل متكامل للحياة ينظم شئونها العلمية والعملية والسلوكية ؛ وهو يتولى الفرد تربية وتدريبا وسلوكا من حيث كان نطفة إلى أن يلقى الله فى دار البقاء حيث الجزاء المناسب ، لاعلى العمل .. بل بالفضل أو العدل ، (وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) .

والإسلام الذى حث على التعليم فى أول آية أنزلها على رسوله عليه الصلاة والسلام ، هو الإسلام الذى ربط التعليم بالتقوى ، حيث قال (واتقوا الله ويعلمكم الله) . . ووصل بين الرفاهية التى ينشدها الفرد وبين ذكره تعالى فقال : (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكى ، ونحشره يوم القيامة أعمى) ووعد بتذليل كل عقبة يقابلها الفرد فى علم أو تدريب أو غيره إذا ما التزم بمراعاة الخالق وتقواه . وتأسى بالرسول صلى الله عليه وسلم وأطاعه وأحبه وعن كل ذلك يقول المولى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) ويقول (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) ويقول (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ، يقول (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) ويقول (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين)

والإسلام بالإضافة إلى ماتقدم هو دين التربية العملية ، الذى يجعل مهمة الإشراف على كل عمل تدريبى يقوم به الإنسان هو للمولى أولا ، ثم للرسول ثانيا ، ثم لجماعة المؤمنين ثالثا ، حين يقول : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) .

الإسلام بهذا المفهوم هو البوتقة العامة لا لعمل الأفراد مجتمعين ، وإنما لعمل كل فرد على حدة ، إذ يقول تعالى : (لقد أحصاهم وعدهم عداً وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) . . ومن ثم أجمع العلماء على أن تعلم كل علم نظرى أو عملى فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ،

بل لقد رتبوا العلوم جمعاء حسب أهميتها وفق معيار دقيق ، وميزان حساس ، يستطيع به الناس فى كل عصر أن يميزوا بين ماهم فى حاجة ماسة إليه ، وبين ما يمكن استغناؤهم عنه ولو مؤقتا . وقد بلغ من عدلهم وإنصافهم ومساواتهم فى العلوم ، أن حكموا على أهمية كل علم منها وفق النفع الذى ينتظر منه . . فما كان أكثر نفعا ، وأدوم زمنا هو الذى يتولى الصدارة ، وكمثال على ذلك قالوا إن كان علم الطب إنما ينتفع به عملياً لا وقائيا ، فى فترات الأمراض خاصة فأن علم الفقه إنما ينتفع به عمليا فى فترات الصحة والمرض ، وفى الحياة العاجلة والآجلة ، ومن ثم كان من الطبيعى أن يمنحوه هو وعلم العقيدة الصدارة ، وقد جاء عن الأخير قولهم :

أول واجب على من كلفا
ممكنا من نظر أن يعرفا
الله والرسل — بالصفات
مما عليه نصب الآيات

ذلك هو المفهوم الحقيقى للدراسات الإسلامية ، وقد بنى عليه العلماء فتواهم — بتحريم موقف من يقبح فى نظر الناس علما ولا لشىء إلا لأنه يجهله ، أو يقع خارج دائرة معرفته وإدراكه . وحصر بعضهم المعرفة على أختلاف أنواعها فى أمرين ، حيث قال ، العلم علمان : علم الأديان ، وعلم الأبدان ؛ وكلاهما علوم إسلامية . على أنه قد مر على الناس حين من الدهر أخرجوا منه ، عن نطاق العلوم الإسلامية كثيرا من المواد ، كالطب بأنواعه ، والهندسة ، والزراعة ، والبيطرة ، والعلوم ، والفلك ، والاقتصاد ، والفن ، وغيرها وها هم أولاء بأنفسهم ، وبعد أن اكتمل وعيهم الإسلامى يشهدون مولد الكليات والشعب الإسلامية لكثير من المواد التى ظنوا أن بينها وبين الإسلام ردماً لايستطيعون أن يظهروه ولايستطيعون له نقباً ، ولكنها رحمة الله وقد غشيت الأمة الإسلامية فى عهد صحوتها ، وجعلت الردم دكا وكشفت عن العلماء غطاءهم فإذا بهم يلحقون بالركب الإسلامى ، ويتصدر بعضهم بتقواه وعلمه ركب من سبقوه فيه محققا بذلك قوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) هذا وأنا إذ أكتب الآن عن مفهوم الدراسات الإسلامية لن أتعدى فى بحثى هذا دائرة — الحجر العلمى أو الحبس العرفى الذى كتب على الدراسات الإسلامية أن تنزوى فيه حتى يقيض الله لها من يحررها منه ، ويفتح لها المجال لتنتظم كغيرها فى الميدان الفسيح للحياة .

(ب) المفهوم العرفى للدراسات الاسلامية :

ينحصر المفهوم العرفى المؤقت للدراسات الإسلامية فى دائرة مواد بعينها ، يدور معظمها حول مايحتاج إليه الناس فى المفهوم

الضيق لمعرفتهم بالله وعباداتهم له وفيما يعرف بالأحوال الشخصية ، ويبنون على ذلك موقفهم من أمر التدريب وأماكنه فهناك من ينكر صلة التدريب بالعلوم الإسلامية ، وهناك من يجعل الزوايا له مكانا ، والسبحة له أداة ، وقد يشترط بعضهم لأكمال مظهر التدريب وربطه بالبيئة لبس الزى القومى له ، من جلابية وعمة وغيرها . لقد أماتوا بهذا المفهوم دين الله ، وأشتركوا مع غيرهم فى البكاء عليه ، وانتحوا أخيراً عن الدين ومؤسساته وأعلامه جانبا ، فلم يعودوا يتذكرون الدين إلا حين يستمعون إلى خطبة أو موعظة أو يرون شيخا تقياً أو رجلاعالما .

(ج) التحديد العرفى للمواد الاسلامية :

تكاد المواد المذكورة أدناه — تكون هى الممثل الشرعى للمواد الإسلامية فى عصرنا الحاضر أعنى :

١ — القرآن وعلومه .

٢ — التفسير .

٣ — الحديث وعلومه .

٤ — الفقه ، وما يتصل به من أصول وتأريخ تشريع ، وفقه مقارن وما إلى ذلك .

٥ — العقيدة وما يتصل بها من علم الكلام ، والفرق الإسلامية ، والملل والنحل .

٦ — التصوف وما يتصل به من علم الأخلاق والفلسفة .

وقد يلحق بالمراد أعلاه أو يحذف منها أحيانا مواد أخرى مثل :

١ — التأريخ الإسلامى ، بما فى ذلك السيرة النبوية الطاهرة والآثار .

٢ — الاقتصاد الإسلامى .

٣ — الفن الإسلامى .

٤ — الأدب الإسلامى

(د) مفهوم التدريب :

لا أخال هناك من ينكر أهمية التدريب وفائدته ، غير أن الناس قد يختلفون فى مفهوم التدريب فيصف البعض أقسامه بما يتناول التدريب :

١ — الفكرى .

٢ — العملى ويشمل الرياضيات بأنواعها.

٣ — الروحى ، ويشمل الخلق والسلوك .

٤ — الفنى ويشمل كل مايكسب المهارة ، والدربة ، والدقة ، واكتساب التجارب سواء أكان ذلك عن طريق الموهبة الذاتية ، أو المكتسبة أو المساعدة من الآلات وما شاكلها .

ويصنف آخرون التدريب بجعله قاصراً على الناحية الفنية فقط ، ولكنهم مع ذلك

يعودون فيخرجون منه الدربة الفنية التى يكتسبها المدرس من درسه ، والتاجر من عمله ، بل إنهم ليضيقون نطاق التدريب أحيانا فيبعدون عنه كل تدريب لاتكون الآلة فيه طرفا ، وكأنهم بذلك يقسمون العلوم إلى :

١ – علوم نظرية بحتة .
٢ – علوم عملية غير آلية .
٣ – علوم عملية آلية .

ويحار أصحاب هذا الاتجاه فى تصنيف العلوم النظرية التى بدأ أصحابها يستخدمون الآلة لتطوير الأداء فيها مثل علوم الاقتصاد، والتجارة ، واللغات ، بل والقرآن الكريم أيضا الذى أدخل هو والحديث النبوى فى مجال الحاسوب (الكمبيوتر) فجاءت النتائج الأولية فيها مدهشة معجزة .

ويتردد البعض كذلك فى تصنيف أصحاب الخبرة الفنية ممن يستخدمون آلات محلية أو غير عصرية ، وغالبا مايطلق على هؤلاء أصحاب الصناعات القومية .

أخلص من كل ماتقدم بأن مفهوم التدريب ليس موضع اتفاق بين العلماء إذ لا يوجد حد فاصل يميز بين العلوم[1]. وبناء عليه فسأستخدم لفظ التدريب فيما يلى فى كل ممارسة عملية وسأصنف المواد الإسلامية العرفية السابقة تحت ماهو نظرى بحت ، وما هو عملى سواء أكان خالصا أم مشتركا، مستخدما فى ذلك المنهج الإسلامى فى المعرفة الذى يخالف فى كثير من قضاياه المنهج الأرسطى حيث أن الأول يُتيِحُ للتجربة مكاناً لاتتيحها له الحضارة اليونانية التى أنتجت المنطق الأرسطى[2] .

(هـ) مفهوم البحث :

البحث العلمى هو الجزء الخلاق ، والمبدع فى العمل الجامعى ، وهو الذى يعمل على تنمية المعرفة ، وإثراء الفنون الإنتاجية ، وزيادة رصيد التراث العلمى الحضارى للإنسانية ، وهو الذى يمهد الطريق لعملية التقدم والتطور فى شتى المجالات الاقتصادية والاجتماعية، والحضارية علما بأنه إذا توقف البحث العلمى أصيبت جميع جوانب الحياة بالجمود ، والتصلب وعجزت المجتمعات عن تحقيق أى تطور أو تقدم . . . وهو جزء مهم وحيوى من

---

(١) دكتور محمد حمدى النشار : الإدارة الجامعية التطوير والتوقعات ، طبع الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية بالقاهرة ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م صفحة ٢٦٢ .

(٢) الدكتور على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ص ٣٨٠ .

رسالة مؤسسات التعليم . . به تتحسس طريقها نحو العمل الأفضل فى المستقبل ، وبه كذلك تتوصل إلى صواب أو خطأ تجربتها فى الماضى . . إنه المعيار الذى يعتمد عليه العلماء فى تنمية أفكارهم ؛ وهو الوسيلة التى يقتصدون بها من توزيع جهدهم وتشتت أفكارهم ، والتثبت من فعالية أدائهم ، والبحث كما يحتاج إليه العالم العملى يحتاج إليه العالم النظرى أنه النور الذى لايكاد يخلو منه ميدان ولا يستغنى عنه إنسان. هو الفكر الإنسانى مجسداً ، والجهد انطلاق ماثلا ، أمام العيان . . . إنه العمود الفقرى ، والركن الأساسى فى قوام كل جامعة أو معهد ، أو مؤسسة أو غيرها . . . ولئن أمكن أن تستغنى الجامعات عن عملية تدريس الطلاب فإنه لايمكنها بحال الاستغناء عن البحث . . بل إنه إذا انحرف الفكر ، وفقد ثقته فى جدوى البحوث ، إحتاج فى إثبات دعواه إلى بحث . . ومن ثم كان البحث لازما لكل مؤسسة علمية ، سواء أحسن القائمون بها إدارتها، أو أساء الإداريون بها توجيهها .

على أن نجاح بحث – أى بحث – جامعى أو فوق جامعى ، يحتاج إلى تعاون وثيق بين العلماء ذوى التخصص المشترك من ناحية ، وبينهم وبين الإدارات المسئولة عنهم من ناحية أخرى . وهو كذلك يحتاج إلى إعداد الباحث باعتباره إنسانا ، متكامل البناء عقلا وروحا ، بحيث يكون مسلحا بالعلم والمعرفة متحليا بالخلق والقيم ، مجسدا للمعرفة المثلى فى منهجه ، وسلوكه ، ومعاملاته ، مدربا على الخير وحسن تصريف الأمور . وعلاج القضايا ، والمشاكل . متخذا له فى الحياة أسوة وفى الطريق منارا ، وللدرب غاية ، مدعما مسيرته الخيرة بمرشد تربوى ، ومارب إعدادى ، وصحبة تحبب إليه عزائم الأمور ، وتصرفه عن سفاسفها ، مدركا أن العلم مهما سمت مكانته ليس مقصودا لذاته بل لما يؤدى إليه من كل مايدخل فى الإطار العام الذى حدده المولى بقوله : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

البحث فى حقيقته تسجيل كتابى لفلسفة تربوية هدى إليها الدارس إما إلهاما أو إرشادا ، إذ العلم الإنسانى كما يقول الفلاسفة[1] إنما يحصل عن طريقين أحدهما التعلم الإنسانى ، وهو الطريق المعهود ، والسلوك المحسوس الذى يُقرُّ به جميع العقلاء .

الثانى التعلم الربانى أو اللدنى الذى أشار إليه المولى بقوله : (وعلمناه من لدنا علما) ، وهو الطريق العلمى الذى سلكه

(١) راجع رسالة حى بن يقظان واسال وباسال لابن سيناء والرسالة اللدنية للغزالى ص ١٦ – ١٧ والأحياء ج ٣ ص ١٩ ومناهج البحث عند مفكرى الإسلام للدكتور على سامى النشار الصفحات ٣١٧ – ٣٥٢ والصراع الفكرى حول الفلسفة للدكتور حسن الفاتح طبع دار الجيل بيروت .

الانبياء والرسل والأولياء ، ولهذا الطريق منهجان يتم الوصول إلى المعرفة فى أولها عن طريق التعلم الذى يشبه فى بعض جوانبه ماسبق أن ذكرناه بينما يركز المنهج الآخر على التفكر . . والتفكر فى الباطن كما يقول الإمام الغزالى فى (الرسالة اللدنية[1]) — بمنزلة التعليم فى الظاهر ، فإن التعليم استفادة الشخص من الشخص الجزئى والتفكر أستفادة النفس من النفس الكلى ، والنفس الكلى أشد تأثيرا ، وأقوى تعليما من جميع العلماء والعقلاء ».

هذا وبما أن الإسلام هو تناسق بين النظر والعمل، يقيم نظرية فلسفته فى الوجود، ولكنه يرسم أيضا طريقا للحياة العملية — فإنه بهذا الاعتبار يخالف المنهج الأرسطى الذى يقسم المعرفة إلى نظرية وتجريبية . إنه كما يقول الدكتور على سامى النشار — منهج استقرائى يقوم على التجربة ، وتنظمه قوانين الاستقراء ، ومن ثم فإنه هو لاغيره المعبر عن روح الإسلام مادام يعتمد على التجربة ، والتجربة هى إحدى ركائز الإسلام الأساسية[2].

(و) تصنيف العلوم السابقة من حيث التدريب:

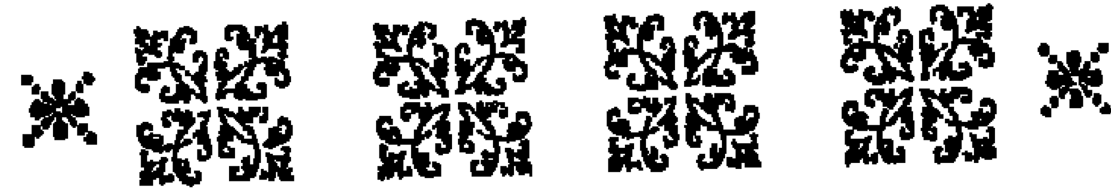
هذا والعلوم السابقة ولئن صنفت تحت مايصطلح عليه باسم العلوم النظرية فإن بعضها يشتمل على جوانب عملية وعلى الأخص مادتى الفقه والتصوف ، فقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يصلوا كما رأوه يصلى ، ودعاهم إلى ممارسات عملية فى الحج ، وفرض عليهم بناء على التوجيه الألهى صيسام شهر كامل ، ودعاهم إلى صيام غيره من الأيام ، كما دعاهم إلى معاونة بعضهم البعض فى كل عمل يقومون به ، حتى لقد بلغ من عدل الإسلام ومساواته بين الناس أن أمر بمعاونة الخدم أو العمال أيا كان نوع العمل الذى يؤدونه ، فقال إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه وليلبسه من لباسه ولاتكلفوهم مالا يطيقون فإن كلفتموهم فاعينوهم . وقد صنف رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذه الأعمال فى باب العبادة واعتبرها صدقة ، وأسماها المتصوفة فتوة وجعلوا ممارستها واجبا على المريد أداؤه بأقبال وحب وشغف ، وتأسوا بأفعال الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يحفر مع أصحابه الخندق ، ويجاهد معهم الكفار ، ويصعد وينزل من غار

---

(١) الغزالى : الرسالة اللدنية ص ١٦ — ١٧ .

(٢) الدكتور على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ، واكتشاف المنهج العلمى فى العالم الإسلامى ، طبع دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٥ م ص ٣٧٩ — ٣٨٠ .

حراء ، ويطوف ويسعى ، ويهرول بين العمودين الأخضرين لتأكيد قوة المسلم وصلابته وتدربه العملى على المشاق ، وسمح الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين بالإشارة بالآلة لتقبيل الحجر الأسود ، واعتبر حجهم متوقفا على الوقوف بعرفات وحبب إليهم صعود جبل الرحمة، وأمرهم برمى الجمرات وأجاز للمرضى والزمنى وغيرهم أن يطوفوا ويسعوا وهم على الآلات محمولون ، وجعل وسيلة التحلل من شعائر الحج أستخدام الآلة للحلق ، وربط ذلك بالعبادة ، وحذر من لايعمل بالآلة أو بغير الآلة من أن يجئ يوم القيامة وفى وجهه نكتة المسألة وروى عنه أنه قال كل عمل الخير صدقة .



الباب الثانى

دور مؤسسات التعليم العالى
فى التدريب والبحوث
وفق التصور السابق

مدخل :

إن الدولة وقد أنشأت للبحوث مجالس قومية، وللتعليم العالى مؤسسات تربوية ، وللتدريب أقساما فنية فإنها بهذا المفهوم لا تحصر خدماتها فى ميدان خاص ، وإنما تفتح نفسها على المجتمع لتؤدى من خلال كل مؤسساته –بالتنسيق المشترك بينها– ما يناط بها من دور ، وما ينتظر منها من واجب .

ومعلوم أن مجال الدراسات الإسلامية – كغيره – مجال واسع يقوم فيه الكل بأداء دوره سواء أكان أستاذا بالجامعة أم باحثا بغيرها ، وسواء أكان طالبا بذات الميدان ، أم راغبا فى العلم بخارجه، وما قيل عن البحث يقال عن التدريب ، إذ هو كغيره ليس قصرا على جهة دون جهة ، ولا على عمل دون آخر ومن ثم فإن ما ينتظر من الدولة أداؤه ينحصر بإيجاز فى الميادين الآتية . الميدان العلمى ، الميدان الروحى ، الميدان الصحى ، الميدان العملى ، الميدان الترفيهى ، الميدان الإنسانى الميدان الإدارى .

١ – الميدان العلمى :

(أ) اختيار الأستاذ أو الباحث :

يتصدر ركب هذا الميدان الدقة فى اختيار الأستاذ المتخصص المؤمن بربه ، العامل بدينه ذلك أن الأستاذ هو كنز التعليم العالى الحى ، وقلبه النابض الداخر بالمعارف والخبرات ، الذى يستطيع – إن أخلص – أن يبذل من ذات نفسه بما يجعل التعليم العالى ناجحاً ومحققا للغرض المنشود منه فى الداخل والخارج .

والأستاذ بما له من وسع إدراك وتفتح ونفاذ بصيرة ، وفكر ثاقب ومعرفة واسعة وخبرة فنية – يستطيع أن يوسع على طلبته وأمته آفاق المعرفة ويكشف لهم عن الكنوز العلمية بما يلائم حضاراتهم وتطلعاتهم خاصة فى ظل الشرع الإسلامى ليواكبوا الحضارة العالمية ويسهموا فيها بنصيب تفخر به الأجيال ويعتز به الخلف .

والأستاذ كذلك هو حجر الزاوية فى هيكل البنـــاء العلمى لمؤسسات التعـليم العالى . . عليه يعتمد نشر المعرفة وتعميم الثقافة العامة واشاعة السلوك العلمى والتفكير المنطقى ، وبه تنهض مؤسسات التعليم ، ويرتفع البناء الحضارى للأمم . . وهو بالإضافة إلى ماسبق النموذج الحى للسلوك المثالى الحسن ، وهو القدوة الصالحة للمجتمع

فى مجال القيم الخلقية ، والتربية السلوكية .

إن اختيار الأستاذ الصالح يعنى اختيار الجيل الصالح ، وبناء الأمة السليمة التى أراد لها المولى أن ترث الأرض ومن عليها إنه العلم والتربيةُ والخلق والإحساس والشعور . . إنه الأنسان الذى يتفاعل مع ربه ، مدركا حقيقته كعبد له وخادم ، ومع الخلق مدركا دوره معهم كأخ لهم يرحم صغيرهم ، ويواسى كبيرهم ، ويعين ذا الحاجة منهم . . . إنه الفرد الذى لايدخر فى العبادة لله طاقة ، ولا فى التعامل مع البشر جهدا . . إنه المعلم الذى يدرك أن التربية ليست كلمات يلوكها ، أو ألفاظا ينمقها ، أو أقاويل يؤلف بينها ، أو أفكاراً يرتبها ، ولكنها بالأضافة إلى كل ذلك سلوك ومنهج حياة ، وسيرة عملية يراعى فى كل مرحلة منها خالقه الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

إن تأهيل الأستاذ ينبغى أن يراعى فيه الكفاءتين العلمية والعملية ، إذ التعلم الاستثمارى العام هو تعليم يتعدى ذات الفرد إلى غيره . . هذا والتأهيل المطلوب لاتحده شهادة أو تعوقه ترقية ، فإن احتاج إليه الباحث وهو فى أول طريقه للإعداد والتدريب ، فإن الأستاذ ، والأستاذ المشارك وغيرهم يحتاجون إليه لمتابعة التطور ومواكبة التقدم — سواء أكان ذلك عن طريق الأجازات الدراسية أو الزيارات العلمية أو الدراسات الميدانية أو التبادل الثقافى ، أو غيره .

(ب) تأهيل الباحث :

لئن كان التعليم الجامعى ، أو مايقاربه — هو القدر المشترك بين كل المؤهلين فإن الأعداد المطلوب فى مؤسسات التعليم العالى هو مايسمو على ذلك القدر ويفوقه ، سواء أكانت نتيجته دبلومات أو اجازات أو ماجستير أو دكتوراه أو أستاذيه أو متابعة للتقدم ومواكبة للتطور ، أوغير ذلك .

والإعداد للأستاذ كما يكون فى البيئة الأصلية أو المماثلة ، يكون كذلك فى البيئات العلمية والحضارية والمناخية والدينية المختلفة علماً بأن للإعداد أياكان داخليا أم خارجيا منافعه ومضاره .

(ج) فوائد الأعداد الداخلى :

١ — معايشة الباحث للبيئة المحلية التى يتفاعل بها ومعها ، إذ الباحث المبتدىء الذى ينفصل عن بيئته ، ولايتعرف عليها إلا عبر الدراسات الميدانيـــة القصيرة والزيارات العلمية ، هو باحث ناقص الثقافة ، قليل الخبرة ، ضعيف المحصول العلمى ، فج المعلومات .

٢ — معالجة الباحث لقضايا الوطن ، حيث أن وجوده به يجعله أكثر إحساسا بما تعانيه أمته من مشاكل ، وما يلائم طبيعة أهله لها من حلول .

٣ – ثبات الباحث على عقيدته ونهجه السلوكي المستقيم ، حيث أنه في وطنه لايتعرض لتحد فكرى أو سلوكى ، يحيد به عما ألفه مما ينكره دينه وعدم تعرضه للفتن التي ألفتها المجتمعات غير الإسلامية مثل الجلوس فى مجالس الخمر ، وروئية الفتيات العاريات ، وتعرضه للمطعومات المحرمة أو المكروهة .

٤ – سهولة ممارسته لأداء الصلوات التي يجد الباحث مشقة فى أدائها ، – والاستعداد لها فى المجتمعات غير الإسلامية .

٥ – إنصرافه عن المغريات المالية التى ربما دفعه إلى التفكير الجاد فيها مايجده بالخارج من مظاهر الترف والبذخ التي يستمتع بها معظم الأوربيين .

٦ – هذا إلى أن التجربة التى يخوضها الوطن فى سبيل إعداد الباحثين تكسبه خبرة ودربة وتمكنه من مسايرة التطور العلمى بإعداد الوسائل التى تسهل على الباحث أداء مهمته . . أضف إلى ذلك أن وجود الباحثين بالبلاد ، وتنوع خبراتهم وأبحاثهم وفنهم تمكن الوطن من الأستفادة منهم فى شتى مجالات المعرفة فكرا وأداء .

(د) فوائد الاعداد الخارجي :

١ – متابعة التطور العلمى والفكرى عن كثب .

٢ – توثيق العلاقات الشخصية والعلمية والثقافية مع المؤسسات العلمية .

٣ – التعرف على المشاكل التى تعانى منها المجتمعات غير الإسلامية ومتابعة وسائل معالجتها توسيعا للمدارك .

٤ – إكتساب لغة جديدة أو التعمق فيها لمن سبق لهم إلمام بها .

٥ – الأحتكاك بالأفكار المناوئة للأديان عموما وللإسلام خاصة .

٦ – تبليغ الدعوة الإسلامية لغير المسلمين عن طريق القدوة الحسنة أو الفكر الثاقب النير ، أو الأحتكاك الثقافى المثمر .

هذا ولكى يؤدى التدريب الخارجى الثمرة المرجوة منه للفرد وعقيدته من ناحية ، وللأمة التى يعايشها من ناحية أخرى ، أرى أن يسبق الأعداد الخارجي (كورس) مكثف أو دورة تدريبية قصيرة يلم فيها الدارس إلماما عاما بموقف الإسلام من القضايا التى تمس حياته ودينه من مثل :

١ – العقيدة الإسلامية واليهودية والنصرانية عامة .

٢ – طعام أهل الكتاب .

٣ – الأختلاط ومضارة وحدوده .

٤ – الزى المناسب للرجل والمرأة .

٥ – لحم الخنزير .

٦ – الخمر ومجالسها .

٧ – المراهنات والقمار .

٨ – أداء العبادات من صلاة بأنواعها ، وصوم بأنواعه ، وحج ، وزكاة بأنواعها وصدقة ، وخلق ، ومعاملة .

٩ – الزواج بالكتابية أو الكتابى (للمرأة) والمشركة أو المشرك (للمرأة) مع توضيح رأى الإسلام فى تعدد الزوجات .

١٠ – الفن وحدوده .

١١ – السلم والحرب والجهاد .

١٢ – الأقليات غير المسلمة فى بلاد الإسلام والأقليات المسلمة فى البلاد غير الإسلامية .

١٣ – الرفقة المأمونة للمرأة فى السفر وأثناء فترة البعثة .

١٤ – التوارث بين مختلفى العقائد .

١٥ – الشبهات التى تثار حول الإسلام مثل الرق والطلاق وغير ذلك .

١٦ – الحضارة الإسلامية فى الطب والهندسة والزراعة والفلك وغيرها

١٧ – التربية الوطنية .

هذا وأقترح أن تتولى مؤسسات التعليم طبع مذكرة مفهرسة بما تقدم وغيره مما قد يتعرض له الباحث أثناء غربته – لتكون مرجعا له ولغيره .

(هـ) الجمع بين المميزات السابقة :

هذا وحتى يمكن الجمع بين فوائد الإعداد الداخلى والخارجى ، نرى أن تعمل الدولة على إيفاد الباحثين أساتذة كانوا أم طلاب دراسات عليا – إلى الخارج ، فى بعثات ومهمات وزيارات عن طريق اللقاءات ، والمؤتمرات العلمية ، والاتفاقيات الثقافية ، وغير ذلك من الوسائل التى تخلق لهم بها قاعدة متينة يمكن الارتكاز عليها فى تبادل المصالح مع العالم الخارجى ، وتسهيل مهمة نشر الفكر الإسلامى ، والدعوة له ، بعد التعرف على احتياجات بيئات المطلوب هدايتهم للإسلام أما الذين ارتبطت مصالحهم الدينية أو الدنيوية ببقائهم خارج المجتمعات الإسلامية فأرى أن تعمل مؤسسات التعليم العالى على خلق صلات قوية بهم للاستفادة من خبرتهم ، وعلاقاتهم ، فى تهيئة المناخ المناسب ، لتحقيق مصالح الوطن الدينية والدنيوية .

(و) المكتبـــة :

المكتبة هى المصدر الرئيسى للبحث العلمى ، والمنبع الثرى الذى لايستغنى عنه أستاذ أو طالب دراسات عليا . بنمو المكتبة وتزويدها تنمو وتزداد المعارف والثقافات ،

وتتنوع وتتوسع المدارك والخبرات ، بيد أن المكتبة لكي تقوم بدورها لابد لها من

١ ـ الدعم المادى المستمر لميزانيتها ، والزيادة المطردة لعدد الكتب الموجودة بها . إما عن طريق الشراء أو التبادل ، أو الحصول على الهدايا العلمية ـ من المهتمين بنمو المعرفة وازديادها .

٢ ـ التنوع فى وسائل المعرفة التى تهيأ للباحث بحيث تضم المكتبة مايقرأ أو يسمع ، أو يرى ، أو يلمس .

٣ ـ الإعداد الفنى للعاملين بالمكتبة ، حتى يؤدوا دورهم أداء يتناسب وطموح الباحث مع مراعاة الزيادة المطردة فى عددهم ، فى حدود إمكانيات البلد الأقتصادية من ناحية ، والنسبة المطلوبة للعمل من ناحية أخرى .

٤ ـ أن ينظم العمل فيها تنظيما يناسب وقت الباحث وظروفه .

٥ ـ أن تهيأ تهيئة تناسب عدد الباحثين ، وقدراتهم الصحية والفنية فى الإستفادة من المكتبة على أن تخصص ماأمكن جناح خاص لكل باحث ، يودع فيه كتبه وأدواته وأوراق أبحاثه وغيرها .

٦ ـ الصلات العلمية بينها وبين باقى مكتبات العالم ، بحيث يتمكن الباحث بواسطة المكتبة من الإستفادة من التراث العلمي الموجود بالمكتبات العالمية الأخرى ، دون أن يضطر للسفر إلى البلاد المختلفة على أن يكون للمكتبة سجل خاص بمحتويات المكتبات المهمة فى العالم إن لم يكن بكل المكتبات الخاصة والعامة بالداخل والخارج. وقد يساعد فى إعداد مثل هذا السجل الشامل إلزام الحكومات للمواطنين بإيداع قائمة بأسماء كتبهم لدى المكتبة الوطنية أو دار الوثائق المركزية لتؤدى هـذه بدورها مهمتها فى تغذية الكمبيوتر بكل ما تحصلت عليه من قوائم بعد مراجعة تصنيفها .

(ز) وسائل النشر والاطلاع :

إن البحث الذى يبذل العالم فيه وقته وجهده وتبذل الدولة فيه طاقتها ـ حرى به أن يرى النور ويستفيد به الغير وتعم به الفائدة ولن يتأتى ذلك إلا إذا أكمل ـ المسئولون دورهم فهيئوا للكاتب وسائل النشر للبحث إن كان مقروءاً أو مسموعا أو مبصرا .وذلك عن طريق :

١ ـ توفير آلات الكتابة وأدواتها .

٢ ـ توفير وسائل الطبع والتصوير الآلى وأدواته .

٣ ـ الأعلام الفنى المستمر عن البحوث بعرض المؤلفات والحوار حولها ، وتسليط الأضواء على محتوياتها ، وتنظيم لقاءات مفتوحة مع الكاتب ، وتخصيص محاضرات وندوات حول بحثه .

٤ — النشر الواسع للبحوث بالبيع والإهداء والتبادل وغير ذلك .

(ح) المنهج :

إن أبرز أهداف البحث الإسلامى هو أن يكون دعامة أكاديمية ، وتخطيطا عمليا ينمو به فكر الأمة وعقيدتها ، ويرتقى به أداؤها ، فيه تلتقى الأفكار ، وتتصارع الآراء وتتفاعل التجارب ، فيثمر هذا وينتج ذاك أنموذجا متكاملا حيا لما يتطلع إليه العلماء ، وينشده الباحثون والمفكرون والخبراء ، وذلك عبر منهج علمى وعملى مدروس يراعى فيه :

١ — إمكانية التطبيق مع المرونة .

٢ — القدرات الفعلية والعلمية والفنية للمستفيدين من البحث .

٣ — الألتزام التام بمنهج القرآن الكريم والسنة المطهرة .

٤ — مراعاة ظروف البيئة كلما أمكن ذلك .

٥ — المعاصرة والأبتكار مع عدم الخروج عن الخط الإسلامى .

٦ — تحديد الأوليات وترتيب الموضوعات وفق الأهمية والحاجة .

٧ — تسليط الأضواء على المساهمة الإسلامية فى الفكر الأنسانى ، ورقى المخلوقات

٨ — الربط الوثيق بين المناهج الدراسية ومتطلبات التنمية الفكرية ، والروحية والعملية .

٩ — تنويع البرامج الدراسية بحيث تستطيع مواجهة القدرات والاستعدادات المتباينة .

١٠ — دعم البرامج الدراسية بالمقومات التى تتيح للباحث مواجهة الحياة العملية فى الحاضر ، والتكيف مع احتياجات المستقبل والمساهمة فى قيادة حركة التقدم والتنمية والتطور ، ومن أبرز هذه المقومات إثارة خيال الطالب الدارس وتحريك بواعث الخلق والابتكار فيه .

١١ — تنظيم برامج لتدريب الباحثين كل فى مجال تخصصه وذلك بمواقع العمل المشابهة خلال مدة الدراسة ، وفى العطلات الصيفية لتمكينهم من اكتساب المهارات وتوسيع المدارك والقدرات .

(ط) مثالب المناهج الحالية :

هذا ومناهج مؤسسات التعليم العالى الحالية أبعد ما تكون عن تحقيق رسالتها إن لم تكن فى بعض الأحيان معولا لهدم الفكر الإسلامى وتقويضا لشأنه ونسفا لأركانه فهى فى مجال الأدب النثرى والشعرى وتربى فى الطلاب النوازع الحيوانية وتثير الغرائز الجنسية وتبدع فى تجسيد مفاتن المرأة وتحبيب الخمر للناشئين ، وهى فى مجالى المدح تمدح كل عظماء الرجال لا تستثنى أحداً غير

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعطى نماذج لكل أثر فنى ونص أدبى لا تستثنى غير نصوص القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه السلام ، وتفتخر بكل شئ لا تستثنى شيئا غير الإسلام .

كما أنها فى مجال اللغة تقلل عمدا من مكانة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وتنادى أسوة ببعض المدارس بالاعتماد على الشعر الجاهلى بدلا عنه .

وينادى بعض أساتذة التاريخ فيها بما ينادى به الكفار ، ودعاة تفتيت الوحدة الإسلامية حين يصورون للشباب الدولة التركية مركز الخلافة الإسلامية ورمز الوحدة الدينية آنذاك ، بأنها دولة مستعمرة ، ناسين بأن وقوع الظلم من بعض أفرادها لا يبرر تفتيت وحدة الأمة الإسلامية الممثلة فى سلطانها ، ويفيض البعض فى الثناء على الحضارة الأوربية قاصرين دور الحضارة الإسلامية على مسائل حدثت فى القرون السابقة ، وكأنهم بذلك يبترون حاضر الأمة الإسلامية وحضارتها من ماضيها وتراثها.

ويغض المسئولون بمؤسسات التعليم العالى الطرف عن الجرائم النكراء التى يرتكبها علماء الآثار حين يكسرون عمداً الآثار الإسلامية بالسودان وغيره ، ويهللون فرحا وطربا للآثار النصرانية وغيرها ، مع علمهم بأن الصمت على مثل ذلك ، والاعراض عن رعاية الآثار الإسلامية سيمكن أعداء الإسلام من طمس كل أثر اسلامى للبلاد ويضفى عمدا الطابع النصرانى على بعض أجزاء الوطن الإسلامى .

وفى مجال التاريخ كذلك لا تعنى مؤسسات التعليم العالى بما تعرض له القرآن الكريم من حوادث تاريخية ، بل أن بعض أساتذتها ليصرف النظر عن القرآن الكريم ، بدعوى أن التواريخ الدينية لا تصلح أساسا للتواريخ العلمية ، وهى فرية (علمانية) ركلها العلماء المحدثون ، كما يؤكد ذلك العقاد فى كتابه أبو الأنبياء الخليل(1) :

وفى الجغرافيا لا يعنى المنهج بالآيات القرآنية ذات الطابع الجغرافى ، كما لا يعنى بعمل دراسة علمية يحدد فيها بالتعاون مع قسم التاريخ أماكن البلاد التى أشار إليها القرآن الكريم .

وقسم الفلك يزاور عن الدين ذات اليمين وذات الشمال ، متناسيا دوره فى تحديد

---

(1) العقاد : أبو الأنبياء الخليل صفحة ١٣٥ طبع سنة ١٩٥٣م وراجع الحياة العقلية فى ضوء الفلسفة الإسلامية للدكتور حسن الفاتح طبع مطبعة الأمانة بمصر سنة ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م والنظم والمظاهر الحضارية عند العرب للدكتور حسن الفاتح طبع دار الجيل ببيروت عام ١٩٩٠ م .

الشهور العربية ومنها (رمضان) وتحديد مواقيت الصلوات العادية وصلوات الخسوف والكسوف والاستسقاء، ودوره كذلك فى إحياء التراث الإسلامى فى الفلك وجمعه، وتصنيفه ودراسته دراسة علمية معاصرة، ودوره فى متابعة ورصد التقدم العلمى فى مجال دراسات الفضاء والاسهام فيه، ويصم المسئولون بمؤسسات التعليم العالى آذانهم عما يجرى من عبث وتحطيم للمثل والقيم فى دور السينما والمسارح، مكتفين بمشاركة الناس استنكارهم بالقلب واللسان، محجمين عن الإقدام على عمل إيجابى، يقدم للناس البديل ويدرب من يعملون فى مثل هذه الميادين ويثقفهم، بما يربطهم بدينهم وتراثهم وحضارتهم من ناحية، وبتقاليد مجتمعهم وأعرافه من ناحية أخرى، علما بأن (فيلما) واحدا غير هادف، أو تمثيلية ضالة قد تحطم أخلاقيا ما بنته مؤسسات التعليم العالى فى أعوام؛ واكتفى واضعوا مناهج اللغات بتنزيل مكانة الجامعات بما يجعلها أشبه بمدرسة إبتدائية أو ثانوية لتعليم اللغة بل وأسوأ من ذلك أن عمل هؤلاء على التركيز على حضارة الأوربيين متناسين بأن من الأغراض الأساسية لإنشاء مثل هذه الشعب هو أن، تكون أداة لتبليغ رسالة الإسلام شفويا وكتابيا للأمم الناطقة بمثل تلك اللغات بعد أن يتمثل طلاب شعبها ثقافة الإسلام وعقيدته وحضارته بنفس اللغة.

وظن بعض واضعى مناهج الدراسات الإسلامية أنهم بمقارنتهم بين الحق والباطل يرفعون من قدر الإسلام، علما بأنه لا مجال للمقارنة إلا بين الأشياء المتماثلة، وما دام القرآن من عند الله الذى وعد بحفظه والكتب السماوية الأخرى قد حرف أصحابها الكلم عن مواضعها فإن مجرد المقارنة بينهما تسئ إلى الدين الإسلامى وتخرج بحامل لواء المقارنة فردا أو هيئة، عن جادة الطريق وصدق الشاعر إذ يقول:

ألم تر أن السيف ينقص قدره
إذا قيل هذا السيف خير من العصا

وينحرف واضعوا منهج التربية حين يحيدون عن الصراط المستقيم، ويتخذون مثلهم الأعلى فى التربية أقواما تختلف عقيدتهم عن عقيدتنا، وفلسفتهم فى الحياة والمنهج السلوكى والأخلاقى والتربوى، عن مناهجنا، ومن ثم يهملون أمر التربية التى وصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب . . . التربية التى لا تختصر على إعداد المعلم إعدادا فنيا، وإنما إعدادا إنسانيا، وخلقيا، بحيث تمتزج دراسته مع سلوكه فيعيش التربية داخل الفصل وخارجه، يراعيها فى علاقته بالله وبالدين، وفى علاقته بوالديه وأسرته، وفى علاقته بالمجتمع، بل وفى رعايته لممتلكات الدولة، وممتلكات الآخرين

وأعراض الناس ، ودمائهم ، وأموالهم يراعيها حتى فى تعامله مع الحيوانات التى أوصى بها الرسول صلى الله عليه وسلم .

التربية التى ننشدها هى تلك التى تخلق من الفرد مسلما يكون الرسول صلى الله عليه وسلم أسوته فى الحياة المادية والروحية إذ لم يحدث أن فصم الرسول صلى الله عليه وسلم بينهما وكان حتى فى المعركة الحاسمة يوم بدر والأعداء يحفون به من كل جانب كان يطيل السجود والدعاء ، مدركا أن النصر من الله لا من السلاح . . .

التربية الحقة هى التى يكون شعارها (واتقوا الله ويعلمكم الله) . . « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . . » (ومن أعرض عن ذكرى فأن له معيشة ضنكى) .

تلك هى فلسفة التربية التى من أجلها تضع الملائكة أجنحتها لطلاب العلم ، وهى ذاتها فلسفة التربية التى يساوى مداد العلماء فيها دم الشهداء . .

والتربية بهذا المفهوم كما يكون التدريب العملى فيها بالتدريس فى الفصل أو المشاركة فى الحصة أو المحاضرة ، يكون كذلك بالمشاركة فى الصلوات والأذكار والأوراد ، وأنواع التكريم التى تربى الشباب على حب الرسول صلى الله عليه وسلم ومقتفى أثره .

لقد آن لنا أن نبرز شخصيتنا كأمة ذات حضارة وثقافة وعلم وتراث ، آن لنا أن نتحرر من الأسر الفكرى النصرانى واليهودى الذى كتب علينا أن نسير فيه وكأنا بذلك نصنف أنفسنا تحت من عناهم الله تعالى بقوله (الذين استحبوا العمى على الهدى) وقوله : (الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) وقوله : (اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون . .) .

ومناهج الفلسفة كمثيلاتها تحتاج إلى ثورة تماثل ما قام به الغزالى وهو يردها إلى الجادة ويصفيها من شوائب الكفر ويسبغ عليها الشخصية الإسلامية فمناهج الفلسفة ما تزال تتعسر فى الهاوية التى افرغت فيها حين قسم النصارى واليهود مراحلها إلى يونانية ، ووسطى ، وحديثة ، ومعاصرة وزجوا عمدا بفلسفة المسلمين فى تيار القرون الوسطى فى حين فتحوا لأنفسهم الباب حتى العصر الحاضر ، فظللنا نسمع بفلاسفة مسيحيين ما زالوا أحياء ، بينما أحكموا قفل باب الفلسفة على المسلمين ، فكان الكتاب إذا ما أشاروا إلى الفلسفة الإسلامية لا يشيرون إلا إلى ابن سيناء والفارابى وأضرابهم ممن عاشوا حوالى القرن الخامس الهجرى .

وأقام الغربيون للفلسفة اليونانية شأنا عظيما حين أشادوا بالفكر الأوربى ممثلا فيها ، بل بالغ بعضهم فاعتبر الفلسفة الإسلامية جسرا عبر به الفكر اليونانى الأوربى إلى

أهله ، وفرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا فكريا لدحض ما ألصق بهم من تهم ، بل لقد ألفت آذانهم سماع تلك الأفتراءات فصدقها بعضهم ، وصاروا ينادون كغيرهم بأن الفكر الانسانى كان قبل اليونانيين طفلا متجاهلين أن الفكر الأنسانى بدأ ببدايةسيدنا آدم ، وسيدنا آدم رسول بلغ من الفكر الذروة وكذلك كان ابناؤه من الأنبياء الذين سبقوا اليونانيين[1] .

لقد أصبح دعوى المعجزة اليونانية ستارا يختفى وراءه دعاء تحطيم ما أسموه بالفكر الحامى ليتسنى للأوربيين وصل ما يزعمونه من حاضر حضارى بماض تليد يماثله فى الحضارة النسبية[2] .

وكان علم الاجتماع كالفسلفة بعيدا عن الواقع الحضارى للأمة الإسلامية عامة والوطنية خاصة فقد ارتبط فى بعض نواحيه بالفكرة الأوربية بدلا من الفكرة الإسلامية وأغفل احتياجات الإنسان الروحية مع اتفاق المختصين من علماء الاجتماع بأنها أعظم الحقائق بالنسبة له،وأبعد نفسه عمدا عن نصوص القرآن الكريم والحديث النبوى ، مع أنها الأساس الذى ينبنى عليه الكيان الاجتماعى فى الإسلام وأهمل وصل العلاقة بين السلوك الإنسانى والشريعة الإسلامية وتبنى بعض المقلدين فيه دون وعى فكرة (دور كايم) (الألحادية) التى تقول بأن الدين ظاهرة إجتماعية . ونصبوا من أسس غير لسلامية معايير يحكمون بها على سلوك الإنسان ، ناسين أن هدفهم الأساسى هو دراسة ووصف وتفهم معنى الحياة والسلوك واكتشاف أسباب ذلك إنطلاقا من عقيدة الأمة وتراثها ومفهومها عن الحياة والعمل والعلاقات الإنسانية إذ العقيدة عامة والإسلامية خاصة باعتراف علماء الاجتماع هى أقوى النواحى الثقافية التى تسيطر على الناس فى البلاد الإسلامية ومن ثم فإنه لا يمكن تجاهلها عند تخطيط أى برنامج للعمل بينهم .

وما قيل عن الناحية النظرية يقال عن التدريب الذى قد يختلط فيه الرجال بالنساء كما تختلط فيه فلسفات التربية ببعضها لتنتج ما هو وبال على الفكر والتقاليد والمثل والقيم ومن ثم يكون المدخل للتدريب فى حد ذاته مناهضا لفلسفة الأمة التى يراد تدريب مصلحيها . فتبدأ بذلك ومنذ أول وهلة

---

(١) لدحض هذه الفرية علمنا ألفت كتابا كاملا أسميتة نشأة التفكير فراجعه .

(٢) العقاد : ابليس طبع القاهرة ، والحياة العقلية فى ضوء الفلسفة الإسلامية للدكتورحسن الفاتح طبع القاهرة سنة ١٩٧٨ وطبع بيروت سنة ١٩٩٠ م .

مظاهر الفرقة بين المجتمع وبين من نصبوا أنفسهم لأصلاحه هذا إلى أن التدريب حين يمارس لاتعطى الأولوية فيه لما يمس حاجة الأمة وتحقيق رسالة التعليم ، الأمر الذى يجعل التقليد فى موضوعات التدريب مظهرا من مظاهر العمل الاجتماعى عندنا .

أضف إلى ما تقدم أن المسئولين يفصمون أنفسهم عن مجتمعهم وأسرتهم حين يتجاهلون دور التصوف فى حياتهم السياسية والاجتماعية والفكرية والتاريخية والعلمية فلا ينشئون لدراسته مركزا أو يخصصون له معهدا ؛ علما بأن أقدم مرجع بأيدينا حين يؤرخ لا يؤرخ إلا للمتصوفين وأبرز من حملوا لواء الدعوة إلى الله باعترا ف جميع الناس هم رجال التصوف ، وأشهر قادة ارتبط مجدهم بمجد السودان وسياستهم بتراث الأمة وعقيدتها ودينها هم من نتاج وتربية المتصوفة .

بل إنك لا تكاد تجد أسرة بالسودان إلا ومعظم أفرادها ينتمون إلى المتصوفة اما تطرقا ، أو ولاء حتى أنك لتستطيع أن تميز من أسماء الأسرة نوع (الطريقة) التى ينتمون إليها ، واسم الشيخ الذى ينتسبون إليه . . هذا إلى أن تراث المتصوفة ومؤلفاتهم هو الثروة الدينية الوحيدة التى يفاخر بها السودان . . ولا أحد يمارى فى أن أثر تربيتهم لمريديهم هو الأثر الوحيد الذى نعتز به حين نتحدث عن أخلاق السودانيين وكرمهم ؛ فبيوت المتصوفة هى الفنادق المجانية التى يستطيع أن يؤمها الفرد وأسرته فى أى لحظة ، بل ويتزود بالإضافة إلى الضيافة بزاد مالى قد يصل حد إنشاء المنازل السكنية ، والمتاجر ، وتمايك العربات ولم يحدث سابقا أو حاضرا أن بنى مسجد غير حكومى بالبلاد إلا وكان منشئه شيخ طريقة صوفية أو مريدا من مريديه وما قيل عن المساجد يقال عن (الخلاوى) القرآنية ، والزوايا ، وبيوت الضيافة والسبائل (جمع سبيل) بل أن المتصوفة وجهوا مريديهم بإنشاء المعاهد والمدارس والمستشفيات والمصحات وقد افتتحت الدولة عددا منها .

إن من ينكر أثر التصوف إنما ينكر ضوء الشمس ، وصدق الشاعر إذ قال :

عالج عيونك كى تحظى برؤيتهم
فليس تدركهم عين بها رمد[1]

والآخر الذى يقول :

ما ضر شمس الضحى فى الأفق طالعة
أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

---

(١) راجع ديوان الشيخ محمد على يوسف (مخطوط) .

وتمثل شعبة الاقتصاد الحالى بالجامعات حاميا لفكر الغرب المتمرد على نصرانيته ويهوديته . . فلئن أقام الغير لفكرهم الاقتصادى ناطحات التحدّى للأمم التى أسموها نامية فقد أعرض عن التحدى علماء الاقتصاد عندنا واكتفوا بفتح نافذات فى بناء الغـرب الاقتصادى يطلون بها على نظمهم الاقتصادية ، ويكاد الفرد منهم لا يتحدث عن نظرية فى الاقتصاد الإسلامى إلا عبر ما درسه من نظريات غربية. . أما من لا يؤمن بجدوى الفكر الإسلامى فى الاقتصاد ففى آذانهم منه وقر ، وهو عليهم عمى .

وجاءت تسمية وحدة الدراسات الإضافية ببعض الجامعات ترجمة حرفية للكلمة الإنجليزية التى نقلت عنها ؛ كما جاءت تقليدا لما هو عند الآخرين وإلا فكيف يتسنى لنا مثلا أن تزعم أن البناء الفكرى للفرد فى مجالات الدراسات الإسلامية والفقهية والعربية وغيرها –عمل إضافى بالمفهوم العربى لكلمة إضافى . . إن ما تقوم به هذه الوحدات هو فى الواقع عمل تأهيلى أو تكميلى ومن ثم كان الأولى أن تسمى بكلية أو معهد الدراسات التأهيلية أو التكميلية .

وللجامعات دور أكاديمى فى الأفتاء حيث أنها مؤسسات علمية تضم أكبر عدد من المتخصصين ممن يلجأ إليهم النـــاس فى الفتوى فى الأحياء والشوارع وغيرها . .

ومن ثم كان على مؤسسات التعليم المختصة أن تحيى ما أرم من عظام لجانها التى كونتها ليشهد المحتفلون بميلادها إسدال الستار على دورها إن لم يكن وأدها .

هذا ويكاد فريق من العلماء حين يتحدث أو يكتب فى المواد الإسلامية يعتمد اعتماداً كاملا على المفهوم المعاصر للنصارى واليهود لها ، بل ويجعل كتبهم له مراجع لا يأنف من ذكرها ، إن لم يفتخر أمام الغـير بأنه باستعماله لها يصير بحثه ، بحثا علميا ، به يتوخى الحياد الموضوعى ، ويستخدم فيه الأسلوب المنطقى . . ومن المؤسف أن مثل هذا الأسلوب قد جاز على الكثيرين فى غير عهـد الصحوة الإسلامية ، فأنكروا معجزات الأنبياء ولم يتسع فكرهم لقبول إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأعمى وشفاء العاقر ، وإحداث الخلق غير المألوف للحوادث وتسبيح الحصى وحنين الجـذع وسلام الحجر والمدر ، ومعرفة الطيور بالله تعالى ، والتحدث مع الحيوانات ، ووجود خلق لا يرى حتى (بالميكروسكروب) ولا يكتشف حتى (بالرادار) يشاركهم أحيانا فى الأكل والشرب ، والتناسل والتكاثر ، والحركة ، والكلام ، والصلاح والتقوى ، والفسق ، والفجور ، والعصيان وقد يفوق آخرون منهم الإنسان قوة وعددا وحركة ، وطاعة ، وعلو مكان ، وسعة إدراك من غير أن يتناسل ذكر عن أنثى ، أو

أنثى عن ذكر ، ودون أن يتمف العوائق الطبيعية ، أو مرحلة (إنعدام الوزن) عقبة فى طريق أداء مهامهم فى الحياة . إن هؤلاء قد مرقوا بانكارهم للغيبيات مروق السهم من الرمية، ذلك أن إنكارهم للغيبيات يعد إنكارا لما عرف من الدين بالضرورة ، يقول تعالى : (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة . . . الخ) أضف إلى ذلك أن إنكارهم لمثل ما تقدم فيه تكذيب لبعض ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن كذب ببعض ما جاء به عليه السلام كان كمن كذب به كله[1] . كما يقول ابن قتيبة فى تأويل مختلف الحديث ، هذا ونسب بعضهم الشفاء للعقاقير ولما يمتاز به بعض الأطباء من مهارة ودربة وخبرة وعلم رافضين قبول غيرها كوسيلة مجربة ناجحة للعلاج ، وكأنهم بذلك يحجرون واسعا ويضيقون فسيحا ، ناسين أن الشافى الحقيقى هو الله وحده ، وأن من لم يشفه القرآن فلا شفاء له كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] وأن :

من يقل بالطبع أو بالعلة
فذاك كفر عند أهل الملة
ومن يقل بالقوة المودعة
فذاك بدعى فلا تلتفت

واختلط على شبابنا تبعا لذلك الحابل بالنابل فتارة يؤمنون بالغيب وأخرى به يكفرون وتارة يتخذون الرسول صلى الله عليه وسلم لهم أسوة ، وأخرى ينكرون قبول أقواله وأفعاله وتقريراته ، ووجد من ينادى من هؤلاء تجملا للكفار بجواز ما حرمه الشرع فقال بعضهم إن الأمر بالاجتناب فى موضوع الخمر لا يعنى الحرمة ، وأجاز البعض الآخر زواج الكتابى من المسلمة مع وجود النص الشرعى المانع واعتلى حزب منهم منصة الثورة على كل التراث الإسلامى فأنكروا قبول الحديث النبوى ، ونادى آخرون بأن الإسلام لا يصلح للقرن العشرين وجاء من ظن منهم أنه يحسن صنعا فقصر الصلوات المكتوبة على أقل من خمس فى اليوم والليلة . وعزف فريق على قيثارة الحب الماجن بدعوى أن الله جميل يحب الجمال مستدلين على زعمهم بقوله تعالى : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) وفتح البعض لنفسه باب النبوة ليخاطب الناس باعتباره دابة للارض تكلمهم إذا

---

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢٨٨ .

(٢) رواه ابن نافع عن رجاء الغنوى .

وقع عليهم القول . . واستخدم فريق من هؤلاء أسلوب الشتم ، والسب ، القذف والطعن . والسخرية ، وسيلة لإثبات الباطل وتقويض دعائم الحق . .

كل ذلك وأمثاله كثير ،صب فى القالب الإسلامى عمداً أو جهلا فتراكم بذلك الخطأ ، وعظمت المسئولية،وجل الخطب ، ومن ثم كان على مؤسسات التعليم دور مزدوج تبدأ التحلية فيه بعد التخلية أو البناء بعد الهدم .

(ى) عام التدريب الالزامى او علاج هجرة العقول) :

تشكل ظاهرة هجرة العقول خطرا يهدد مستقبل البلاد العلمى والعملى ويؤدى عاجلا أو آجلا بحياة الأمة ، ويحد من رقيها وتطورها . . ومن ثم كان على الدولة أن ترسم سياسة مزدوجة تعمل فيها من جانب على الحد من هجرة العقول ،وتعمل من جانب آخر على توفير العدد الكافى من المؤهلين ، وذلك عبر وسائل مختلفة أهمها أن تتخلل المرحلة الدراسية لطالب الدراسات الجامعية سنة إلزامية يقضيها فى التدريس ، وفى الدعوة إلى الله ، وفى العمل فى الميادين التى تتفق وتخصصه على أن يقيم إنتاجه فيها ويرصد مع نتائج العام النهائى له ، فترتفع بذلك درجاته فى (البكالوريوس) أو تقل وبها كذلك يتحدد قبوله طالبا بالدراسات العليا أو موظفا بالدولة على أن لا يسمح له إطلاقا بالاستمرار فى إكمال دراسته الجامعية أو ما يعادلها مالم يؤد واجبه بأتقان خلال عام التدريب الإلزامى له ، ويحصل على وثيقة بذلك من جهات الاختصاص التى قضى معها عام تدريب . . ويفضل أن يبدأ تطبيق هذا النظام الإلزامى بعد أن يعمم نظام الساعات الدراسية (المقررات) بمؤسسات التعليم العالى حتى يتمكن الطالب من إكمال دراسته فى نفس المدة التى كان عليه أن يكمله فيها فيما لو ظل يدرس وفق نظام العام الجامعى المألوف ، أو نظام السنة الكاملة .

هذا ومن البديهى أن مثل هذا النظام من التدريب يكسب الطالب مهارات فنية ويوسع مداركه ، ويربطه ربطا حقيقيا بواقع العمل ، ويخلق له عند عودته للدراسة حيوية ونشاطا وإقبالا ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يقضى قضاء تاما على الأثر السلبى لهجرة العقول . فالمدارس مثلا تجد على الدوام من يقوم فيها بأداء العمل وفق التخصص العلمى المرغوب فيه دون أن تتحمل الدولة نفقات باهظة ، وكذلك الحال فى دور العبادة ، وساحات التثقيف العام ، ومكاتب الدولة ، والمزارع ، والمصانع ، والشركات ، وغير ذلك من الوظائف التى لا يؤثر على سير الأداء فيها غياب ذات الفرد منها بعد انتهاء العام المحدد له بها .

أضف إلى ما تقدم أن دائرة التدريب الإلزامى يجب أن تتسع بحيث تمتد إلى كل عمل داخلى أو خارجى يقع تحت إشراف الدولة ومسئوليتها ورعايتها ، فالدعوة إلى الله مثلا كما تكون لتثبيت العقيدة بين المؤمنين فى الداخل ، تكون لتأصيلها وتأسيسها بين غير المؤمنين بالخارج ، ومثل الدعوة فى ذلك عمل السفارات والشركات والوزارات التى لها مدارس أو مكاتب بالخارج .

هذا ولئن اشترطت بعض الدول على الطلاب ممارسة أنواع معينة من الرياضة بصفة إجبارية كالسباحه وغيرها[1] فإن حاجتنا لتوفير العقول تجعلنا نشترط مثل ذلك النوع من التدريب الإلزامى الذى يسد حاجة البلاد فى مختلف التخصصات .

٢ ـ الميدان الروحى :

كادت العلوم الإسلامية بمفهومها العرفى تشابه نظيراتها ، بعد أن تجردت عن الروح وابتعدت عن ميدان التطبيق ، واقتصرت على الناحية الأكاديمية علما بأن بعضها لم يفهم سابقا إلا مصحوبا بالعمل ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألا أنبئكم بالفقية كل الفقية ؟ قالوا بلى . قال من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله، ولم يؤيسهم من روح الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى سواه .

وسأل فرقد السنجى الحسن رضى الله عنه عن الشيء فأجابه . قال : إن الفقهاء يخالفونك فقال رحمه الله ثكلتك أمك فريقد وهل رأيت فقيها بعينك ؟ إنما الفقيه ، الزاهد فى الدنيا ، الراغب فى الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه ، الورع الكاف نفسه عن أعراض المسلمين العفيف عن أموالهم ، الناصح لجماعتهم . ولم يقل فى كل ذلك الحافظ لفروع الفتاوى[2].

وما قيل عن الفقه يقال عن التصوف فقد كاد يحيله بعض الكتاب إلى علم للجدل إذ أضاعوا وقتهم وأفرغوا جهدهم فى مسائل هى بمثابة (اللافتة) للمحتوى فتنازع الباحثون حول أصل التصوف ومنشئه وأكثروا من الكتابة حول تأريخه ، واصطلاحاته ، وأطلق بعضهم لنفسه العنان ليتصور حالة أهل الذوق والكشف مع قصر أفهام الخلق عن ذلك كما يقول الإمام الغزالى فى الإحياء[3] .

(١) الإدارة الجامعية للدكتور القشار صفحة ٢٧٢ .

(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين .

(٣) الغزالى : الإحياء ج ١ ص ١٢ .

لقد تعرضت العلوم الإسلامية عبر تأريخها لتحريف فى أسمائها ، وتبديل ونقل خرج بها عن دائرة المفهوم الأصلى لها إلى معان أخرى ، غير أن أسوأ ما تعرضت له كل تلك العلوم هو إفراغها من الروح وإبعادها عن دائرة العمل ، وإلباسها ثوبا ضيقا ما تزال تجهد نفسها فى التخلص منه والأنعتاق من دائرته .

فالتوحيد الذى كان مفهومه سابقا رؤية الأمور كلها من الله رؤية تقطع التفات الباحث عن الأسباب والوسائط صار صناعة أكاديمية مهمتها الألمام بمناقضات الخصوم والقدرة على الجدل ، وإثارة الشبهات ، وتأليف الالتزامات(١) .. ولف التيار علماءه فغفلوا عن لب التوحيد ، وتمسكوا بالقشور فلم يعد لهم هم سوى إثبات مفهوم التوحيد المناقض للتثليث ، ذلك أن الشرط عندهم هو أن يقول الفرد بلسانه لا إله إلا الله فإذا قالها — ولو نفاقا — ارتفعوا به إلى مصاف المؤمن العارف بالله . . علما بأن مفهوم التوحيد الحق لا يتأتى لمن التفت ولو لحظة لغير الله . . إنه الاستغراق فى الله عبر ما أعد لهذا الاستغراق من طريق أسماه الرسول صلى الله عليه وسلم برياض الجنة أو مجالس الذكر التى شعارها (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) .

إنه الذكر الدائم لله والتذكير المتواصل للآخرين به، إذ ليس سوى الذكر غير النسيان أو الأعراض . . وقد حذر المولى من ذلك فقال :(ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكى ونحشره يوم القيامة أعمى) .

والذكر كما يكون بالفكر يكون بالحركات الرياضية التى تنشط الجسم ، وتطرد الملل وتذهب الرتابة وتطيل فترة العبادة ، على أنها فى الحالين تطمن القلب ، وترضى الرب ، وتكون عاملا جاذبا لحضور الملائكة فقد ورد فى الحديث النبوى عنه عليه الصلاة والسلام : إن لله ملائكة سياحين فى الدنيا سوى ملائكة الخلق إذا رأوا مجالس الذكر ينادى بعضهم بعضا ألا هلموا إلى بغيتكم فيأتونهم فيحفون بهم ويستمعون . . ألا فاذكروا الله وذكروا أنفسكم(٢) » .

أما الفقه فقد خرج به العلماء عن دائرة معناه الأصلى فجعلوه قاصرا على معرفة الفروع الغريبة فى الفتاوى والوقوف

---

(١) للغزالى الإحياء ج ١ ص ٥٠ .

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها ، فمن كان أشد تعمقا فيها ، وأكثر اشتغالا بها يقال له الأفقه.

ولقد كان اسم الفقيه في العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدات الأعمال وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة . واستيلاء الخوف على القلب وبدلك عليه قوله تعالى : (ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) . وما يحصل به الانذار والتخويف ، هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق ، والعتاق ، واللعان والسلم ، والأجارة . فذلك لا يحصل به إنـذار ، بل التجرد له على الدوام يقسى القلب وينزع الخشية منه[1] .

ويتصل بأمر الفقه الصلوات والصيام والحج والزكوات وكلها عبادات ممزوجة بأعمال غير أنها لان كانت عند البعض تؤدى بروح وإخلاص فهى عند الآخرين قد أفرغت من الروح وصارت تؤدى كواجب .

أتخلص مما تقدم بأن مفهوم العلم أيا كان موضوعه قد مر بمرحلتين :

١ ــ حرف في أولاها وبدل ونقل ، حتى أصبح للدين علوم ، وللدنيا علوم . .

علما بأنه كان قد أريد منه سابقا العلم بالله تعالى ، وبآياته ، وبأفعاله في عباده وخلقه . وهو مفهوم عام كان ينتظم بجميع العلوم ما عرف منها وما لم يعرف .

أما في الثانية فقد أفرغ من محتواه الروحى وجرد من مراعاة الله فيه ، بحيث صار مفهوم العلم أخيرا مغايراً لمفهوم العبادة ، علما بأن كل علم أو عمل إذا صاحبته النية الخالصة في العبادة كان عبادة حقيقية. فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى .

إن على المسئولين وقد آلوا على أنفسهم النهوض بشأن التدريب والبحوث ، أن يردوا طلاب العلم إلى جادة الصواب ، ويغيروا من مفهوم العلم والعمل عندهم ، ويحثوهم على مراعاة الله وتقواه في كل عمل أو علم يقومون به على أن يوفروا لهم كذلك دور العبادة في المؤسسات العلمية ويدربوهم على الحج وعلى آلات الرصد الفلكى وعلى استعمال أجهزة (الكمبيوتر) المختلفة ومعمل اللغات التى يستعان بها في دراسة القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف وينوعوا لهم مناهج الأداء في أسلوب التربية إذ من العجيب أن تبذل

---

(١) الغزالى : الأحياء ج ١ ص ٤٨ .

الدولة أقصى إمكانياتها المادية والبشرية والفنية ، لترقية الأداء الرياضى للطلاب إذا كان بعيدا عن العبادة وذكر الله ، وتحجم بل وتستنكر أن يقام للذكر الحركى أو الرياضى مكان بمؤسسات التعليم .

على مؤسسات التعليم أن تقوم بتربية الشباب تربية روحية وخلقية وترفع بين وجدانهم فاعلية الضمير ، وتدربهم على إدارة وتصريف الأمور كلها على أن يعلموا أن المولى معهم حيثما كانوا إذ (ما يكون من نجوى صغيرة ولا كبيرة إلا وهو يعلمها) وهو (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) .

إن مؤسسات التعليم – كما هو معلوم – هى المكان الذى يجرى فيه إعداد الفرد بشكل علمى ومنظم ، ليصبح إنسانا متكاملا عقلا وجسما ، وضميرا وسلوكا فينهض برسالته التى حمله الله بها ، بأن يكون خليفته على الأرض يعمل على عمارة الكون . وتنمية المال الذى استخلفه عليه الله ، وينشر الحضارة ويرفع ألوية الحق والرشاد ، ويقيم الموازين بالقسط ، علما بأن تنمية قدرات الفرد على التحليل والبحث العلمى فحسب ، تحيل الفرد إلى آلة غير أنا إذا أضفنا إلى ذلك تنمية ضميره ، وتربيته روحيا وخلقيا ورياضيا ، فإننا نصنع منه إنسانا قادرا على الوفاء برسالته نحو الله ، ونحو الإنسانية ، ونحو الوطن ، وتمكنه من التعامل مع المجتمع بحكمة وكفاءة[1] .

٣ – الرعاية الشاملة للباحثين والمدربين :

تعد الرعاية الشاملة للباحثين بكافة أنواعها وأبعادها الاجتماعية والصحية والرياضية والثقافية والترفيهية ، عاملا أساسيا ومهما فى إعداد المتعلم ، وفى بناء جسمه ، وتكوين شخصيته ، وتهذيب سلوكه وصقل مواهبه ولتوفير ذلك بصورة أفضل تشترط بعض المؤسسات العلمية أن يقيم طلابها فى مدن جامعية خاصة ، لتنشئهم التنشئة المتكاملة التى ترغب فيها .

هذا إلى أن إعداد العناصر الخبرة من الباحثين يتطلب بالضرورة توفير أسباب الرعاية باختلاف أنواعها لهم. فالباحثون مهما بلغت مقدرتهم فى حاجة ماسة إلى توفير أسباب الاستقرار السكنى ، والمعيشى وغيره لهم ليتمكنوا بذلك من الانصراف للمهام العلمية الملقاة على عاتقهم ، إذ العقل السليم فى الجسم السليم ، وسلامة الجسم تتطلب توفير الصحة الوقائية[2] والعلاجية[3]

---

(١) دكتور / محمد حمدى النشار : الإدارة الجامعية – التطوير والتوقعات ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) راجع : الصحة الوقائية فى الإسلام للدكتور حسن الفاتح .

(٣) راجع البراهين الشرعية والعقلية فى إثبات الطب القرآنى للدكتور حسن الفاتح .

بمختلف أنواعها ، كما تتطلب الأكثار والتنويع فى النشاطات الرياضة ، مثل السباحة والرماية وركوب الخيل وألعاب القوى ونوادى الفتوة التى ابتدعها المتصوفة ، وأوكلوا لها خدمة المجتمع ، وتنمية المواهب الفكرية والخلقية والعضلية والروحية .

أضف إلى ذلك الاهتمام بالنشاط الترويحى فإن العقول إذا كلت ملت على أن لا يتضمن هذا النشاط وسابقه شيئا مما حرمه الله ، أو كرهته الشريعة الإسلامية أو تعارض مع مصالح الأمة .

هذا وبما أن الباحث أو المدرب إنسان فيجب أن توفر الدولة له كل مقومات الإنسانية فتربى شخصيته وتحفظ عليه كرامته وتساعده فى حل مشاكله وتعينه على أداء عباداته ورياضاته الروحية التى يتأسى فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تعينه كذلك على اختيار العمل المناسب ، وتتعاون معه فى توفير المناخ الملائم لتربية أفراد أسرته وذويه ، وتولى عناية خاصة للاثابة المالية التى تمنحها له .

واقترح فى هذا المجال أن يستبدل النظام الحالى المعمول به فى تحديد المرتبات لبعض البلاد بالنظام المثالى الذى تطبقه بلاد أخرى .

ويقوم النظام المقترح على تحرير البحوث من الأسر المادى الذى وضعت فيه ، فالبحث الأكاديمى والتدريب الفنى ، أسمى وأرفع من أن يدفع إليه الباحث دون رغبة أو أهلية ليصبح بذلك بحثا تجاريا يبغى صاحبه من ورائه الترقية أو المرتب العالى .

على الدولة أن تعمل على فك الارتباط بين النظامين العلمى والمالى ؛ فيترقى جميع العاملين أساتذة وإداريين وغيرهم فى سلم المرتبات ، حتى يصلوا نهاية مرتب الأستاذ ، على أن من أراد اللقب الأكاديمى فعليه أن يعد نفسه له علميا .

وفى ظل هذا النظام المقترح يمكن لمن حصل ماليا حاليا على درجة أستاذ (بروفسور) أن يقدم للترقية العلمية لدرجة أستاذ مشارك على أنه لا بأس أن يفرق بينه وبين غيره بالتزام الدولة له بطبع بحثه ومكافأته عليه .

٤ — الميدان الادارى :

العمل فى مؤسسات التعليم العالى يتشعب إلى ثلاث شعب :

أولها : أكاديمى ويتولى مسئوليته الجهاز الأكاديمى وحده حيث يمارس بعض الأعمال الإدارية بجانب الأعمال العلمية .

ثانيها : إدارى ويقوم به الأكاديميون والإداريون على السواء .

ثالثها : فنى ويقوم به الفنيون تحت إشراف الأجهزة الأكاديمية .

هذا ويتميز الجهاز الأكاديمي بأن خطوط السلطة فيه تسير في اتجاهين مختلفين : أولهما أفقي ، وثانيهما رأسي على أن الخطوط الأفقية بارزة وتغطي بألوانها الداكنة على غيرها من الخطوط في لوحة الخريطة التنظيمية للعمل بالجامعة ، وذلك انطلاقا من مبدأ القيادة الجماعية الذى تدين به كل الجامعات .

فعميد الكلية أو رئيس القسم أو الشعبة أو الوحدة أو رئيس المركز العلمي ، يقف على نفس خط السلطة مع باقي الرؤساء الآخرين ، علما بأن كلا منهم لا يتدخل في الشئون العلمية الخاصة بغيره إلا في حدود التنسيق ، أو لإبداء الرأى عبر المجالس العلمية التي تضمه مع غيره من المسئولين مثل مجلس الكلية أو مجلس الأساتذة أو مجلس الجامعة .

أضف إلى ما تقدم أن لرئيس القسم أو الشعبة أو المركز ولايتان :

إحداهما : إدارية ومجال عمله فيها قاصر على العاملين معه من أعضاء هيئة التدريس ومساعديهم والموظفين والإداريين والعمال.

ثانيهما : علمي فني إذا هو بحكم وضعه العلمي صاحب مدرسة أكاديمية يتولى بها الإشراف على الأساتذة المشاركين والمحاضرين ومساعدى التدريس ، والمعيدين فهو بالنسبة لهم جميعا يقف على قمة الهرم المعنوى للسلطة في الهيكل التنظيمي للعمل .

ومن المعلوم أن العمل الإدارى بمؤسسات التعليم يغطى رقعة واسعة من العمليات والإنجازات تذخر بألوان النشاط المختلفة وتمتد هذه العمليات والإنجازات على أفق واسع ورحب ، يبدأ من أعمال الإدارة العليا وينتهى بالعمليات التنفيذية الصغيرة بمواقع العمل بالجامعة . علما بأن هذه الأعمال تشمل فيما تشمل الوظائف الإدارية كلها من تخطيط وتنظيم وتوجيه وإرشاد، ومتابعة ومراقبة وتقييم ، وشئون ماليةوحسابية وقانونية وكتابية واجتماعيةورياضيةوثقافية إلى جانب تنظيم المكتبات والشراء والبيع والتخزين وغيرها مما هو معروف .

والعمل الإدراى المذكور أغلبه عقلى وذهني ولا يحتاج إلى تخصصات دقيقة عالية كما هو الحال بالنسبةللعمل الأكاديمي على أنه بالرغم من ذلك يشكل أهمية كبيرة فهو يهئ البيئة الصالحة والمناخ الملائم للأعمال الأكاديمية والفنية .

ويتوقف نجاح العمل في مؤسسات التعليم على التعاون الوثيق بين مختلف الأجهزة الأكاديمية والإدارية والفنيةوعلى قوة العلاقات الإنسانية السليمة بين العاملين والمحافظة المستمرة عليها ، وتنميتها وذلك عبر :

١ – تفهم كل مجموعة لطبيعة عمل الأخرى ، ومساعدتها فى إنجازه بالصورة المثلى التى ينشدها كل فريق .

٢ – العدالة فى المرتبات والإمتيازات وفق التصور الذى ذكرته سابقا .

٣ – الشورى التى يحترم فيها رأى كل فريق ويستأنس به ، عند إتخاذ القرار إذ الفردية أو التكتل المهنى هو من أسوأ مظاهر فساد العلاقات الإنسانية .

٤ – المعاملة الحسنة الخالية من مظاهر التحكم والتسلط والأنانية ، والتمييز بين المجموعات العاملة فى ذات الحقل .

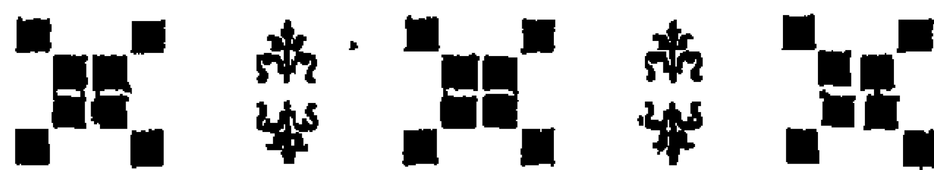
٥ – الأحترام المتبادل بين أفراد كل مجموعة على حدة ، وبينها وبين أفراد المجموعة الأخرى كذلك بحيث لا يتعالى أحد منهم على الآخر .

ومن مهام الإدارى الناجح التخطيط السليم ، ورسم البرامج التى تكفل تحقيق رسالة مؤسسات التعليم بكفاءة تمكن المسئولين من تجسيد معنى الخلافة الإلهية التى أرادها الله تعالى للإنسان ، هذا وبالتخطيط يتم ترشيد استخدام الموارد المتاحة بفعالية أكبر يكون من نتائجها تنفيذ الأهداف المنشودة بخطى سريعة ومحكمة .

ويهدف التخطيط فيما يهدف إليه إلى تحديد حجم التعليم العالى ، ونوعياته ومستوياته ، وتوزيعه الجغرافى ، وهياكله التظيمية ، ووسائل تطوير البحوث العلمية والتدريب العملى ، والعمل الخلاق لبناء الأجيال الصاعدة .

ويتميز التخطيط العام للتعليم العالى بأنه يرتبط بالمستوى الحضارى للمجتمع ويحدد الأولويات ويعالج النتاج الفكرى للطلائع المثقفة ، ويوازن بين هجرة العقول وتوفير البديل ، بل إنه ليتعلق أحيانا بعوامل يصعب التنبوء بها .

وأياً كان الأمر فإن أسلوب التخطيط ومناهجه ووسائله وأبعاده — لتختلف من دولة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر . أخلص من كل ما تقدم بأن على مؤسسات التعليم العالى أن تخلق من التعاون الأكاديمى الفنى الإدارى قاعدة تنطلق بها إلى رحاب أوسع فى ضوء تعاليم القرآن الكريم وهدى السنة النبوية المطهرة والسيرة العملية للسلف الصالح من الأمة الإسلامية أولئك الذين فهموا الدين منهجا للحياة وأسلوبا للعمل ، فكيفوا عليه تصورهم للعلم ، والمعرفة والبحث والتدريب .



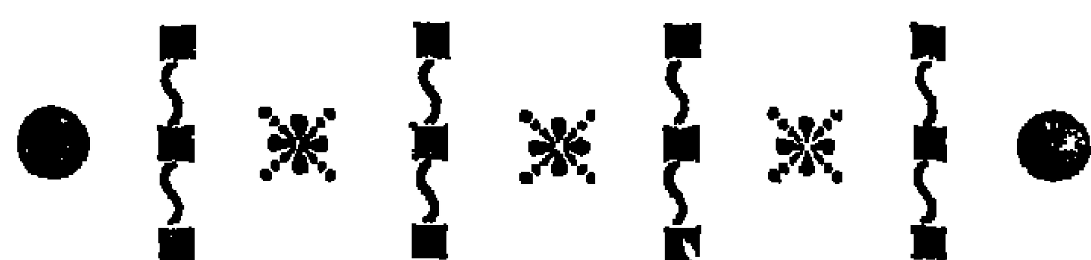
الفهرست

أو

محتويات البحث

الموضوع — الصفحات

الموضوع	الصفحات
(ط) مثالب المناهج الحالية	١٣٣
(ى) عام التدريب الإلزامى (أو علاج هجرة العقول)	١٤١
٢ – الميدان الروحى...	١٤٢
٣ – الرعاية الشاملة للباحثين والمدربين	١٤٥
٤ – الميدان الإدارى	١٤٦
٥ – الفهرست أو المحتوى	١٤٩



المـــؤلف :

١ ــ الأستاذ الدكتور حسن الشيخ محمد الفاتح الشيخ قريب الله .

٢ ــ عباسى الأب حسينى الأم .

٣ ــ حفظ القرآن الكريم بروايتى حفص وأبى عمرو .

٤ ــ أحرز شهادتى بكالوريوس من جامعتى القاهرة وأم درمان .

٥ ــ أحرز درجة الشرف من جامعة الخرطوم ودرجة الماجستير فى الآداب من نفس الجامعة .

٦ ــ أحرز درجة الدكتوراه من جامعة أدنبره ببريطانيا فى الفلسفة .

٧ ــ عمل عميداً لكلية الآداب وعميداً للطلاب وعميداً لكلية الشريعة والعلوم الاجتماعية ورئيساً لقسم الفلسفة .

٨ ــ عمل رئيساً لجامعة أم درمان الإسلامية .

٩ ــ عمل رئيساً لمعهد أم درمان العلمى العالى .

١٠ ــ عمل رئيساً وعضواً لكثير من مؤسسات التعليم العالى .

١١ ــ اشترك فى عدد من المؤتمرات العلمية .

١٢ ــ أشرف على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه .

١٣ ــ ألف أكثر من خمسين مؤلفاً .

١٤ ــ اختير عضواً مراسلا لمجمع اللغة العربية .

١٥ ــ منحته مصر وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى .

حسن الفاتح قريب الله
عضو المجمع المراسل من السودان

ألفاظ حضارية بطل استعمالها

للدكتور أحمد السعيد سليمان

سيدى الرئيس

أيها السادة

هـذه مفردات حضارية ، من أصول أعجمية ، دخلت فى اللغة العربية فى العصور الوسطى الإسلامية ، وجرت على ألسنة الناس ، واستعملها الشعراء وأصحاب النثر الفنى .

ومن هذه الألفاظ الحضارية ألفاظ عربت قديما على قواعد خاصة فى التعريب ثم أعيد تعريبها فى العصور الوسطى على قواعد جديدة . ولم تدرج هذه الصيغ المحدثة ، على شيوعها فى زمانها ، فى معجمات العربية .

وقد كان لبعض هذه المفردات فى لغاتها الأعجمية معان كثيرة أخذ العرب الأولون بعضها لحاجتهم إليه ، وتركوا المعانى التى لم يحتاجوا إليها ، ثم جاء أدباء العصور الوسطى فأخذوا هذه الكلمات بصيغها المعربة قديما ، وأضافوا إلى معانيها فى العربية كل المعانى التى تركها الأولون .

وربما اشتق أصحاب دواوين الإنشاء ، وهم أكتب كتاب زمانهم صيغاً فعلية من بعض الأسماء المعربة على نحو ما أعرض على حضراتكم إن شاء الله ؛ وقد استخرجت هـذه الكلمات القليلة من ركام ضخم جمعته فى زهاء عشرين عاما . وكنت أتمنى أن أنشره فى كتاب أسميه « المتدارك » أو « فوات المعجمات من المعرب والدخيل » ولكن حالت دون ذلك أمور ، والحمد لله على كل حال .

وأبادر فأقرر أننى لا أريد بدراسة هذا الكلام المات أن أبعثه ليستعمل ، فنحن فى هذا الزمان بحاجة إلى تعريب آخر

(*) ألقى فى الجلسة السابعة يوم الأحد ٢٧ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٥ من مارس (آزار) سنة ١٩٨٩ م

نتنقل به من حال إلى حال ؛ ولكني أرجو أن أعين القارئ العربي على استيعاب تراثنا من كتب العصور الوسطى ، وأوائل العصر الحديث فإن فيها من هذا المعرب الدارس ما لا يحصى ، وإن مستدركات التـــاج ومعجم دوزى ومستدرك فانيان لا تسعف في كل المواقف .

وأليكم هذه المفردات .

— البردّار (من الفارسية برده: الستارة و (دار) صاحب ومعناها الحاجب وصاحب الستارة .

وقد أحدثت وظيفة البردداريه في دولة الأشرف قايتباى (١٤٦٨ — ١٤٩٦) وكان صاحبها يفتح الستارة أو يغلقها على باب الأمير أو الوزير .

وردت في قول ابن النبيه (٦١٩) :

قلت لليل إذ حبانى حبيبا
وغنـاء يسبى النهى وعقـارا
أنت يا ليل حاجتى فامنع الصبـ
ـح وكن أنت يا دجى بردداراً

ورحم الله ابن النبيه، أخذ قول المتنبي :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى
وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

فشوهه مرتين: شوهه بأن فرّقه فى بيتين .

وشوهه باستعمال كلمه البردّدار .

— البوقال (في الهندية پكهال ، وفى الفارسية بوقال وفى الفرنسية Bocal) .

وعاء واسع الفوهة قصير العنق أو هو كوز بلا عروة ورد فى شعر لابن أبى الزوائد يهجو امرأته:

قال : لما هززت مهندى وقذفته
فيها وقد أرهفته بصقال
رجع المهند ماله من حيلة
وهناك تصعب حيلة المحتال
وكأنمــا أولجته فى قلسة
قد بردت للصوم أو بوقال

الأغانى ١٢٣،١٤

ج: بواقيل

قال أبو نواس :

فمن رأى النيل رأى العين من كثب
فما أرى النيل إلا فى البواقيل

ديوانه ص ٥٦١

وقد ذكر البوقال فى اللسان وفى القاموس بلا شاهد ودون ذكر للجمع .

— البيكار فى الفارسية بيكار بالباء المشربة والكاف الفارسية ، وفى التركية العثمانية بيكار بالباء المشربة والكاف العربية ومعناها فى اللغتين القتال والحرب والمعركة .

وفى الفتح القسى فى الفتح القدسى لعماد الدين الأصفهانى « وقد نهك العسكر طول البيكار ، وأنضاه قتال الكفار ، بالليل والنهار » ص ٣٩٢ .

وفى المحاسن اليوسفية لابن شداد : وأسر (أى صلاح الدين الأيوبى) إلى ثقة عنده أن يمضى إلى الملك العادل ويقول له : إن نزلوا (يعنى الصليبيين) عن عسقلان فصالحهم فان العسكر قد ضجروا من ملازمة البيكار ، والنفقات قد نفدت » ص ٢٣٣ .

وفى صبح الأعشى : « مهمات الغائبين فى البيكار المنصور تلحظ » ، وكأنه أراد بالبيكار ها هنا الجيش إذ وصفه بالمنصور ١١ر٣٢٤ .

ج بياكر

وفى صبح الأعشى : « فليباشر ناظر الجيش هذا المنصب السعيد بأمانة تحفظ أوراق العساكر ، وتجلو الظلام العاكر ولتكن أوراق البياكر نصب عينيه حتى إذا طلبت منه أحضرها محررة الخ ١١,٣٢٤

– البيكارية : حلقة ذهبية كانت تعلق فى أحزمة الأمراء فى العصر المملوكى وهى منسوبة إلى البيكار والبيكار إحدى الصيغ التى عربت بها الكلمة الفارسية بركار أى الفرجار أو الرجل فالبيكارية كاملة الاستدارة مضبوطتها كأنما قيست بالفرجار .

وقد وردت كلمة البيكار بمعنى البرجل فى شعر لابن النبيه يتغزل ، قال رحمه الله .

وفى هندسىّ الشكل يسبيك لحظه

وخال وخد بالعذار مطرز

ومذ خط بيكار الجمال بخده

عذارا علمنا أنما الخال مركز (الديوان ٤٧٢) .

وقد نقل دوزى فعلا اشتقته العرب من البيكار وهو بيكر أى استعمل البيكار فى رسم دائرة ، ونقل أيضا عبارة (مشى على البيكار) أى استقام على الطريقة (بمنتهى الدقة) كما يقال فى لغتنا المعاصرة .

وفى النجوم الزاهرة فى الحديث عن الأفضل ناصر الدين محمد ابن الملك المؤيد إسماعيل «وفى وسطه ، حياصة ذهب بثلاث بيكاريات»أى بثلاث حلقات ذهبية. النجوم الزاهرة ٩,١٠١ .

– التخت : فى الفارسية تخت ومعناها العرش والسرير وكل ما ارتفع عن الأرض للجلوس أو النوم : والعاصمة للقطر من الأقطار ، واقتصر اللسان والقاموس على معنى واحد هو « وعاء تصان فيه الثياب » .

وفى صبح الأعشى : « فجلس مولانا السلطان (أى الظاهر بيبرس فى مرتبة

الملك فى أسعد وقت ونال التخت بحلوله أسعد البخت ثم أورد قصيدة فيها هذا البيت :

وماكان هذا التخت من حين نصبه

لغير المليك الظاهر الندب يصلح

١٤،١٥٥

وفى التبر المسبوك للسخاوى « وركب المنصور أبو السعادات من الدهيشة إلى القصر السلطانى بأبهة السلطنة وشيعه الخليفة راكباً ، ومشى الأمراء والقضاة فمن دونهم بين يديه إلى أن جلس على تخت الملكة » ص ٤٢٣ .

وفى النجوم الزاهرة ورد لصلاح الدين الصفدى هذا البيت الركيك :

لا تخت لى يشرف قدرى به .

إلا إذا ما كنت بى تختلى .

وفى منظومة تعليمية لطيفة فى التاريخ مخطوطة فى المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٦١٥ :

وجلس العادل فوق التخت

وكان سلطانا عظيم البخت

١٩ ب

وورد فى منظومة أخرى ملحقة بها :

بل خلعوه فى جلوس التخت

وكان خلعه نهار السبت

٣٤ب

وفى الجبرتى قال السيد جعفر بن محمد البيتى السقاف :

وتدرعت بالسمور وجلست على تخت

التيمور ١٣٣،١

ووردت بمعنى العاصمة فى قول الجبرتى

« فتلاقوا مع بونابرتة بعد استيلائه على تخت النيمسا فهزمهم أيضا ٤،٣٢ .

وقد اشتق أصحاب دواوين الإنشاء من كلمة التخت فعلا كما اشتقت العرب فعلا من كلمة تاج وفى صبح الأعشى وردت هذه العبارة :

« وإن أحق ما اتخذته الملوك ذريعة لدواعى الابتهاج وأهم ما اهتم به متخت بتخت أو متوج بتاج إحياء مذاهب الملوك السالفة » الخ ٧،٣٠٠ .

وفى نموذج لما يكتب به لكبير الكرج وردت هذه العبارة « الضرعام السميذع ، الكرار الغضنفر ، المتخت » . . إلخ ٨،٢٨

أى الذى أجلس على العرش .

وأما التخت بمعنى حقيبة الثياب فقد ورد فى يتيمة الدهر فى قول محمد بن عبد العزيز السوسى :

الحمد لله ليس لى بخت

ولا ثياب يضمهـا تخت

٣،٤٢٦

وربما كان التخت بالمعنى الموسيقى هو المراد فى هذه الأبيات لأبى بكر محمد بن المكرم الأنصارى الخزرجى :

أهنيك بالملك يا خير من
أجار البرايا ومن مارها
ومن ليس للأرض ملك سواه
تميل له الخلق أبصارها
وتملك سيب تكفـورها
وتركب بالجيش أوعارها
وتحكم فى المرء حكم الملوك
وتنشد فى التخت أشعارها

— التركاش : من الفارسية تيركش الكنانة أوجعبة السهام .

كتب أبو سعيد برقوق فى جواب الأمير تمرلنك : « وأما إرسالك السيف والتركاش لنا فقد عجبنا منه إلى الغاية ثم قال « وما سمعنا فى التواريخ ولا اتفق قط من جنكيز خان ولا ممن تقدمه أو تأخره من ملوك مملكته فى زمن من الأزمان أنه أهدى إلى خادم الحرمين الشريفين سيفاً ولا تركاشا ٧,٣٠٩ صبح الأعشى .

وفى النجوم الزاهرة « وألا يركب أحد من الأمراء بسلاح ولا تركاش ٩,١٤١

ووردت بصيغتها الفارسية تيركش بغير ألف فى قول الشاعر :

جعلت فدى الظبى الذى جاء لحظه
إلى سائر العشاق يحمل تركشا

ج تراكيش قال الشاعر .

ظبى من الترك أغنته لواحظـه
عما حوته من النبل التراكيش

انظر ترجمة الشاهنامة بقلم البندارى وتحقيق المغفور له عبد الوهاب عزام ١,١٣١

— الجنك : من الفارسية جنك بالجيم المشربة وقد عربت هذه الكلمة الفارسية قديما بصيغة (صنج) وتصرف فيها العرب حتى قالوا فى الأعشى : إنه صناجة العرب ، ولكنهم أخذوا اللفظ ولم يأخذوا الآلة فالصنج عند العرب قطعتان من صفر تضرب إحداهما بالأخرى وهو فى الفارسية آلة ذات أوتار ، قال المرحوم الشيخ أحمد النجفى : آلة من المعازف كانت فى القديم تستعمل فى الموسيقا ذات ستة وأربعين سلكا » وقال شتا ينجاس أنها العود .

ثم عربت هذه الكلمة مرة أخرى على قاعدة جديدة وذلك أن العرب جروا فى التعريب الأول على قاعدتهم فى قلب الجيم المشربة صادا فقالوا صنج كما قالوا فى (چين) الصين وفى (جك) الصك .

ولكنهم فى التعريب الثانى اكتفوا بقلب الجيم المشربة الفارسية جيما عربية والكاف الفارسية كافاً عربية وأخذوا فى المرة الأخيرة اللفظ والآله جميعا ، فالجنك عند المتأخرين آلة ذات أوتار كالجنك الفارسى قال الشاعر :

لا جنك لى تضرب أوتاره
إلا ثناءٌ يملىّ على جنكلى

(اسم مملوك) النجوم الزاهرة ١٠،١٤٤

وفى مخطوطة المعرب والدخيل لمصطفى المدنى .

بعثت لهم بجنكى بعد هـذا
لأقتلهم بأطراف الأنامــل

ج جنوك : نقل صاحب كتاب الروضتين .

« ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانه من كثرة الخمور والبرابط والعيدان والجنوك ١،١٥٥ .

— الدزدار (فى الفارسية دز بضم الدال أو دز بكسرها القلعة ودار بمعنى صاحب والدزدار هو حاكم القلعة .

وفى كتاب الروضتين « فلما علم الشهيد ذلك سار إلى بعلبك وحصرها عدة شهور فملكها عنوة وترك بها نجم الدين أيوب والد صلاح الدين دز دارا ١،٣٤ .

وفى الجزء الثانى من الكتاب نفسه : فلما شكى أحضر بالقلعة وضرب على رأسه فسقطت عمامته فلما أطلق لينزل أرادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل وقال والله لا أغطيه حتى ينتقم الله فلم يمض غير قليل حتى توفى الدز دار المباشر لأذاه .

٢،١٨

والدزدارية اسم وظيفة الدزدار وفى الكتاب نفسه « وأمر له بدزدارية قلعة كواشى » ١،٤٣ وتتصل بكلمة دز كلمة قهندز فهى فارسية من كهن بمعنى قديم لغة فى الكلمة العامية المعربة كهنة فالقهندز إذاً القلعة القديمة يقول ياقوت ولا يقال قهندز فى القلعة إذا كانت مفردة فى غير مدينة مشهورة .

ويضبط ياقوت اللفظ المعرب على هذا النحو قهندز بفتح أوله وثانيه وسكون النون وفتح الدال وزاء .

وفى الجزء الرابع من اليتيمة بتحقيق المرحوم الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد .

قال أبو الحسن على بن الحسن اللحام الحرانى .

كان حرا فصار نبز كل أنبز

عذب الله نفسه فى حبوس القمندر

(بالميم) قال المغفور له الشيخ محيى الدين ولا يستقيم له عندنا وجه اهـ .

وواضح أن النص الذى اعتمد عليه الشيخ محرف رسمت هاؤه ميما وصوابه :

عذب الله نفسه في حبوس القَهَنْدَز
اتباعا لضبط ياقوت

والمعنى رماه الله بالسّجن في القلعة القديمة وكانت القلاع القديمة تحول محابس وسجونا .

الرنك : من الفارسية رنك براء مفتوحة ونون ساكنة وكاف فارسية بمعنى اللون والصبغ وهى فى الاصطلاح التاريخى الشعار و (الأرما) والبنديرة .

وفى النجوم الزاهرة « وصار المتحدث فيهم فطلقتمر العلائى الطويل ، وضرب رنكه على اصطبل شيخون بالرميلة تجاه باب السلسلة ١١،١٥٨ .

وفى شعر للشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة التلمسانى .

لآل رسول الله جاه ورفعة
بها رفعت عنا جميع النوائب
وقد أصبحوا مثل الملوك برنكهم
إذا ما بدوا للناس تحت العصائب

وفى ديوان ابن النبيه :

بتنا وقد لف العناق جسومنا
فى بردتين تكرّم وتعفّف
حتى بدا فلق الصباح كجحفل
راياته رنك المليك الأشرف
ص ٤

وقال أيضا :

يا شبيه الغصون رفقاً بصب
نائح فى الهوى مع الورقاء
يا لها دمعةً على الخدّ حمرا
ء بدت من سوداء فى صفراء
فكأنى حملتُ رنك ابن أيّو
ب على وجنتى لفرط ولاء

ويفهم من هذا أن شعار الأيوبيين كان علامةً سوداء على أرض صفراء .

— الدست : فى الفارسية دست : كرسىّ الحكم وصدر المجلس ومجلس الوزير ، والمجلس بعامة .

وفى يتيمة الدهر قال أبو بكر الخوارزمى .

وأبيض وضّاح الجبين كأنما
محياه قد درت عليه شمائله
يُقبِّل رجليه رجال أقلهم
تقيل فى الدست الرفيع أنامله

وقال أيضا :

وفى الدست شخص ودت الأنجم التى
تقابله لو أنهن مجالس
فلا تعجبوا أن تحمل الدست عسكرا
فما كل أمرٍ تقتضيه المقايس

وفى ديوان ابن النبية يمدح :

ما بين سدرته وسدة دسته
نبأ يقر له الكفور الملحد

وفى الروضتين قال الشاعر :

كأن فى الدست منه حين تنظره

شمس النهار وصوب العارض الهتن

وفى صبح الأعشى :

وما خلا منهم هذا الدستُ الكريم إلا وهم بالأولوية فى صدره جلوس ، ولا تصدى غيرهم لتعاطيه إلا وأقبلت عليه فى أيامه الحسوم وعليه النفوس ١١٢٧٦ .

وفى شفاء الغليل نقل الشهاب الخفاجى هذا البيت فى هجاء وزير :

من آلة الدست ما عند الوزير سوى

تحريك لحيته فى حال ايماء

(٩٧)

وأما الدست بمعنى القدر الواردُ فى فى قول العامة بمصر (يكفى من الدست مغرفة) فربما كان هو الوارد فى قول ابن نباته (٧٦٨ هـ) .

قلبى بكانون على ناره

وسيدى يلعب فى دسته

(ديوان ٧٨)

– الشربوش : تعريب الكلمة الفارسية سربوش أى غطاء الرأس وفى النجوم الزاهرة : فركب وعليه خلعة أطلس ، بطرز زركش أو شربوش مكلل مزين (٩،٩٩) ووردت كلمة شربوش فى شعر ابن النبيه يمدح الأشرف موسى الأيوبى ، قال :

أشكو إلى الله ملولاً إذا

قلت انتهى من هجره يبتدى

البدر فى مكسر شربوشه

حُفَّ بليل الشعر الأسود

وقال أيضا :

ترى قُندس الشربوش فوق جبينه

كأهداب أحداق يحُفن من البدر

ثم عربت الكلمة الفارسية سربوش مرة أخرى بكلمة طربوش .

والرأى أن هذه الكلمة الأخيرة منحوتة من كلمتى طرطور وسربوش باحلال المقطع العربى (طر) محل المقطع الفارسى (سر-) وقد نحت العرب المحدثون كلمات جديدة على نحو ما نحتوا كلمة طربوش ، ومن ذلك الكلمة الشائعة فى مصر (تشهيل) فهى فيما يقول جان دنى نقلا عن بعض علماء العربية بالقاهرة فى عشر العشرين من هذا القرن منحوتة من كلمتى تسهيل بالسين المهملة وتشغيل بالشين والغين المعجمتين .

وكلمة طرطور التى يظهر مقطعها الأول فى كلمة طربوش عربية فصيحة وفى التاج قال الشاعر :

قد علمت يشكر من غلامها

إذا الطراطير اقشعر هامها

والمراد بها فى البيت الرجل الطويل الضعيف لا غناء فيه ووردت أيضا بمعنى الغطاء الطويل للرأس فى شعر أبى القاسم ابن الفضل المعروف بابن القطان المتوفى سنة ٥٨٨ هـ يهجو أبا الفوارس شهاب الدين سعد بن محمد الصيفى المعروف بحيص بيص المتوفى ٥٧٤ هـ قال :

كم تنادى وكم تطوّل طرطو
رك ما فيك شعرةٌ من تميم
فكل الضب واقرض الحنظل اليا
بس واشرب ما شئت بول الظليم

النجوم زاهرة ٦،٨٣

ولم تكن كلمة الطرطور بمعنى غطاء الرأس ضحكة فى ذلك الزمان فقد كانت الطراطير تزركش بالذهب والفضة وفى كتاب السلوك : « يحمل الطراطير المذهبة عليها عمائم القطن » (77) .

٦ — القُلْتَق « الحلْقة » من التركية قولاق بمعنى الأذن وعروة الزنبيل ونحوه .

استعملها المولدون بمعنى معقد الحزام الذى يدخل فيه أى ما يعرف فى العامية المصرية بالطوقة وقد نقل محبى (١١١١ هـ ١٦٩٩ م) هذين البيتين :

وشاحٌ من أحبته قال لى
وهو الذى فى قوله قد صدقْ
قد ضاع منى الخصر لما انثنى
أما ترانى دائراً فى القُلْتَقْ

— الكزلك :

فى الفارسية كِزلِك بكسر الكاف واللام مدية قصيرة السلاح ، طويلة المقبض ؛ كانت تستعمل للبراية ، وينقل شتا ي جاس فى معجمه أنها كانت تستورد من مصر .

وفى التركية كَزلِك بفتح الكاف وكسر اللام : حد السيف المقوس .

وفى صبح الأعشى ، فى لُبس أرباب المناصب السلطانية فى الدولة الأشرفية خليل بن قلاوون « وأما ثياب أبدانهم فيلبسون الأقبية التترية والتكلاوات فوقها ثم القباء الإسلامى فوق ذلك يشد عليه السيف من جهة اليسار والصولق (أى المخلاة) والكزلك من جهة اليمين .

وقد شاع استعمال الكزلك فى مصر لسكين المطبخ حتى زمن قريب .

— الكماج : نوع من الخبز الأبيض ، كان ينضج بأن يدفن فى الرماد وأقدم نصٍّ رأيت فيه الكلمة هو ديوان لغات الترك لمحمود بن حسين الكشغرى (ت ٤٦٦) وورد بصيغة كمج ثم رسمها بسيم آتا لاى فى ترجمته لهذا المعجم التركى العربى.
Komec

والكلمة من المصدر التركي كومك بمعنى أن يدفن ، وقد دخلت الفارسية وذكرها صاحب « برهان قاطع » بثلاث صيغ كماج وكماج بالجيم المشربة وكوماج براو بعدالكاف ، ولم يذكر أنها دخيلة .

وفي خطط المقريزي : وكانت الدولة قد توقفت أحوالها فوفّر من المصروف في كل يوم أربعة آلاف رطل من اللحم وستمائة كماجه سميذ ٣,٨٠ .

وفي النجوم الزاهــرة : وجهّزت الأفران وصناع الكماج والجبن المقلى ٩,٥٨ .

ونقل دوزى عن حكاية الحدّاد وهي مخطوطة في ليدن هذه العبارة : كم جامكيتك يا أحمد ؟ قال عشرة دنانير كل شهر وكماجة وثلاثة أرطال لحم في كل يوم وجوخة في كل سنة .

الكنبوش : في الفارسية كن بمعنى الكفل ويوش أي الغطاء .

والكنبوش ما يُستر به مؤخر ظهر الفرس وكفاه وهو تارة من الذهب الزركش ، وتارة من الخايش وهي الفضة الملبسة بالذهب ، وتارة يكون من الصوف المرقوم ، وبه يركب القضاة وأهل العلم (صبح الأعشى ٢,١٣٥) .

ونقل أبو شامة في الروضتين قول العماد الأصفهاني يستهدى نور الدين زنكي كنبوشا :

أصبحت بغلتي تشكي من العر
ى وأسراجها بلا كنبوش
ج كنابيش .

وفي خطط المقريزي : فلبس الجميع التشاريف والخلع والأقبية وأركبوا الخيول المحضرة إليهم من الاصطبل السلطاني بسروج وكنابيش ما بين ذهب وفضة حسب مراتبهم (خطط ٢,٤١٧) .

ويستعمل الكنبوش بمعنى الخمار ، وقد نقل دوزى هذا النص : وتتخذ النساء بها (أي بمدينة تلمسان) من الصوف أنواعاً من الكنابيش لا توجد في غيرها .

الوجاق : من التركية أوجاق بضم الهمزة ضمة مبسوطة مضخمة ، ومعناه الأول في التركية الموقد ، وقد عربت الكلمة في صيغة وجاق ، وذكرت في كتاب (بسط مدد التوفيق) في الفتوه ، بمعناها هذا الأول أي الموقد ففي ذلك الكتاب الذي ترجمه Thorning إلى الألمانية سنة ١٨٦٨ يلقن المرشح عهد الفتوة بطريقة : إن قيل لك كذا فالجواب كذا ، وقد ورد به هذا النص :

إن قيل لك أين انطبخت لقمتك ومن سبكها ومن أكلها ومن كان حاضرها ؟ فالجواب : في وجاق الرحمن انطبخت وحضرها ملائكة المنان وسبكت بالفاتحة أم القرآن . . الخ ص ٤ .

ثم توسع فى معناها فى التركية فبعد أن كانت تطلق على الموقد أطلقت على كل ما تنفخ فيه نار ، فأطلقت على البيت من وبر أو مدر ، ثم على أهله ، ثم على الجماعة تتلاقى فى مكان واحد ، ثم أطلقت على الطائفة من طوائف أرباب الحرف ، وعلى الصنف من أصناف الجند ، وفى الروضتين نقلا عن ابن شداد (٦٣٢) حتى وصلوا إلى المخيم العادلى قبل استتمام ركوب العساكر ودخلوا فى وجاقه وامتدت أيديهم فى السوق وهى هنا بمعنى الخيمة أو المعسكر .

وكانت العساكر العثمانية التى تركت فى مصر بعد عودة السلطان سليم أربعة وجاقات ثم زادها ابنه السلطان سليمان سنة ١٥٢٤ وجاقين فصارت ستة وجاقات ثم صارت فى سنة ١٥٥٤ سبعة وجاقات هى : وجاق الانكشارية ووجاق العزب ووجاق الجملية ووجاق التفكجية ووجاق الجراكسة ووجاق الجاويشية ووجاق المتفرقة .
وقد كان الجبرتى يذكر هذه الوجاقات أحيانا باسم البلكات ١،٣٥ .

arthisans et Commers ants au Caire
au XVIII c Siecle 1973

طبع دمشق

الرئيسى :

ومما درس من ألفاظ الحضارة فى ذلك العصر طائفة من الألقاب ألحقت بها ياء النسب للمبالغة مثل العالى والناسكى والكبيرى والسفيرى . يقول القلقشندى فى اللقب الأخير «ولم يستعمله الكتاب مجردا عن الياء لأن رتبته عالية لا يليق بها حذف الياء ٦،١٤٣ .

ويقول فى لقب الظهيرى : لم يستعملوه مجرداً عن ياء النسب لاختصاص المظاهرة بأكابر أرباب السيوف وهو بغير الياء لا يقع إلا على الأدوان منهم» .

وكانت ياء النسب تلحق بأفعل التفضيل المقرون بأل لزيادة المبالغة . فكان يقال فى ديباجات بعض الرسائل : الأجلى الأكملى ، الأوحدى .

وكلمة الرئيسى التى نستعملها الآن بقية باقية من العصر المملوكى ، يقول القلقشندى بعد حديثه عن الرئيس بالهمز والريس على قيم «والرئيسى نسبة إليه للمبالغة وغالب ما يستعمله الكتاب كذلك أ هـ .

وما زال بعض علماء العربية ينكرون الرئيسى بالياء ويستعملون فى مكانه (الرئيس) فيقولون مثلا : التوتر هو السبب الرئيس لضغط الدم أو سبب رئيس لضغط الدم ولكن كلمة الرئيسى

قديمة عاشت من أوائل العصر المملوكي إلى الآن وقد اصطلحنا جميعا على أنها الترجمة العربية المثلى لكلمة Principal

فلعل الرئيسى بنسب المبالغة تصحح ويستعملها المعرضون عنها ، فهى بمعنى الرئيس بل هى رئيس وزيادة .

وشكراً لكم أيها السادة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

احمد السعيد سليمان
عضو المجمع



المستشرقون الفرنسيون
وتعليم اللغة العربية للأوربيين فى الجزائر
1830 - 1914

للدكتور أبو القاسم سعد الله

عندما يذكر الاستعمار الفرنسى للجزائر يتبادر إلى الأذهان موقفه من اللغة العربية والمشهور عنه أنه حارب هذه اللغة بمختلف الوسائل حتى عجم لسان أهل الجزائر أو كاد وفرض عليهم لغته الفرنسية. وبحثنا هذا ليس تأكيدا أو نفيا لهذا الموقف، وإنما هو يتناول جانبا آخر، وهو توظيف الفرنسيين للغة العربية لمصالحهم الاستعمارية فى الجزائر ومدى نجاحهم أو فشلهم فى ذلك، والطرق التى استعملوها للوصول إلى ذلك الهدف، والأشخاص الذين جندوهم لتحقيقه، والمراحل التى مرت بها التجربة التى قد تكون فريدة من نوعها.

وهناك تطورات ارتبطت بهذه التجربة نذكرها اختصارا قبل الدخول فى الموضوع وهى :

أولا : أن الحملة الفرنسية على الجزائر قد وقعت بعد ثلاثين سنة من الحملة الفرنسية على مصر، وهى الحملة التى تركت بصماتها على الشرق وجعلت الاستشراق الفرنسى ينشط فى تحقيق ما عجز عليه الجيش. وسنرى أن الفرنسيين استفادوا فى الجزائر من تجربتهم فى مصر من عدة نواح وخصوصا فيما يتعلق باللغة العربية.

ثانيا : أن بقايا المترجمين فى حملة نابليون الفاشلة على مصر هم الذين تولوا الترجمة لجيش بورمون (1) فى الجزائر. وكان من هؤلاء التراجمة رجال « مشارقة » من مصر وسورية (2)، ورجال « أوربيون » من فرنسيين وغيرهم.

(*) ألقى فى الجلسة السابعة يوم الأحد ٢٧ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م.

(1) الكونت دى بورمون كان وزيرا للحربية فى عهد شارل العاشر، وتولى قيادة الحملة الفرنسية، وقد عزل بعد أقل من شهر من احتلال مدينة الجزائر لأن انقلابا حدث فى فرنسا أطاح بعرش شارل العاشر وجاء بالملك لويس فيليب يوليو 1830.

(2) يقول شارل فيرو (مترجمو جيش أفريقية)، الجزائر 1876، أن معظم المترجمين الأوائل فى الجيش الفرنسى كانوا من مواليد بلدان عديدة : سورية، مصر، تونس، الجزائر، طنجة، مالطة، إلخ. انظر المقدمة.

ثالثا : إن نجاح الحملة الفرنسية وعمليات التوسع فى الاحتلال وما رافق ذلك من نشأة الإدارة الفرنسية ومن استيطان آلاف الأوروبيين فى الجزائر ، كل ذلك جعل معرفة الفرنسيين للغة العربية أمرا ضروريا لكى يسهل عليهم الاتصال بالجزائريين (أو الأهالى كما كانوا يسمونهم) . فواضح إذن أننا نتكلم هنا عن معرفة الفرنسيين وليس الجزائريين للغة العربية .

فكيف بدأت وتطورت هذه المعرفة الفرنسية للغة العربية فى الجزائر ؟

[لقد بدأت بتجنيد فرقة من المترجمين لمرافقة الحملة ، أطلق عليها « فرقة المترجمين العسكريين » رغم أن منهم القسيس والمدرس والتاجر وهلم جرا ، وقد كان بعض هؤلاء من مواليد مصر وسورية وبعضهم من تلاميذ سليفستر دى ساسى (1) عميد مدرسة اللغات الشرقية بباريس حينئذ ، ومن المترجمين الشرقيين نذكر زكار الذى تعاون مع دى ساسى على ترجمة البيان الفرنسى للجزائريين قبل نزول الحملة ، وهو من مواليد دمشق(2) . وأثناء وجوده بالجزائر قام زكار بتدريس اللغة العربية للاوروبيين مدة ثلاث سنوات . ومنهم جورج غروى السورى الأصل أيضا والذى وزع البيان المذكور على الجزائريين ثم غامر بحياته وذهب إلى الداى (الباشا) طالبا منه التفاوض والخضوع لمطالب الفرنسيين فقتله ، ومنهم أيضا إبراهام دنينوس الذى كان من مواليد الجزائر (3) . وقد كتب عدة أعمال عن اللغة

---

(1) دى ساسى de Sacy (1758—1838)) لم يزر الجزائر ، ولكنه شجع على إنشاء كرسى العربية فيها وهو الكرسى الذى تولاه عدد من تلاميذه ، وعلى رأسهم برينييه Bosnier ويعتبرونه «منشيء علم الاستشراق بأوروبا » ومن مؤلفاته قاموس عربى — فرنسى انظر عنه (حوليات معهد الدراسات الشرقية) ، الجزائر م 3 1937 ، ص1—5 وكذلك عبد الرحمن بدوى (موسوعة المستشرقين) ، بيروت ، 1984 ، ص226—232 .

(2) جان شارل زكار ، ولد بدمشق سنة 1789 ثم أصبح قسيسا فى إحدى كنائس مرسيليا ، وعند الإعداد لحملة الجزائر سمى مترجما فيها مع بقائه على وظيفه الدينى حتى أنه هو الذى ألقى أول قداس فى مدينة الجزائر على أثر الإحتلال وبحضور زعماء الحملة ، ثم أصبح ملحقا بمكاتب الولاة للفرنسيين الذين تداولوا على الجزائر إلى عهد بوجو (1845) وفى هذه السنة وضع تحت تصرف أسقفية الجزائر الناشئة .

(3) دنينوس Daminos ولد بالجزائر سنة 1797 ، وقد تعلم العربية وأصبح مترجما بها فى إحدى المحاكم بفرنسا وعند توجه الحملة إلى الجزائر (1830) عين المترجم — الدليل لها انظر شارل فيرو (مترجمو جيش أفريقية) ، الجزائر 1876 ، ص 19 انظر عنه أيضا هنرى ماسيه (الدراسات العربية فى الجزائر 1830—1930) منشورات (المجلة الأفريقية) ، رقم 356—357 , 1933 ، ص 2 .

العربية منها معجم عربى فرنسى ، وزع على ضباط الحملة . إضافة إلى جونى فرعون الذى كان من مواليد القاهرة ، والذى سيرد ذكره .

وبعد الحملة بدأت عمليات الاحتلال وإقامة المنشآت الإدارية والاستيطان ، واحتاج النظام الاستعمارى إلى معرفة البلاد وأهلها ، وكانت اللغة العربية هى الوسيلة الضرورية لهذه المعرفة . وكانت العربية فى الجزائر تعتمد ، مثلها فى ذلك مثل العربية فى مختلف أقطارها ، على الفصحى كلغة ثقافية مكتوبة ، وعلى العامية كأداة اتصال بين السكان متعلمين وأميين ، بل إن المدن الساحلية ، وخصوصا مدينة الجزائر ، كانت تتوفر على لهجة تكاد تكون دولية ، وتسمى باللغة الافرنجية (Langua Franca) وهى عبارة عن مفردات خليط يتداولها التجار والبحارة لقضاء مآربهم فى موانىء البحر الأبيض . وتتألف من كلمات عربية وتركية وإيطالية وأسبانية وبروفانسالية الخ وليست هذه اللغة الخليط هى الوسيلة التى سيفهم بها الفرنسيون الجزائريين ولا هى اللغة الإدارية أو العامية التى سيعتمدونها فى مصالحهم ، فلابد إذن من البحث عن وسيلة أخرى .

يقول أحد المستشرقين الفرنسيين : لقد كان على « السادة الجدد » (يعنى الفرنسيين) أن يستعملوا اللغة العربية فى الإدارة وفهم السكان ولا يمكن مطالبة المنهزمين (يعنى الجزائريين) تعلم لغة الغزاه فورا . بالإضافة إلى أن نشر اللغة العربية بين الضباط والموظفين كان يعتبر وسيلة قوية للتقارب بين الاعراق (racas) التى يبعدها عن بعضها الأصل والدين والعادات . لقد كان كل واحد مقتنعا بذلك وكان الرأى العام كله مع هذه الفكرة (1) .

فاللغة العربية فى الجزائر كانت لغة الحديث منذ قرون ، ودراستها بطريقة جادة يمكن أن تقدم للفرنسيين فوائد جمة ، وذلك باقامة علاقات عديدة مع الأهالى والتعرف أكثر على الشعب « الذى دعينا ليس فقط لحكمه ولكن لإدخاله بالتدرج إلى عالم أفكارنا وحضارتنا » وبذلك يتعرف الفرنسيون على حاجة الجزائريين ورغباتهم وآلامهم لكى « نجعلهم يتذوقون تحسيناتنا ويتعودون على اعتبارنا كحماة لمصالحهم وممدنين لبلادهم وليس كغزاة تساندهم الأسلحة » ويضيف هذا المستشرق الخبير فى شؤون الاستعمار : أن دراسة أدب الجزائريين سيؤدى إلى معرفة

---

(1) نقل ذلك كور A. Cour (ملاحظات على كراسى اللغة العربية فى الجزائر) ، فى المجلة الأفريقية ، رقم 318 ، 1924 ص20 ، نقلا عن فورميسترو Fourmestraux فى كتابه (التعليم العمومى فى الجزائر من 1830—1880) ، باريس ، 1880 .

عبقريتهم وأصالة فكرهم وشعرهم المؤثر ، ومعرفة كتبهم فى العلوم والتاريخ والفقه والدين ، ومن ثمة معرفة أصول أفكارهم وأحكامهم وتقاليدهم » (1) وقد عبر أكثر من واحد على حاجة الفرنسيين إلى تعلم العربية للأغراض المذكورة (2) . ولكن ذلك لم يكن محل اتفاق مطلق ، كما ادعى البعض بل إن هناك من الفرنسيين من ذهب إلى أن على الأهالى أن يدرسوا اللغة الفرنسية بصفتهم مغلوبين ، وليس على الفرنسيين أن يدرسوا اللغة العربية لأنهم هم الغالبون (3) .

وأول من عهد إليه الفرنسيون بتدريس اللغة العربية للأوروبيين فى الجزائرهو جونى فرعون الذى كان من مواليد القاهرة (4) ، وكان أول أستاذ للغة العربية فى الجزائر فى العهد الفرنسى وقد ألف عدة كتب لتلاميذه وكون منهم معربين بارزين فى صف الجيش

---

(1) كور ، ص 31—32 .

(2) انظر مثلا فيرو ، ص 19 .

(3) كتب ذلك ماشويل L. Machuel ، أستاذ اللغة العربية فى ليسية الجزائر ، سنة 1875 انظر كتابه (طريقة لدراسة العربية للعامية (Méthode pour l'Etude de l'Arabe Parlé) ، مقدمة ط . 2 وقد أعيد طبع الكتاب عدة مرات .

(4) ولد جونى فرعون فى القاهرة سنة 1803 وأبوه هو الياس فرعون السورى الأصل ، وقد عمل الياس مترجما فى الجيش الفرنسى أثناء الحملة على مصر . وبعد خروج الحملة من مصر رافق جونى والده إلى فرنسا ، والتحق بمدرسة اللغات الشرقية بباريس وأصبح سنة 1821 أستاذ اللاتينية فى كوليج سان بار ثم فى سنة 1825 أستاذا للفرنسية فى الكوليج المصرى بباريس، ثم بعد سنتين أصبح مشرفا على التلاميذ المصريين الضباط بمدينة طولون . وعند انطلاق الحملة على الجزائر من طولون انضم جونى إليها . وفى سنة 1831 أصبح مترجما وكاتبا خاصا فى الإدارة الفرنسية الجديدة بالجزائر وفى سنة 1833 عمل كاتبا (سكرتيرا) ومترجما للجنة الأفريقية التى أرسلتها حكومة باريس إلى الجزائر لتحقق فى الأوضاع وتوصى إما بالاحتفاظ بالجزائر وإما بالجلاء عنها . ولازم جونى اللجنة ثلاثة أشهر مما جعله يتوقف عن دروسه . ويقول عنه فيرو أنه قد أدى خدمات عديدة ومتنوعة لفرنسا وقد ظل يؤدى هذه الخدمات إلى وفاته بفرنسا (saumur) سنة 1846 انظر عنه فيرو ، ص 229—232 ، وكور ، ص 21 ، وماسيه ، ص 3—4 .

الفرنسى مثل لاموريسيير (1) ، وبيليسيى دى رينو (2) ، ودوماس(3) ، الخ .

أما قصة اسناد دروس اللغة العربية إلى جونى فرعون فنسوقها باختصار . فقد جاء إلى الجزائر متصرف مدنى ، اسمه جنتى دى بوسى de Bussy كان يحمل أفكارا حضارية يريد غرسها فى الجزائر تتلاءم مع سياسة سيده الدوق دو رفيقو (قائد جيش الاحتلال) التى قال عنها « إن الجزائر لن تكون فرنسية فعلا إلا إذا أصبحت فيها لغتنا (الفرنسية) هى السيدة وانتشرت فيها الفنون والعلوم التى شرفت بلادنا » وبناء على هذه التوصية قام دى بوسى بإنشاء مكتبة عامة جعل نواتها من المخطوطات العربية التى جمعت من المساجد وغيرها ، ومطبعة عربية — فرنسية لطبع المنشورات الرسمية ، وجريدة باسم Le Moniteur Algérien بالفرنسية لنشر أخبار الحكومة ، ومن ذلك انشاؤه لدروس فرنسية موجهة لحضر الجزائر ويهودها ، ودروس بالعربية للأوروبيين .

والملاحظ هو أن دى بوسى جعل دروس الحضر واليهود إبتدائية ولم يولها الاهتمام الذى أولاه لدروس العربية الموجهة إلى الأوروبين فلم يشترط هناك فى الاستاذ ولا فى المستوى ما اشترطه هنا ، ولكنه جعل كل الدروس عامة ومجانية . واشترط فى أستاذ العربية مؤهلات عالية . فأرسلت إليه الوزارة من باريس أنها وضعت تحت تصرفه أستاذ اللغة العربية فى كوليج لويس لوقران Louis le Grand واسمه أعقوب (يعقوب) المصرى ولكن هذا توفى قبـــل التحاقه (4) . عندئذ أسند دى بوسى تلك الوظيفة إلى جونى فرعون ووضع تحت تصرفه بناية تابعة للإدارة ، وهكذا أخذ جونى يعطى دروسا مجانية

(1) لامور سيير ، كان من أتباع حركة سن سيمون ، وتزوج من جزائرية ، وتولى الشئون العربية فترة فى الإدارة الاستعمارية ، وإليه سلم الأمير عبد القادر سيفه وجواده عند هزيمته سنة 1847 وقد ترقى فى الجيش حتى وصل إلى رتبة جنرال .

(2) اشتهر بكتابه (الحوليات الجزائرية) فى جزئين وبعد أن تولى عدة وظائف فى الجزائر . عين قنصلا لبلاده ، فى طرابلس وفى هايتى وغيرهما توفى سنة 1853 أنظر عنه المجلة الأفريقية رقم 11 (1858) ، ص 419—421 .

(3) يوجين دوماس ، تولى قنصلية فرنسا فى معسكر ، عاصمة الأمير عبد القادر ، 1837—1839 كتب عدة كتب عن (المرأة العربية) و (الخيول العربية) ، والكتاب الأخير مترجم إلى الإنكليزية وترقى إلى رتبة جنرال .

(4) كذا مكتوبا فى المصادر الفرنسية (Agoub) ، وكان يعقوب فى خدمة الحملة الفرنسية على مصر ، ثم خرج معها إلى فرنسا حيث بقى مترجما ومدرسا للغة العربية إلى أن وقع تعيينه فى الجزائر الذى لم ينفذ إذ توفى قبل التحاقه وكان يعقوب من أقباط مصر ، وقد ألف مجموعة من القصص الخيالية العربية باللهجة العامية تحت عنوان (المزهر Lyre) انظر كور ، ص 24 .

ورسمية للأوروبيين أيام الثلاثاء والخميس والسبت من الثالثة إلى الرابعة ، ابتداء من 1832 / 12 / 6

وتذكر المصادر الفرنسية أن دروس جونى فرعون العربية كانت ناجحة للغاية ، فكان جمهورها الأوربى قد ضاقت به البناية مما اضطر جونى إلى تبديل المكان عدة مرات لضيقه . وفى هذه السنة أيضا أصدر جونى فرعون أول كتاب فى النحو العربى ، وهو كتاب مدرسى موجه لتلاميذه (1) . وخلال السنة الموالية أصبح لجونى فرعون درسان فى العربية — وكلاهما بالعامية — درس عام يبدأ من منتصف أكتوبر على الساعة الحادية عشر والنصف ، ودرس خاص بالأشخاص الذين لا يستطيعون حضور الأول ، ولم تكن الدروس مجانية بل أنه جعل رسما بـ 45 فرنكا على الدرس الخاص للفرد ، ومدته ثلاثة أشهر ، ثلاث مرات أسبوعيا بمعدل ساعة لكل مرة . وبالإضافة إلى تدريس العربية (العامية) للأوربيين ، وتأليف الكتب المدرسية لتلاميذه ، كلفته الحكومة الفرنسية بوضع تقرير عن المصطلحات العربية فى القضاء الاسلامى وفى التوثيق بالمحاكم ، كما أنه ساهم فى انشاء فرقة خاصة بالمترجمين المحلفين القضائيين (سنة1835) ، إلى جانب فرقة المترجمين العسكريين (2) .

ورغم الدور الذى لعبه جونى فرعون فى تدريس العربية للأوربيين ونجاحه المنوه به فى المجالات الأخرى ، فإنه كان ينظر إليه على أنه ليس من أصل فرنسى ، وأنه لم يكن مستشرقا بالمعنى الدقيق للكلمة وعندما ، استحدث الفرنسيون كرسى اللغة العربية

Chaire de langue arabe

فى الجزائر سنة 1832 ، استشاروا عميد المستشرقين فى باريس فى الشخص الذى يقترحه له ، فأشار عليهم بتلميذه لويس برينييه (3) Breasnier ، ومنذ ذلك الحين

(1) يذكر كور ، ص24 ، أنه أول كتاب صدر عن المطبعة الحكومية بالجزائر وهو فى اللهجة العامية التى لا ندرى من أين تعلمها جونى فرعون ، ويذكر ماسيه أن عنوان الكتاب هو (النحو الإبتدائى للعربية الدارجة أو الجزائرية لاستعمال الفرنسيين) وأنه صدر سنة1832 كما يذكر نفس المصدر أن جونى فرعون قد حاول تبسيط الكتاب باصداره فى السنة الموالية بعنوان (موجز النحو العربى المبسط والمنقح) انظر أيضا ماسيه ، ص 4 .

(2) كان المترجمون العسكريون هم صلة الوصل بين الجزائريين وسلطات الإحتلال ويذكر شارل فيرو ، ص86 ، أن سمعة هؤلاء المترجمين كانت سيئة وغير مشرفة إلا ما ندر فقد كانوا خليطا من مختلف الأجناس ، وأضيف إليهم بعض الأهالى الذين يعرفون شيئا من الفرنسية ، كما انضم إليهم عدد من اليهود الجزائريين لأنهم كانوا أكثر صلة بأوربا من المسلمين بحكم المعاملات التجارية مع أهلها .

(3) انظر ماسيه ، 5—9 وقد خصص له عبد الرحمن بدوى فى (موسوعة المستشرقين) بضعة أسطر فقط ، ص56—57 ، ولم يذكر أن العربية التى كان يعلمها برينيية إنما هى العامية ، كما أنه لم يذكر أهداف التعليم الذى كان يقدمه ، وقد اعتمد بدوى فى ذلك على مرجعين . انظر عنه كور ، ص27—39 وما بعدها .

تحول درس Cours العربية إلى كرسي Chaire العربية وتولى برينييه مكان فرعون .

وتذكر المصادر الفرنسية أن برينييه خير مؤهل لهذه المهمة . فهو مستشرق بالاختصاص وفرنسي بالأصالة ، ومن تلاميذ مدرسة اللغات الشرقية وعلى رأسها دى ساسى ، ومن شيوخه أقطاب الاستشراق الفرنسى عندئذ : كاترمير ، وجوبير ، وغارسان دى طاسى ودى بيرسوفال ، وجان مارسيل . وكان برينييه من مواليد مونتقرى Montegris سنة 1814 ، اشتغل فى الطباعة أول الأمر ثم شغف باللغات الشرقية وجاء إلى باريس لدراستها على أهل الاختصاص فى مدرسة اللغات الشرقية . وقد استمر برينييه فى تولى كرسى العربية فى مدينة الجزائر من 1836 ، إلى وفاته سنة 1869 .

وأثناء ذلك ألف عدة كتب لتلاميذه سنذكر بعضها وشارك فى عدة مشاريع علمية مثل مشروع (اكتشاف الجزائر العلمى) الذى أشرفت عليه الحكومة الفرنسية (1849) ، وتأسيس الجمعية التاريخية الجزائرية (1856) والمجلة الأفريقية المجسدة لنشاط هذه الجمعية . كما أنه أخرج أفواجا من المترجمين (العسكريين والقضائيين) والمدرسين للغة العربية فى الجزائر .

افتتح برينييه أول درس له فى العربية العامية خلال يناير 1837 . وتنوه بالدرس وصاحبه نشرته الجريدة الرسمية عندئذ (لومونيتور) بحذافيره . وجاء فيه أن الهدف من هذا الدرس العام هو تعريف الأوربيين بمبادىء اللهجة العامية فى « ممتلكاتنا الأفريقية » (الجزائر) وبمبادىء اللغة المكتوبة . وأشار إلى أن معرفة العربية قد أحس بها جميع الفرنسيين فى الجزائر فهى التى يتكلم بها الأهالى وهى المستعملة فى جميع العلاقات العائلية والتجارية وقال لأن كل فرد من الفرنسيين يشعر بضرورة توصيل حاجته إلى الأهالى دون واسطة . ونوه كذلك باللغة العربية فقال إنها غنية جدا فى تعابيرها ، وغنية جدا فى أشكالها ، ورشيقة جدا فى أساليبها ، والفرق بين المكتوبة والمنطوقة يشكل ما سماه الآخرون قبله : العربية الأدبية والعربية الدارجة . وعدد برينييه الفروق بين الفصحى والعامية قائلا إن أصفى اللهجات هى لهجة اليمن حيث تأصلت العربية وحيث ولد (كذا) محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) الذى يعتبر كتابه نموذجا رائعا إذا لم يكن فى وضوح الأفكار فعلى الأقل فى رشاقة الأسلوب واعتبر برينييه أن اللهجات العربية أخذت تفترق عن بعضها وتبتعد عن الأصل ، وادعى بأن لهجات شمال أفريقية أكثرها ابتعادا (1) .

---

(1) الدرس (أو المحاضرة) منشور فى (المونيتور) ، يناير 1837، وأورد خلاصته هنرى ماسيه ، ص 5 وكانت عبارة (ممتلكاتنا) هى التى يطلقها الفرنسيون على الجزائر عندئذ ، كما أن تعبير أفريقيا ، والأفريقية كان يطلق على الجزائر وما يتصل بها فى بادىء الاحتلال .

وقال برينييه عن طريقته فى التدريس إنه سيجعل دروسه على قسمين : الأول خاص باللهجة الجزائرية وذلك بتوضيح تعابيرها الشائعة واستعمالاتها وتدريب السامعين عليها . واشترط ضرورة تعلم الحروف العربية سواء تلك التى قال عنها لأنها معروفة فى الشرق أو الخاصة بالمغرب العربى والتى قال لأنها تختلف فى الخط الكوفى أو العربية القديمة . ولاحظ أن الكتب التى تعين على هذا المستوى من الدرس غير متوفرة فى وقته إلا قليلا وغير مختصة . أما القسم الثانى من دروسه فقد وجهه إلى الأشخاص الذين لهم معرفة بالعربية والراغبين فى معرفة الكتابة ، ولهؤلاء قدم برينييه النظرية النحوية وتطبيقاتها على ترجمة النصوص المختلفة . وقد اختار لهم من هذه النصوص مجموعة من ألف ليلة وليلة لأنها فى نظره تعطى لتلاميذه نموذجا بسيطا وسهلا وتعابير سعيدة ومتنوعة . كما عين لهم كتاب النحو للمستشرق دى ساسى وكتاب نحو العربية العامية لبير سوفال . وبعد سنة من تجربته فى التدريس بالجزائر كتب برينيية مقالة فى (المجلة الآسيوية) أوضح فيها أفضل الطرق لتدريسها . وقد رأى ضرورة أن يقضى الدارس سنة كاملة فى تعلم العربية المكتوبة (الفصحى ؟) قبل دراسة العامية .

وكانت حصصه الأسبوعية مقسمة كالتالى: ثلاث حصص للتدريب على العربية الدارجة ، وحصة للنحو والاملاء والأسلوب ، وحصة لشرح نصوص عربية أدبية وعلمية ، وحصة لترجمة الرسائل والنصوص الرسمية ، والكتابات المتداولة . وكان برينييه يلح على أن يخدم تعليم اللغة البحث اللغوى والمواد التاريخية والأدبية ، وتوفير الوسائل للفهم والاتصال التلقائى عن طريق التعبير الشفوى الكتابى . كما كان يلح على ضرورة الجمع بين المعرفة النظرية والعملية لكى يخدم أحدهما الآخر . وفى هذا النطاق ألف برينييه مجموعة من الكتب معظمها موجه لطلابه ، ولكن بعضها بقى مرجعا لمدرسى العربية من المستشرقين حتى بعد وفاته (1) .

---

(1) من مؤلفاته :

1— ترجمة الأجرومية للصنهاجى والتعليق عليها .

2— المجموعة العربية الإبتدائية المختارة (Anthologie) .

3— مختارات عربية Christomathie وهى التى ضمت عددا كبيرا من الرسائل والنصوص الرسمية وغيرها من الوثائق المعاصرة .

4— الدروس العملية والنظرية فى اللغة العربية الذى طبع عدة طبعات .

5— عناصر الخط العربى ، سنة1855.

6— مبادىء اللغة العربية ، سنة1867وكان برينيية يحسن التركية (العثمانية) والفارسية أيضا ومما يذكر أنه قبل تأليفه الكتب لتلاميذه ، وزع عليهم (1837) معجم المستشرق جان جوزيف مارسيل فى اللهجات العامية فى الجزائر وتونس ومصر وهو معجم (Vocabulaire) فرنسى — عربى مطبوع فى باريس .

وفى مؤلفاته أعطى بريئيه لطلابه نماذج من روح الشرق فى العناوين التى اختارها بالعربية وفى الألوان والتزاويق للغلاف. مثلا فى كتابه (المختارات) المطبوع سنة 1845 زخرفت صفحة الغلاف الداخلى بزخارف عربية — اسلامية ولونت بألوان متناسقة ، وفى وسطها عنوان الكتاب بالعربية هكذا (جامع المكاتيب فى العربية والمعانى الغرايب للشيخ النحوى المدرس أبريني ، لطفه الله به) (1) كما أن كتابه (الدروس العملية والنظرية للغة العربية) قد وضعت له لوحة فنية أمامية ملونة على الطراز العربى — الإسلامى وكتب فيها العنوان بالعروبية هكذا (مفتاح كنوز النحو والأدب لفتح علوم العرب) (2).

وقبل أن نطوى صفحة الحديث عن برينييه نذكر ملاحظتين قالهما عن اللغة العربية بعد تجربته معها. الملاحظة الأولى ما جاء فى مقدمة كتابه (المجموعة العربية) من أن العربية غنيه فقط بأشكال الكلمات وتنوعها والمترادفات ، وأنها بعيدة عن أن تقدم ، فى حالتها الحاضرة وربما فى المستقبل ، الطاقات والسهولة التى تقدمها اللغات الأوربية الرئيسية ولا سيما الفرنسية(3). وفى نفس الكتاب انتقد برينييه طريقة الكتابة العربية فى الجزائر قائلا إنها غير فنية وغير متناسبة الأجزاء بخلاف الشرق حيث الخط وفن الكتابة يمتازان بالذوق والتناسب. ولكنه لاحظ أن فى فن الكتابة الجزائرية خصائص أساسية لا يدركها المرء إلا بعد الممارسة.

أما الملاحظة الثانيـــة فهى حثه الفرنسيين على تعلم اللغة العربية لكى تكون وسيلتهم إلى معرفة الشعوب الأخرى. فقد قال فى مقدمة كتابه (الدروس العملية) إن اللغة العربية ليست وسيلة فرنسا للاتصال بعالم الأهالى (الجزائريين) فقط بل بالعالم العربى الإسلامى أجمع. وقال إن معرفة اللغة العربية ستجعل العالم الأوروبى يربط علاقات بالشعوب الإسلامية وهى علاقات لا تكفى فيها الكتب بل لا بد فيها من التعبير الشفوى أيضا(4).

إن دور برينييه فى ترويج العربية بين الأوروبيين لم يختره لنفسه فقط بل اختير إليه. وكان عليه هو أن ينفذه بدقة ونشاط

---

(1) اطعلنا على ط. 2 من الكتاب ، باريس — الجزائر 1857 .

(2) طبع عدة طبعات ، 1846 ، 1855 ، 1915 .

(3) المقدمة ، ص 5 ، ط. باريس 1852 .

(4) مقدمة ط. 3 ، 1915 .

لأنه بذلك يحقق أهداف الإدارة الاستعمارية . وهذه رسالة المتصرف المدنى بريسون Bresson تشهد بذلك . وكان بريسون قد خلف جنتى دى بوسى فى الإدارة المدنية بالجزائر ، 1836 وقد سارع بكتابة رسالة إلى المفتش العام للتعليم جاء فيها أن مهمة فرنسا فى الجزائر تتوقف على دراسة العربية والتوسع فيها ، وذلك لمعرفة الأهالى والاتصال بهم ، وأنه لا يكفى فى ذلك الاعتماد على بعض المترجمين وقال أن إنجاز الاستعمار Colonisation يتوقف على نجاح برينييه فى مهمته ، وأن الحكومة لم تختره لذلك إلا لثقتها فيه وتقديرها له . وعليه أن يثبت ذلك ، كما عليه أن لا ينسى أن الدرس الذى يلقيه فى اللغة العربية ليس درسا عاديا ، لأنه درس جاء بعد احتلال الجزائر فاكتسب بذلك أهمية سياسية ومنفعة عظيمة . وعلى برينييه أيضا أن يعمل على توسيع المعرفة فى العربية الدارجة ، وأن لا يقتصر فى ذلك على لهجة مدينة الجزائر بل عليه أن يفعل نفس الشىء مع لهجات التل وقبائل زواوة وقبائل السهول والجبال عندما تستطيع فرنسا الوصول إلى هذه المناطق(1) .

وكان لبريسون مخطط آخر أيضا كشف عنه فى هذه الرسالة التى تعكس اهتمام الفرنسيين المبكر بدراسة العربية كوسيلة للاحتلال والتوسع : فقد جاء فى نفس الرسالة أنه (بريسون) يتطلع بكل رضى ممزوج بالأمل أن يرى الشباب الأروبى فى الجزائر ، وقد درس العربية واستفاد منها فى الفلاحة والتجارة وفى الوظائف العمومية لأن الإدارة ، كما قال ، تخطط أن لا تقبل فى المستقبل فى هذه الوظائف إلا الأروبيين الذين يعرفون العربية والفرنسية معا ، بل أن المترجمين أنفسهم سيقع تفضيل الذين درسوا منهم فى الجزائر على الذين درسوا خارجها . ومن أجل ذلك طلب بريسون من مفتش التعليم أن يكشف للآباء عن هذه النية ، وأن يطبع الكتب الابتدائية ، وأن يشترى الكتب الضرورية ، وأن يفتح أقساما جديدة للعربية فى المدارس الفرنسية ، وأن يحدث مسابقات وجوائز لهذا الغرض(2) .

---

(1) كان الإحتلال الفرنسى عندئذ (1837) ما يزال مقصورا على بعض المدن الساحلية .

(2) رسالة بريسون إلى المفتش العام للتعليم نشرتها (لومونيتور) فى 10 فبراير 1837 انظر كور ، ص33—35 .

والغريب أنه فى الوقت الذى يعلن فيه بريسون عن مخططاته لنشر العربية بين الأوروبيين فى الجزائر كان يحرم الجزائريين من تعلم لغتهم وقد استولى الفرنسيون على المؤسسات الدينية والتعليمية ، وحولوا أعدادا منها إلى كنائس وملاجىء ومخازن ودكاكين كما استولوا على الأوقاف الإسلامية التى كانت تغذى التعليم ورجال الدين والعلم وترعى المكتبات .

ولكن تطلعات بريسون لم تتحق كلها وبسهولة ، بل أن الطريق كان مليئا بالعثرات والنتائج المخيبة ، كما سنرى . فلم تحن عشرية الأربعين حتى كان نظام معرفة العربية للأوربيين فى حاجة إلى اصلاح ومراجعة. وقد بدىء فى إصــلاح فرقة المترجمين العسكريين سنة 1842 . وذلك باجراء امتحان لهم يتسابقون فيه على تصنيفات ورتب محددة وكان مقرر اللجنة هو برينييه نفسه . وقد ترشح للامتحان عدد من تلاميذه وتقدم خريجو كرسى (حلقة) العربية فى الجزائر على من عداهم من المترجمين . وأصبح المترجمون العسكريون هم اليداليمنى للإدارة الاستعمارية فى الجزائر إذ كانت البلاد كلها محكومة بنظام عسكرى دقيق (تابع لوزارة الحربية) ، وكانت « المكاتب العربية » التى تتولى شئون الجزائريين منتشرة عبر الأجزاء المحتلة من الجزائر وكان على رأس كل مكتب عربى (1) ضابط فرنسى يعرف العربية بالطريقة التى كان يعلم بها برينييه . وبذلك النوع من الامتحان أخرج من المترجمين العسكريين من لا هدف له إلا المصلحة الشخصية ، أو المرتزق . ويستعمل فيرو كلمة « التطهير » فى هذا المجال .

وأمام حاجة الإدارة الاستعمارية إلى موظفين يعرفون العربية وأمام انخفاض عدد الحضور (2) لدروس برينييه ، فإن الحاكم العام المارشال بوجو ، استصدر مرسوما ملكيا سنة 1845 ينص على أنه ابتداء من 1847 سيكون من المحتم على كل طالب وظيفة من المدنيين أن يكون عارفا بالعربية ولكن هــذا المشروع الطموح لم ينفذ فى النهاية ، لأن بوجو صاحب الفكرة غادر الجزائر فى منتصف 1847 ، ولكن ثورة 1848 بفرنسا قد غيرت نظام الحكم بها كما غيرت من سياسة فرنسا نحو التعليم فى الجزائر على العموم(3) .

(1) « المكتب العربى » مصطلح يعنى مركز السلطة الفرنسية لإدارة شئون الأهالى فى الأمن والقضاء ونحو ذلك ، وقد بقى إلى سنة 1870 ، ثم انحصر فى المناطق الجنوبية فقط .

(2) يذكر كور ، ص39 ، أن عدد الحضور لدروس العربية قد انخفض تدريجيا حتى وصل إلى 12 شخصا فقط فى درس العربية العامية وعشرة فقط فى العربية الفصحى . ويعلل كور لذلك بقوله إن هجرة الأوربيين إلى الجزائر كانت إلى ذلك الحين (1844) محصورة فى المدنيين الأميين بصفة عامة ، وابتداء من 1845 حل بالجزائر شباب متعلم للاستيطان والعيش فيها ، حالما بمستقبل مليء بالوعود .

(3) من ذلك أن قرار 16 أوت 1848 نص على الحاق المدارس الفرنسية والإسرائيلية فى الجزائر بوزارة التعليم مباشرة أما المدارس الإسلامية فقد تركت تحت وزارة الحربية والغريب فى الأمر أن مسئول مصلحة التعليم فى الجزائر كان يتراسل بطريقتين مختلفتين : فهو يتراسل مباشرة مع الوزير فى باريس بالنسبة =

ولكن سنة 1846 شهدت عمليتين تتعلقان باللغة العربية . الأولى احداث كرسي جديد (أو حلقه) للغة العامية في كوليج الجزائر . ولملء هذا الكرسي أجريت مسابقة فاز فيها المستشرق قرقوس Gorguos ومن الطريف أن نعرف أن مواد المسابقة التي جرت تحت اشراف بريثييه كانت تتألف من :
1- معرفة نحو العربية العامية .
2- عناصر العربية الأدبية (الفصحى) .
3- انشاء بالعربية العامية حول موضوع معين .
4- قراءة وترجمة نص من كتاب مفتوح من مخطوط سهل .
5- درس حول نقطة في النحو العربي تتعلق بمسألة في كتاب عربي .

أما العملية الثانية فهي احداث كرسيين للعربية الدارجة في كل من وهران وقسنطينة وقد جرت مسابقة أيضا على نفس النسق لاختيار من يقوم بالوظيفتين . وكانت النتيجة فوز فينيار Vignard الذي تعين لقسنطينة أما كرسي وهران فقد كان من نصيب هادمار Hadamard ، المترجم السابق في مصلحة أملاك الدولة . ومن جهة أخرى لم يطل أمد فينيار في قسنطينة إلا بضعة أشهر ثم حل محله المستشرق شيربونو خريج مدرسة اللغات الشرقية بباريس(1) . وتجدر الملاحظة أن كلا من أستاذ كرسي العربية في وهران

للمدارس الأولى ، أما بشأن مدارس المسلمين فعليه أن يتراسل فقط مع الوالي العام بالجزائر ومن التغيرات أيضا إنشاء أكاديمية التعليم بالجزائر ، سبتمبر 1848 ، وتعيين ديلاكروا على رأسها وتسميته عضوا في مجلس الوالي العام ومن الملفت للنظر أيضا أن القرار المذكور لم يشر إلى كراسي العربية الأربعة . وقد يفهم من ذلك أنها تابعة للتعليم الإسلامي ، ولكنها من الناحية المالية كانت تابعة للتعليم العالي بفرنسا نفسها انظر كور ، ص . 42-41

(1) جاك شيربونو Cherbonneau ولد سنة 1813 وتابع دراسته في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، وقد نشر عدة مقالات في المجلة الآسيوية ، وكانت تسميته لكرسي العربية في قسنطينة قد جعلته يكرس جهده لحياة الجزائر العربية وفي سنة 1861 أصبح مدرسا في المدرسة العربية الفرنسية بنفس المدينة ، وبعد سنتين أصبح مديرا للكوليج العربي للفرنسي في الجزائر ، وفي سنة 1871 أصبح مديرا لجريدة (المبشر) وهي جريدة رسمية كانت تصدرها إدارة الجزائر باللغتين العربية والفرنسية . ومن وظائفه في الجزائر أنه أصبح مفتش المدارس العربية - الفرنسية الثلاث وبعد أن فرغ كرسي العربية المغربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس بوفاة البارون دي سلان ، رجع شيربونو إلى هذه المدرسة كأستاذ للعربية المغربية (العامية) وقد نشر عدة أعمال تدخل في مهنته مثل الكتب المدرسية ومعجم عربي - فرنسي ، وتصريف الأفعال في العامية وغيرها مما يدخل في دراسة اللهجات ، كما نشر بعض الأعمال التاريخية مثل وثائق حول عبيد الله المهدي ، وتحقيق تاريخي حول الدولة الأغلبية ، وآخر حول عائلة بني جلاب ، ومقالة عن الأدب العربي بالسودان وقد علق أحدهم على دور شيربونو فقال إنه كرس جهده في الجزائر لصهر العنصر الفرنسي والعنصر العربي عن طريق التعليم انظر ماسيه ، ص 11-13 ولا نجد لشيربونو ذكرا في (موسوعة المستشرقين) لعبد الرحمن بدوي .

وقسنطينة كان يلقى ثلاثة دروس فى الأسبوع بمعدل ساعة للدرس . وقد أعطيت الحرية لكل منهما فى التصرف بما يراه مناسبا بعين المكان .

ورغم هذا التوزيع الجغرافى لحلقات تدريس العربية للأوربيين وإجراء المسابقات لاختيار أحسن الأساتذة ، فإن النتائج لم تكن فى مستوى الاهتمام . وقد انتقد بيليسيه دى رينو حالة التعليم فى الكراسى الثلاثة فقال عن الحضور إنهم لا يتجاوزون الستين شخصا وأن حالة الاقبال لا تختلف عن حالة الاقبال على دروس الكوليج دى فرانس . ولاحظ تقرير فى نفس الفترة (1848) أنه رغم حماس الأساتذة فإن نتائج الدروس كانت مخيبة للآمال . وقال إن عـدد الحاضرين لحلقة وهران كان قليلا . وعلل ذلك بصعوبة العربية فى بدايتها ، وقيل لأن الحاضرين يكثرون فى أول السنة ثم يتناقص عددهم بعد برودة الحماس الأول ولا يبقى منهم إلا عدد ضئيل (1) .

ولم يسع وزارة التعليم إلا تكوين لجنة سنة 1849 مهمتهـا اقتراح الـوسائل لنشر العربية بين الأوربيين والفرنسية بين المسلمين فى الجزائر فورا . والواقع أنه لا معنى لكلمة « فورا » هنا لأن توصيات اللجنة لم يؤخذ بها فى حينها ، كما سنرى . وكانت اللجنة برئاسة الجنرال بيدو الذى طالما قاد المعارك ضد الأمير عبد القادر ، وعضوية المستشرق الشهير بيرسوفال من الكوليج دوفرانس ، والدكتور بيرون Perron مدير مدرسة الطب بالقاهرة ، وفرديناند بارو Barrot مقرر اللجنة . وفى تقريرها لاحظت اللجنة أن نشر الفرنسية بين الجزائريين سيسهل مهمة الاستعمار ، وأما الوسائل لذلك فهى تهدئة الأوضاع (أى القضاء على المقاومة) والاندماج .

وأكدت اللجنة اضطراب عدد الحضور فى دورس العربية التى يتولاها المستشرقون الأربعة ، إذ يبلغ عدد المسجلين فى بداية السنة حوالى مائة ثم ينخفضون إلى حوالى 15 فى نهاية الفصل ، وأن هذا الحضور يختلف من مدينة إلى أخرى فعدد تلاميذ شيربونو بلغ 15 بينما بلغ تلاميذ هادمار بوهران ستة فقط ، منهم بعض الموظفين الجزائريين وكانت اللجنة على العموم راضية بدروس برينييه ، وقالت إن دروسه مقسمة على النحو التالى :

1ـــ ثلاث حصص أسبوعيا للتدريب الشفوى وتعلم طريقة النطق والقراءة .

---

(1) كور ، ص 42 .

2- حصة لقواعد النحو والإملاء والأسلوب .

3- حصة للأدب مع شرح قطع من المؤلفات الأدبية أو العلمية .

4- حصة لترجمة الرسائل والعقود والكتابات العادية .

وحكمت اللجنة أن نتيجة الدروس العربية تكاد تكون صفرا رغم حماس الأساتذة وأهليتهم ، وقد طالبت بضرورة منح تشجيعات للأساتذة وفتح المجال أمام التلاميذ الدارسين كجعل الوظائف المدنية مشروطة بإتقان اللغة العربية .

ولاحظت بأن المعلمين الفرنسيين فى المدارس الابتدائية لا يعرفون العربية .

وتساءلت ما إذا كان من الحكمة الاستعانة بالمتعلمين الجزائريين الذين يعرفون شيئا من الفرنسية فى تعليم العربية لأبناء الفرنسيين ورأت أنه من الخطأ ترك المتعلمين الجزائريين غير موظفين لأن الفراغ يجعلهم يفكرون فى العمل ضد النفوذ الفرنسي . بالنسبة للتعليم الثانوى لاحظت اللجنة أن تعليم العربية فى الليسيه الوحيد عندئذ هو ساعتان فى الأسبوع فقط ، وأوصت أن تدرس العربية يوميا فى الليسيه، وتقسيم دروسها على مدار السنة ، وشمول دراستها النحو وترجمة كتابات عربية إلى الفرنسية ، وكتابات فرنسية إلى العربية : اما بالنسبة للتعليم العالى (أى مستوى التعليم فى كراسى اللغة العربية) فقد رأت اللجنة أنه يحتاج فقط إلى التنظيم والتوسيع والتدعيم لما هو موجود : وأوصت بأن تفتح حلقات أخرى للعربية فى عدة مدن أخرى بالجزائر (1) .

ولكن تقرير اللجنة المذكورة لم تكن له نتيجة عاجلة : فقد بقيت كراسى اللغة العربية على ما هى عليه : غير أن خطوات ثلاث تحققت وهى تهدف كلها إلى تشجيع دراسة اللغة العربية : الأولى إنشاء المدارس

(1) نقل ذلك كور ، 45-46 . أما ما يتعلق بتعليم الفرنسية للأهالى ، فاللجنة رأت ضرورته لأن للفرنسية « لغة سيادة » إذ أن الأهالى يستمعون إلى قرارات الحاكم بها وكل الاتصالات الرسمية ستكون بها عاجلا أو آجلا، كما ستحرر بها كل الوثائق العامة كما أن الفرنسيين قادرون على دمج الجزائريين وعلى « فرنستهم » فى حدود عاداتهم ودينهم انظر أيضا كور ، ص 51 .

الثلاث(1) (1850) : والثانية إنشاء جوائز سنوية لعارفى اللغة العربية من الفرنسيين طبعا (1851) . والثالثة إعلان وزارة الحربية عن تفضيلها عارفى العربية فى الوظائف المدنية (1853) .

وبعد أربع سنوات انشئ فى الجزائر كوليج عربى – فرنسى موجها لنشر التأثير الفرنسى بين الجزائريين . وكان يضم تلاميذ فرنسيين أيضا . ومن ثمة فإن هدفه ليس كهدف الحلقات الدراسية المذكورة أو كراسى اللغة العربية : وكان مديره هو الدكتور بيرون Perron(2) الذى استدعى من مصر لهذه المهمة . وإذا كان البرنامج العام للكوليج فى حد ذاته لايهمنا هنا ، فإنه يهمنا منه كرسى اللغةالعربية الذى ألحق به سنة 1863 والذى أسند الى مستشرق مختص هو هوداس . وبعد سنة أنشأت وزارة التعليم كرسيا للهجة الجزائرية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس وأسندته إلى مستشرق مختص آخر هو البارون دى سلان (3) .

(1) هى ثلاث مؤسسات عربية– فرنسية بالعاصمة وقسنطينة ووهران وكان الغرض منها تخريج كوادر جزائرية تحتاجها الإدارة الفرنسية فى ميدان القضاء والترجمة والتدريس لذلك كان برنامجها يشمل المواد الفقهية والعربية بالإضافة إلى اللغة الفرنسية وكانت إدارتها تحت عناصر جزائرية إلى حوالى 1895 ثم تولى إدارتها مستشرقون فرنسيون وكان تعليمها يعتبر عاليا وليس هنا محل الحديث عن هذه المدارس. للتوسع انظر بحثنا (مدارس الثقافة العربية فى الجزائر 1830—1954) ، وفى كتابنا (أفكار جامحة) ، الجزائر 1988 :

(2) نيقولا بيرون ولد سنة1798، تابع الدراسة الإنسانية ثم تخصص فى الطب ومال إلى اتباع سان سيمون وأثناء ممارسته الطب تعلم العربية فى مدرسة اللغات الشرقية ، كما درس الفارسية والتركية ولغة جاوة وكان كلوت باى قد أسس مدرسة الطب فى مصر وجاء إلى باريس يبحث لها عن الأساتذة وكان منهم بيرون الذى سافر إلى مصر وهناك واصل دراسة العربية ، وألقى دروسا فى الكيمياء وفى الفيزيا وغيرهما ، ونشر أبحاثا فى هذه العلوم وترجم رحلة ابن عمر التونسى ، كما ترجم كتاب خليل ابن إسحاق فى الفقة المالكى وفى سنة1857 ولته حكومته إدارة الكوليج الأمبريالى (العربى–الفرنسى) فى الجزائر ، وبعد سبع سنوات سمته مفتشا عاما للمدارس العربية – الفرنسية فى الجزائر ، وقد توفى الدكتور بيرون سنة 1876 قريبا من باريس .ومن أعماله أيضا كتاب المرأة العربية قبل الإسلام وبعده ، والمجلة الطبية الجزائرية انظر ماسيه ، ص 20—22 .

(3) ولد البارون دى سلان de Slane فى بيلفاست (إيرلندا) سنة1801 وجاء باريس سنة1830 (سنة احتلال الجزائر) ، وانضم إلى تلاميذ المستشرق دى ساسى وقدأخذ الجنسية الفرنسية ، ونشر ديوان أمرىء القيس ومنتخبات من كتاب الأغانى ونشر قسما من ابن خلكان ، وأعمالا تتعلق بالمغرب العربى مثل النويرى وابن حوقل وابن بطوطة ، وترجمة مقدمة ابن خلدون وتاريخه وبين1843—1845 كلفته الحكومة الفرنسية بمهمة فى الجزائر فأرسل إليها تقريره عن أهم المكتبات وعدد المخطوطات فى قسنطينية وقد طبع التقرير ثم

كان تدريس اللهجة العامية باللغة الفرنسية هو الطريقة التى اتبعها أساتذة الكراسى المذكورة أو الحلقات . وكان الهدف كما أشرنا هو جعل الأوربيين فى الجزائر يختلطون بالأهالى ويعرفون افكارهم وحاجتهم . وقد أجاب أحد هؤلاء الأساتذة وهو ماشويل الذى تولى تدريس العامية الجزائرية فى ليسيه العاصمة ثم فى حلقة وهران قبل أن يتولى شئون التعليم فى تونس بعد احتلالها ، قائلا : لو لم نكن فى الجزائر ولو لم تكن لدينا حاجة ملحة للاتصال بالأهالى عن طريق اللسان لكنا من الذين يؤيدون البدء بدراسة الفصحى التى هى واحدة ، وهى هى نفسها بالضبط فى كل البلدان التى فيها القرآن هو القانون الدينى . وقال ماشويل بأن هدفه هو جعل الأوربى يعرف الدارجة العربية كما يعرفها الانسان الأهلى الذى لم يدخل المدرسة أبدا ، مضيفا بأن الأوربى سيتفوق بعد ذلك على الأهلى فى معرفة الكتابة بالدارجة (والكتابة عموما) كما يتفوق عليه بالذكاء . واستخلص التجربة من تونس حيث الجالية الإيطالية هناك تتحدث مع التونسيين بالعامية ولا تعرف من الفصحى إلا قليلا ، مما جعل لها فى نظره تأثيرا قويا على السكان . وقد استفاد ماشويل فى طريقة تدريس العامية بآخر التطورات الحديثة فى أوربا لتدريس اللغات للشباب ، خصوصا بالنسبة لنظريات تدريس الانكليزية والألمانية وأعمال روبرتسون ، واتو ، وولنلورف ، مصرحا بأنه استفاد من هؤلاء أكثر مما استفاد من طرق تدريس زملائه الفرنسيين أمثال برينييه وشيربونو(1)

والواقع ان تعليم العربية للأوربيين كان عملية شخصية يقوم بها الأستاذ المستشرق فى كل مركز من المراكز المذكورة

سمى مترجما فى الجيش الفرنسى بالجزائر ، وكان هو الذى يشرف على لغة البلاغات الرسمية والمراسلات العربية للحكومة مع الجزائريين وهو الذى يعطيها الأسلوب الملائم حتى أصبحت طريقته تقليدا ان جاء بعده وفى 1863 رخص له بتولى كرسى العربية الجزائرية فى مدرسة اللغات الشرقية ، وهو الكرسى الذى تحول منذ 1871 إلى العربية العامية بعد أن كان يشغله بيرسوفال. ولدى سلان أعمال أخرى حول الحروب الصليبية وغيرها ، وقد أخرج كاتلوغ المخطوطات العربية فى المكتبة الوطنية بباريس وتوفى سنة 1878 (انظر عنه ماسيه ، ص 13 –19 وايس له ترجمة فى (الموسوعة) الدكتور بدوى .

(1) ذكر ماشويل ذلك فى مقدمة كتابه (طريقة لدراسة العربية العامية) ، الطبعة الثانية سنة 1875 ونحن نجد صدى ذلك أيضا فى مقدمة كتاب : ايدنشانك وكوهين سولال (الكلمات المستعملة فى العربية الدارجة) ، الجزائر 1897 فقد قالا بأنهما اتبعا فى تدريس العربية نفس الطريقة المتبعة بنجاح منذ عشرين سنة بالنسبة للغات الافريقية والإنكليزية واللاتينية والألمانية .

فكانت شخصيته وعلمه وغيرته هي التي تجلب اليه الجمهور . ولم يكن لوزارة التعليم ولا للسلطات المحلية مخطط محدد تتابعه في هذا المجال ، كما كان الحال في بداية الأمر خصوصا في عهد بريسون وبوجو مثلا .

ورغم أن هذا التعليم كان مصنفا في المستوى العالي ، فإن الأساتذة وجدوا أنفسهم مضطرين إلى احداث ثلاثة مستويات : ابتدائي في العامية لمن ليس لهم المام بها ، ومتوسط لمن يرغب في معرفة شيء من النحو وحتى قراءة نصوص من القرآن الكريم ، وعال وفيه تعلم تراجم المؤلفين ومختلف أنواع الكتابة . ويقول نقاد هذا التعليم إنه انخفض لأن العربية لا تعلم في المدارس الابتدائية والمتوسط حيث يتم لإعداد الراغبين في المزيد على يد الاساتذة المستشرقين(1) .

وخلال السبعينات ظهرت انتقادات أخرى لمشروع تدريس العربية الذي نحن بصدده ، من وجهتين : الأولى أن الحكومة لم تدعم جهود المستشرقين كالترجمات من العربية ولا الأعمال العلمية المتصلة بالتراث العربي الإسلامي سواء في الجزائر أوخارجها ، باستثناء تمويلها لمشروع اكتشاف الجزائر العلمي وترجمة دى سلان لتاريخ ابن خلدون ؛ والثانية أن النظرة السائدة سواء عند السلطة أو عند مؤلف الكتب المدرسية الموجهة للاوروبيين الراغبين في العربية نظرة تقوم على مبدأ واحد وهو أن العربية مجرد وسيلة للاتصال مع الأهالي وأداة للتوغل السياسي . أما العربية كعامل ثقافي ووسيلة للاطلاع على كنوز حضارتها اللامعة النائمة في الكتب المؤلفة بها كما يقول ماسيه فهذا ما لم يحدث قبل إنشاء المدارس العليا والكليات الجامعية ؛

ويؤرخ الذين تتبعوا الدراسات الاستشراقية في الجزائر نشأة هذه المدارس العليا بسنة 1879 ففي هذا التاريخ إنشئت ثلاث مدارس هي الآداب والعلوم والحقوق (وسبق لمدرسة الطب أن تأسست منذ 1857) . وكانت هذه المدارس الأربع هي نواة جامعة الجزائر التي اعلن عنها رسميا سنة 1909 بعد تحويل المدارس العليا المذكورة إلى كليات . ويهمنا

---

(1) أنظر النقد الذي ورد في تقرير مفتش التعليم في الجزائر في (الإحصاءات العامة) لسنة 1873—1875 كما نقله كور ، ص95—62 وقد لاحظ صاحب التقرير أنه كان الأولى لأبناء الفرنسيين في المدارس الإبتدائية بالجزائر أن يدرسوا العربية بدل الإيطالية أو الأسبانية ولاحظ أن عدد الحضور للدروس كان يتراوح بين20—30 في الشتاء ، و15—20 في الصيف ، معتبرا ذلك تعلما محدودا جدا ولا يحقق النتائج المرجوة ولكنه لاحظ أن وزارة التعليم رفعت أجرة أستاذ الكرسي إلى ألف فرنك .

من هذه المدارس الأربع مدرسة الآداب : فهى التى ضمت قسما صغيرا للدراسات الاستشراقية ، كما ضمت كرسيا للغة العربية وآخر للادب العربى : وقد تولى هوداس(1) كرسى اللغة العربية بمساعدة بلقاسم بن سديرة أحد الجزائريين الذين تكونوا فى مدرسة الاستشراق الفرنسى وساهم فيها بفعالية بتدريسه وتآليفه : وبالإضافة إلى ذلك تولى رينى باسيه(2) تدريس مادة الأدب العربى . ولم يلبث هوداس أن غادر الجزائر (1884) إلى باريس ليتولى هناك تدريس العامية الجزائرية فى مدرسة اللغات الشرقية خلفا لشيربونو . وقد حل باسيه محل هوداس فى كرسى العربية بالجزائر ، كما حل ادمون فانيان (3) محل باسيه فى مادة الأدب العربى .

ويعتبر هذا العهد (1880—1905) هو العهـد الذهبى للمستشرقين الفرنسيين فى الجزائر وهو العهد الذى كلل بانعقاد المؤتمر

(1) ولد أوكتاف هوداس Haudas فى لوتار فيل سنة 1840 و توفى بالجزائر سنة 1916 و قد حل بها سنة 1863 عند استلامه كرسى العربية فى الكوليج العربى — الفرنسى وبقى فى الجزائر إلى سنة 1884 حيث عمل أيضا أستاذا فى ليسيه العاصمة ، وتولى كرسى العربية بوهران ، وكرسى العربية بمدينة الجزائر ، ثم افتتح تعليم العربية فى مدرسة الآداب العليا عند إنشائها سنة 1880 نشر هوداس مؤلفات موجهة لتلاميذه وكذلك ترجم تحفة ابن عاصم فى الفقه المالكى وهو العمل الذى شغله قرابة عشر سنوات كما ترجم أعمالا تتعلق بتاريخ المغرب العربى عموما والسودان القديم وبعض صحيح البخارى انظر عنه ماسيه ص25—27 ، وكذلك كور ، ص 49

(2) ولد رينى باسيه Rl Bossei سنة 1855 وقد انجذب منذ عهده الأول نحو اللغة العربية ، ودرس فى مدرسة اللغات الشرقية بين 1873—1880 وفى هذه السنة وصل إلى الجزائر حيث أصبح مديرا لمدرسة الآداب العليا ثم عميدا لكلية الآداب إلى وفاته سنة 1924 بالجزائر وقد أتقن أيضا اللغة الحبشية والبربرية ونشر عن الأخيرة أكثر من 25 عملا ومن تلاميذه فى ذلك ديستان Destaing الذى أصبح أستاذ البربرية فى مدرسة اللغات الشرقية وقد شمل اهتمام باسيه جوانب عديدة من الدارسات الاستشراقية : اللغة ، الفولكلور التاريخ ، الدين ، ونشر أعمالا عن الأدب الجاهلى والإسلامى (البردة ، بانت سعاد ، وألف ليلة وليلة إلخ .) انظر عنه الفريد بيل فى (أفريقية الفرنسية) ، 1924 ، ص13—14 و (المجلة الأفريقية) 1924 ، ص12 وما بعدها وهناك Melanges باسمه ضم حوالى 40 صفحة عن أعماله مقسمة إلى أبواب . وماسيه ، ص27—29.

(3) ادمون فانيان E. Fanian من مواليد لياج سنة 1846 وقد توفى بالجزائر 1931 اهتم بالترجمة عن العربية وواصل العمل الذى بدأه دى سلان لا سيما الجانب التاريخى ، من ذلك تاريخ الزركشى عن الموحدين والحفصيين وتاريخ ابن الأثير عن المغرب والأندلس ، وتاريخ ابن عذارى ، وكتاب الماوردى ، ورسالة القيروانى فى الفقه كما أنه هو واضع كاتلوغ المخطوطات العربية والتركية والفارسية فى المكتبة الوطنية بالجزائر وفانيان هو الذى تولى تدريس مادة الأدب العربى بعد وفاة باسيه . انظر عنه ماسية ، ص29—30 ، وكذلك (المجلة الأفريقية) 1931 ، ص139 وما بعدها .

الرابع عشر للمستشرقين العالميين سنة 1905 بمدينة الجزائر والذى حضره حوالى خمسمائة شخص(1) . ولم يحضره من المشرق العربى ، حسب علمنا ، غير ثلاثة من مصرهم : محمد فريد وعبد العزيز جاويش وسلطان محمد . ولكن حضره عدد من تلاميذ وأعوان المستشرقين الفرنسيين أمثال محمد بن أبى شنب وعبد الحليم بن سماية والقاضى شعيب بن على . وليس الحديث عن هذا المؤتمر وما جرى فيه من مهمة بحثنا هذا . وحسبنا أن نقول ونحن بصدد الحديث عن لغة الضاد ، أن الوفد المصرى قد انتقد غياب التعليم العربى للجزائريين وقد دخل فى نقاش حاد مع الوفد الفرنسى فى المؤتمر حول هذه النقطة .

لقد اندمجت كراسى العربية العامية القديمة التى ابتدأت منذ 1832 والموجهة إلى الأوروبين فأصبح مقرها فى المدارس الأقليمية ، فتحول كرسى وهران إلى مدرسة تلمسان العربية — الفرنسية التى كانت تحت إدارة المستشرق الفريد بيل وتحول كرسى قسنطينة إلى المدرسة العربية الفرنسية أيضا والتى كانت باشراف موتيلا نسكى الى 1906 (2) ، أما كرسى العاصمة فقد تولته مدرسة (كلية) الآداب العليا وكذلك المدرسة الثعالبية (العربية —الفرنسية) التى كانت باشراف ادمون ديستان إلى ذهابه إلى باريس لتولى كرسى البربرية فى مدرسة اللغات الشرقية .

ومنذ ما يسمى بعهد اصلاح المدارس العربية — الفرنسية (1895) ثم اصلاحات الوالى العام جونار (1903—1912) فى التعليم عموما ، أصبح على الجزائريين أن يدرسوا هم اللغة الفرنسية « لغة السادة » ولم يعد الأوروبون مطالبين بدراسة العربية لا باسم تسهيل الاختلاط بالأهالى ولا باسم المعرفة الثقافية للتراث العربى لأنهم كانوا فى الحملة يحتقرون هذا التراث ولا يعترفون به ولا باسم الحاجة إلى الترجمة لأن قسم

(1) كان رئيسه هو رينى باسيه وقد صدرت عن هذا المؤتمر عدة مجلدات فى شكل وقائع ومذكرات كما أن المجلة الأفريقية قد خصصت له عددا خاصا .

(2) بدأ موتيلانسكى A. Motilinski حياته مترجما فى غرداية بالجنوب ومن ثمة اهتمامه بالمذهب الاباضى والمؤلفات التى ألفت حوله ومنذ 1887 أصبح مديرا لمدرسة قسنطينة العربية — الفرنسية ، ثم أصبح هو أستاذ كرسى العربية فيها (1889) وقد قام بتدريس اللهجات البربرية ، ونشر أبحاثا حول جربة وسكان جبل نفوسة ، ووادى ميزاب ومن ذلك بيبلوغرافية عن ميزاب ؛ وأخبار الائمة لابن الصغير وتوفى سنة1907بعد أن قام بمهمات « علمية » فى الصحراء انظر ماسيه ، ص 32 .

الاستشراق فى كلية الآداب وخريجى المدارس الحكومية الثلاث المشار اليها أصبحوا يمدون الإدارة بما تحتاجه من ذلك . وهكذا وجد الاستشراق نفسه فى الجزائر منذ انشاء نواة الجامعة وإصلاح التعليم وأصبح مقصورا على أهل الاختصاص الذين كان عليهم أن يدرسوا العربية العامية والفصيحة والبربرية بمختلف لهجاتها . اما الأوروبيون فى الجزائر فقد كان لسان حالهم ما قاله ما شويل منذ 1875 وهو « ليس علينا نحن المنتصرين أن نتعلم اللغة العربية ، بل الواجب على الأهالى أن يدرسوا لغتنا». وقد رفضوا حتى «التنازل» على هذا الحق — كما نصحهم ماشويل — حق الانتصار والسيادة !

ومن الصعب أن نعدد أعمال المستشرقين بعد أن آلت اليهم دفة الدراسات العربية فى الجزائر(1) بعد أن انتزعوها من أيدى المترجمين ومؤلفى الكتب المدرسية بالعامية وما شاكلها . ولكن أهم النواحى التى اهتموا بها هى : المعاجم . واللسانيات والخطوط والنقوش والتاريخ الدينى ، وتحقيق النصوص والترجمة فى ميادين الأدب والتاريخ والعلوم والجغرافية والفقه بالإضافة إلى أعمال انثروبولوجية وفولكلورية الخ . ومادام هذا البحث خاصا بتدريس العربية فلن نتوسع فى ذكر أعمال المستشرقين الأخرى.

وقد تبين من هذا البحث أن العلاقة بين الاستعمار والاستشراق فى الجزائر كانت وطيدة وأن الحديث فى ذلك إنما هو محض تكرار لاطائلة منه . ولكن هناك نقاط أخرى يمكن أن نستخلصها وهى :

1— ان عزم الفرنسيين على البقاء فى الجزائر وهجرتهم اليها واستيطانهم لها ترتب عليه الاهتمام بلغة السكان فحاولوا تعلمها ليفهموا أهلها ويسهل عليهم التعامل معهم قبل ان يتوطد حكمهم وتنتشر لغتهم وتأثيرهم . وقد أدى ذلك إلى اهتمام خاص بدراسة اللهجات الجزائرية العربية وغير العربية فألفوا فيها الكتب المدرسية ؛ ودونوا أمثالها وكتاباتها وتعابيرها ودرسوا الفروق بينها من منطقة إلى أخرى . وكذلك الفروق بينها وبين اللهجات العربية الأخرى التى امتدت اليها معرفتهم . ولكن ذلك لم يخل من مغامرة كالقول بأن اللهجات العربية فى شمال افريقية ابتعدت أكثر من غيرها عن العربية الأم . وقد رأينا انهم أنشأوا عدة كراسى للعامية فى الجزائر ثم أضافوا اليها كرسى العامية الجزائرية فى مدرسة اللغات

---

(1) اشتملت دراسة هنرى ماسيه (الدراسات العربية فى الجزائر) على بيبلوغرافية مبوبة بأعمال المستشرقين والمترجمين معا .

الشرقية بباريس وآخر عن البربرية فى نفس المدرسة .

2— أن الجزائر أصبحت منطلق نشاط الاستشراق الفرنسى مبكرا . فقد وقعت مخطوطاتها ووثائقها وآثارها بين أيدى المستشرقين فتصرفوا فيها تصرف المالك فى ملكه ، وضاعت معهم اليوم ثروة هائلة من ذلك بعد أن استولوا عليها بطرق مختلفة تحدث عن بعضها كبارهم من أمثال بروجر ودى سلان وفانيان . ومن الجزائر انطلقوا أيضا فيما يسمى « بالمهمات العلمية » إلى كل من تونس والمغرب والسنغال وتمكنو وغدامس الخ . فتحدثوا عن المخطوطات والمكتبات هناك ووصفوها وفهرسوا بعضها ونقلوا منها ثم نشروا من ذلك ما يفيدهم ويفيد دولتهم .

3— انه فى الوقت الذى أنشئت فيه الكراسى المذكورة ونشطت بالجوائز ونحوها كانت الإدارة الفرنسية ، بمباركة هؤلاء المستشرقين ، تستولى على مؤسسات التعليم العربى فى الجزائر وتحولها عن أغراضها وتصادر جميع أوقافها وترمى بالأطفال الجزائريين فى حضن الجهل حتى لقد قال اليكسيس دى طوكفيل سنة 1848 : لقد أطفأنا الشموع (وهو يعنى المدارس) التى جئنا لنضيئها . وآخر ما صدر عن الإدارة المذكورة فى محاربة المدارس العربية والتعليم العربى للجزائريين هو مطالبة كل من يرغب فى فتح مدرسة أو إعطاء درس أن يحصل على رخصة مسبقا حسب قانون اكتوبر 1892 ، ولكنه لن يحصل عليها على كل حال . وهذا القانون هو الذى سلطته الإدارة ضد جمعية العلماء الجزائريين ، وحركة ابن باديس عامة ، عندما عملوا على احياء التعليم العربى — الإسلامى .

4— وسواء تعلق الأمر بالمرحلة الأولى أو الثانية فى تدريس العربية للأوروبيين ، فقد كان واضحا ومعلنا بأن الهدف من ذلك هو التوغل السياسى ، وتسهيل مهمة الاتصال بالأهالى ، ومساعدة الأوروبيين على ممارسة تجارتهم وفلاحتهم ، وليس دراسة العربية الفصيحة والاطلاع على ثقافتها ولحيائها ، كما وقع مثلا فى الشام على أيدى بعض الجمعيات التبشيرية . فالنشاط اللغوى الفرنسى فى الجزائر كان سلبيا بالنسبة للغة العربية وحضارتها .

5— وقد صنف هؤلاء المستشرقون اللغة العربية ثلاثة أصناف : العربية الدارجة وهى التى أخذوا فى دراستها منذ بداية الاحتلال ، وظلوا لا يعترفون إلا بها فى الجزائر ، كنوع من «الفولكلور» المحصور فى بيئات صغيرة ، ولذلك فإن تعليم العامية الجزائرية كان يتم بالفرنسية ، وكانت كتبهم تقرأ من اليسار إلى اليمين ، وحتى

الجزائريين الذين تخصصوا فى اللغة العربية أيام الاستعمار كانوا يتخصصون فى اللغة العامية — باستثناء من دخل منهم المدارس الحكومية الثلاث التى أشرنا اليها ليتخرج قاضيا أو مترجما . الصنف الثانى العربية الكلاسيكية (هكذا يسمونها) وهى لغة الأدب القديم بما فيه القرآن الكريم والحديث الشريف وأمهات كتب التراث . وقد اعتبر المستشرقون هذا الصنف لغة ميتة مثل اللاتينية والإغريقية لا يدرسها الا أمثالهم للاطلاع على حضارة العرب والإسلام والاستفادة من ذلك لدولتهم فى معاملاتها مع الأقطار العربية والإسلامية . اما الصنف الثالث فهو ما أطلقوا عليه العربية العصرية أو الحديثة ، وهى عندئذ لغة الجرائد والكتب المطبوعة حديثا والتى كانت متداولة فى المشرق العربى . وهذه اللغة كانت فى نظرهم « أجنبية» فكانت صحفها ومجلاتها وكتبها تدخل الجزائر أحيانا ولكنها كانت تعامل معاملة المطبوعات الأجنبية : وبناء على ذلك فان الصحيفة العربية التى تصدر بالجزائر مثلا كانت تخضع لقانون الصحافة الأجنبيـــة الذى لا تخضع له الصحف الصادرة فى فرنسا نفسها :

6— ومع ذلك فان جهود هؤلاء المستشرقين فى دراسة وتعليم اللهجة الجزائرية وفى نشر وتحقيق وترجمة مجموعة من كتب التراث هى جهود جديرة بالتنويه . يضاف إلى ذلك أن عددا من الجزائريين قد تتلمذوا عليهم وأصبح بعضهم فى طليعة الباحثين والمؤلفين فى نفس الميدان . ونكتفى هنا بذكر بلقاسم بن سديرة(1) الذى ألف مجموعة من الكتب المدرسية التعليمية منذ أواخر القرن الماضى . ويختلف محمد بن أبى شنب(2) عن زميله فى عنايته بالتراث العربى وتحقيق

(1) من كتب ابن سديرة : موجز النحو العربى ، ودروس تطبيقية فى اللغة العربية ، ودروس فى الأدب العربى ، ومعجم عربى — فرنسى وآخر فرنسى — عربى ، وللدروس التدرجية من الرسائل العربية المخطوطة وقد سماه بالعربية هكذا : (كتاب الرسائل فى جميع المسائل) 1893، بالجزائر ولابن سديرة تأليف فى البربرية أيضا (القبائلية) وقد أصبح أستاذا بمدرسة الآداب العليا وبالمدرسة النورمالية وعضوا فى الجمعية الآسيوية بباريس .

(2) حصل ابن أبى شنب على الدكتوراة من السوربون، واشتغل أستاذا للأدب العربى فى كلية الآداب بالجزائر، وهو من تلاميذ رينى باسيه وقد حضر عدة مؤتمرات دولية للمستشرقين (استكهولم، لندن إلخ) وكان عضوا فى المجمع العلمى العربى بدمشق ومن تلاميذه المستشرق البارز الفريد بيل أستاذ كرسى للعربية ، ومدير مدرسة تلمسان العربية — الفرنسية وحياة ابن أبى شنب وأعماله منشورة فى (محمد بن أبى شنب) تأليف عبد الرحمن الجيلالى ، ط 2 ، 1983 وكتاب (أعلام الجزائر) لعادل نويهض ولنا بحث حوله سميناه (بين علماء الجزائر وعلماء الشام) فى كتابنا (تجارب فى الأدب والرحلة) 1983 .

العديد من المخطوطات . والغريب أنه لم يظهر بعد الفترة التي تناولناها علماء جزائريون في مدرســة الاستشراق الفرنسي في مستوى ابن أبديره وابن أبي شنب (ما عدا ربما صوالح) رغم أن مدرسة الاستشراق في الجزائر قد شقت طريقها وأسست لها حوالي سنة 1933 معهدا خاصا سمته معهد الدراسات الشرقية ، ونشرت (حوليات) باسمه ظلت تصدر إلى 1962 تاريخ استقلال الجزائر .

وما دام البحث عن المستشرقين واللغة العربية في الجزائر فلنختمه بتعليق الشيخ عبدالحميد بن باديس على تصريح المستشرق الشهير لويس ماسينيون حول اللغة العربية . كان ماسينيون في طريقه إلى مصر لحضور دورة مجمع اللغة العربية الذى كان عضوا فيه ، وعند مغادرته فرنسا صرح بأن على فرنسا الاهتمام باللغة العربية لأنها « ليست غريبة عنا ، بل هي جزء من تراثنا القومي . » وعندما قرأ ابن باديس هذا التصريح كتب قائلا : إن ماسينيون يعرف موقف حكومته في الجزائر من اللغة العربية ومن التعليم العربي الحر ، ومع ذلك لم يرفع اصبعا ، وأنه لو أراد حقا خدمة اللغة العربية « لقدم تقريرا رسميا دعا فيــه حكومته إلى اعتبار العربية لغة رسمية وإلى حرية تعليمها في الجزائر ، ثم ناقشه في دعواه أن العربية جزء من التراث القومي الفرنسي ، قائلا ولكن « اللغة هي الطابع الصحيح للقومية التي تعرب عن وحدة الشعور والتفكير ، وعما يعمها من احساسات الألم وبوارق الأمل ، مما اتحد من ماضيها وحاضرها ومستقبلها . فاللغة العربية انما هي من تراث القومية العربية فقط ، كما أن اللغة الفرنسية انما هي من تراث القومية الفرنسيق فقط» وقد ختم ابن باديس رده بقوله : لعل ما سينيون أراد بذلك التصريح المجاملة فقط ، ولكن لا مجاملة في المسائل العلمية « خصوصا في مقومات الأمم وأعز شئ لديها»(1) .

ابو القــاسم سعد الله
عضو المجمع المراسل من الجزائر

(1) جريدة البصائر عدد 20 يناير 1939 وكان ابن باديس رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وقد قال ذلك حوالى سنة قبل وفاته (توفى 16 إبريل 1940) ويعني ابن باديس « بالمجاملة » أن ماسينيون يخدم سمعة فرنسا في المشرق وخصوصا بين العرب الذين تربطهم بعض الروابط بفرنسا .

الألفاظ العربية فى اللغة البربرية

للأستاذ محمد الفاسى

ألقيت[1] فى أحد مؤتمرات المجمع السابقة بحثاً عنوانه « البربرية شقيقة العربية » وبينت فيه استناداً إلى النحو والصرف أن البربرية لغة سامية ، وأوردت حججاً على ذلك بالمقارنة مع العبرية والأكادية والأمهرية والعربية الفصحى . ولم أعتبر المفردات العربية التى اقتبسها البرابرة بعد إسلامهم واختلاطهم بالعرب عن اللغة العربية كما هو الشأن فى اللغات الإسلامية الأخرى . وإنى أشتغل منذ سنين بأثر اللغة العربية على هذه اللغات وهى لغات الأمم العجمية التى بقيت مستعملة فى البلاد التى اعتنقت الإسلام، ولكنها حافظت على لغاتها فى المخاطبة وفى نظم الشعر مع استعمال العربية فى التأليف الخاصة بالعلوم النقلية ، والعقلية .. وهكذا نرى مثلا العالم الرياضى الكبير عمر الخيام الفارسى يضع كتبه فى العلوم الرياضية باللغة العربية وينظم رباعياته ـ التى جعلت له شهرة عالمية باللغة الفارسية حتى غطت شهرتها على إنتاجه العلمى خصوصاً عند الغربيين ولم يعرفه العالم العربى إلا فى هذا العصر الحديث بتأثير الغرب حيث أخذ العرب يترجمون هذه الرباعيات إلى لغاتهم ولم يكونوا يعرفونه إلا كعالم ، وبهذه المناسبة أنبه إلى أن خمرياته التى تتضمنها رباعياته لا يعنى بها الخمر المسكر وإنما هى إشارات صوفية على غرار الشاعر الصوفى ابن الفارض صاحب الخمرية التى يقول فيها :

شربنا على ذكر الحبيب مُدامة
سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

فشوهوا بفهمهم السطحى مذهبه وأخذوا يطلقون اسمه على الحانات والمراقص ونحوها وهكذا عن كل الشعراء الذين وضعوا دواوينهم

---

(١) ألقى فى الجلسة الثامنة يوم الاثنين ٢٨ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٦ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م .

بالفارسية كمولانا جلال الدين الرومى صاحب المثنوى وفريد الدين العطار صاحب منطق الطير والسعدى والنظامى وغيرهم ...

ومثل هذا نراه عند علماء البربر فإنهم وضعوا كتبهم فى العلوم الإسلامية وفى العلوم العقلية بالعربية ولكنهم على خلاف الأعاجم الآخرين نظموا الشعر كذلك بالعربية الفصحى كالشاعر الكبير أبى العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى شاعر الموحدين مثلا ، وليس معنى هذا أنهم لم ينظموا الشعر بالبربرية لكن إنتاجهم بهذه اللغة لم يدون وبقى شعراً شعبياً يتغنون به فى حفلاتهم ويتداولونه فيما بينهم ولقد جمعت منه الشىء الكثير عندما كنت منفياً مع جماعة من الوطنيين من سكان القبائل البربرية .

وكما قدمت فإن البرابرة الذين اعتنقوا الإسلام أقبلوا على اللغة العربية حتى استعربوا كلهم ولم يبق من يتكلم البربرية إلا القاطنون فى أعالى الجبال والشيوخ والعجائز ولكن بسبب تداخلهم مع العرب خصوصاً بعد دخول موجات الأعراب من بنى هلال وسليم إلى المغرب الأقصى فى القرن الخامس اقتبسوا من العربية ألفاظاً تبلغ نسبتها أكثر من خمسين فى المائة من لغتهم وهذه نسبة متوسط الألفاظ العربية فى اللغات الأعجمية فهى تتراوح بين سبع وستين فى المائة فى الفارسية وسبع وأربعين فى التركية وقد كنت حدثتكم عن الألفاظ العربية فى التركية وفى السواحلية فى مؤتمرات سابقة .

والآن أريد أن أتطرف إلى أساليب اقتباس البرابرة للألفاظ العربية وإدخالها فى لغتهم .

أولا : بكيفية عامة يأخذون اللفظ كما يسمعوه ، مثلا : إن البربرية لا أداة تعريف فيها أو أنها صارت لاصقة بالكلمة تنكيراً وتعريفاً فإنهم يأخذون الكلمة بلامها حيث لا يسمعون الهمزة من — ال — التعريف فيقولون مثلا : لكأس وإذا أضافوه إلى الضمائر يقولون : لكاسينو أى كاسى كأن اللام أصلية .. وهكذا فى كل الكلمات التى تبتدئ بحرف قمرى . أما التى تبتدئ بحرف شمسى فيأخذونها بالتشديد كما يسمعونها ، مثلا : زيتون وسّوق — دروج أى المدارج دّق أى الحلى من دق الذهب أو الفضة أى سبكها .

ومن طرقهم فى اقتباس الألفاظ من العربية أنهم إذا رأوا فى كلمة عربية فى أولها تاء اعتبروها مؤنثة لأن التاء عندهم فى أول الكلمة علامة الاسمية للمؤنث . والتاء فى الأخير علامة التأنيث للبشر وللحيوانات وعلامة التصغير فى غيرها من المفاهيم كما فى العربية وعليه فإنهم يستخرجون من الكلمة العربية التى تبتدئ أو تنتهى بالتاء مذكراً لها ، فثعلب مثلا : — والثاء المثلثة تنطق تاء فى المغربية — قالوا فى المذكر : أعلبون وأنثوه على طريقتهم بتاعلبوتنت والحانوت استخرجوا منه مذكراً

هكذا أحانوا وصغروه بتَاحَانُوتْ أى دكان صغير .

ومن طرقهم فى ذلك أنهم إذا رأوا فى كلمة عربية مفردة النون فى آخرها اعتبروها جمعاً لأن جمع المذكر السالم عندهم بالنون كما هو الشأن فى العربية فمثلا : لسان ظنوه جمعاً واستخرجوا منه مفرداً هو إلس ، وجمعوه على إلسان ويفعلون كذلك بجمع التكسير العربى المنتهى أصلا بالنون ، فمثلا : المصارن وهى الأمعاء أخـذوا منه إصرم بالقلب وجمعوه على إصرْمان .

ومن ذلك أنهم يأخذون الكلمة المؤنثة العربية المؤنثة معنى و يجعلون لها علامة الاسمية المؤنثة ، وفى آخرها تاء التأنيث المسكنة فى لغتهم مثال ذلك العين بمعنى منبع الماء جعلوها تالعينْتْ . وتالماعُونْتْ أى الماعون وهو عندهم مؤنث وتادارت أى الدار .

ثم إن الكلمات العربية المؤنثة بتاء التأنيث يأخذونها غالباً كما هى ولكن يجعلون تاءها مسكنة على طريقتهم مثال ذلك لبهينت أى البهيمة مع قلب الميم نوناً ولخبيت الخابية أى الجرة ولغابت الغابة ولغايت الغاية .

ومن أساليبهم أنهم يستعملون لأسماء الحرفة الصيغة العربية فعال ويؤنثونها على طريقتهم فيقولون للتجارة : تانجارت.

وللحدادة تاحدادت ، وهكذا دواليك وهذه الصيغة البربرية أخذها المغاربة فى لغتهم العامية فنقول كذلك : تعطارت وتادباغت لمهنة العطار والدباغ .

وإذا كانت فى العربية كلمة تنتهى بتاء أصلية اعتبروها للتأنيث وزادوا فى أولها تاء الاسمية للتأنيث مثال ذلك الياقوت بمعنى اللؤلؤ قالوا فيها : تالياقوت .

وكثيراً ما يجمعون الكلمة العربية على طريقة جمعهم فيقولون لجمع الدار أى : تادارت : تيدار جمع تكسير .

ومن الظواهر التى تدل على مقدار تأثير اللغة العربية على البربرية أن البرابرة أخـذوا كلمات لا تستعمل فى العربية العامية المغربية ومعنى ذلك أنهم أخذوها مباشرة من الأعراب الوافدين على المغرب فى حين أهملها المستعربون من قبلهم من المغاربة من أهل المدن وذلك نحو لغمد أى الغمد غشاء السيف وتيمصليحت أى المصلحة ويعنون بها المكنسة .

ومن طرقهم فى الاقتباس أنهم أخـذوا كلمات عربية وأعطوها معنى خاصاً ليس لها فى العربية وذلك مثل آسليخ بمعنى الجلد من سلخ ولمفتاح بمعنى شوكة التلقيح تفـاؤلا ، وإنسلمن بمعنى الجنة من المسلمين . ولعايل بمعنى الطفل من العائلة ولجر بمعنى المحراث أى ما يجر .

ثم إن البرابرة يعمدون كثيراً إلى القلب ما بين الحروف فى الكلمات العربية عند إدخالها فى لغتهم والأمثلة على ذلك كثيرة فمن قلب الميم نوناً : تاخديننت أى الخاتم . وفى هذا المثال قلبوا كذلك التاء دالا وتالقيننت أصلها تالقيمت أى اللقمة .

ومن قلب القاف غيناً : إمرغان أى المرق وهو جمع صيغة ومفرد معنى ، لأن اللغة البربرية لا تستعمل المفرد لما كان مظهره غير كتلة واحدة وليس لهذه الألفاظ مفرد من لفظها . فالماء مثلا : سمى أمان الذى إذا جرد من أداة الاسمية المذكرة ومن نون الجمع يبقى ما ، وهذه الظاهرة نفسها نراها فى العبرية حيث يسمى الماء ميم بالإمالة وميم الجمع التى تقوم مقام النون فى العربية والبربرية . وهذا مما يؤيد أيضاً أن البربرية لغة سامية ، ومن الأمثلة كذلك : إيردن القمح وطومزين الشعير وهما جمعان .

ومن قلب الطاء ضاداً : آضبيب الطبيب وشرض أى الشرط .

ومن قلب الضاد طاء : لخفطت أى الخفضة ، فى الرسم وروط أى المقبرة والأصل الروض

ومن قلب الدال تاء : لمنتفع أى البندقية من المدفع وفى هذا المثال قلبت الميم نوناً أيضاً .

ومن قلب الدال ضاداً : أمياض : الصياد

ومن قلب الصاد زاياً مفخمة : زوم أى صوم .

والواو المشادة تقلب واوها الأولى قافا معقدة مثل ذلك : إخكوان أى كأنها إخوان من الخوانين بمعنى السراق عندهم .

ويقلبون لام أل التعريف راء فى بعض الكلمات نحو : أربعض أى البعض وأرجسامع أى الجامع بمعنى الكتاب وفى المدن يقال له : المسيد من المسجد وأرجهاد أى الجهاد .

وبعض القبائل تنطق الكاف شيئاً فيقولون مثلا لمبارك : مبارش وآشريش الشريك ، ولشيل الكيل ولوشيل الوكيل وهذا النطق كان عند بعض قبائل العرب ولا يزال فى اللهجة العراقية .

ومن أساليبهم القلب الاصطناعى كما فى العربية أعنى تقديم حرف على آخر نحو : تاغريفت أى كأنها تارغيفت الرغيفة وشرف أى قطع من رشق .

وأحياناً يتصرفون فى الكلمة العربية بشتى الأساليب حتى يحجب نطقها الأصلى . فمثلا يسمون المسجد تمزكيدا ومنها أخذ الأسبان اسم المسجد إذ يسمونها Mesquita

ويستعملون أيضاً الإدغام فيدغمون مثلا الدال فى النون فيقولون : صنوق للصندوق ونم للندم . ونه لنده ... إلخ .

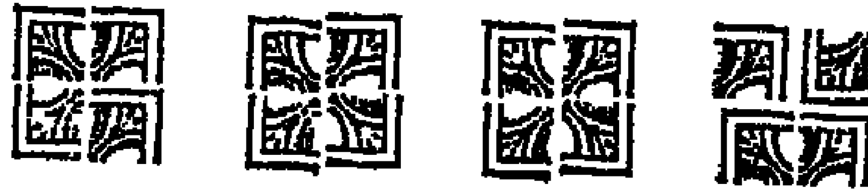
ويدغمون الدال فى اللام فيقولون لوالين للوالدين .

وبعد ، فهذه نماذج من الأساليب التى استعملها البرابرة فى نقل ألفاظ عربية إلى لغتهم وبمختلف لهجاتها .

ومن خلال الأمثلة التى أوردتها يظهر اتساع هذا الأخذ وهو كما قلت يقدر بخمسين المائة من مجموع اللغة البربرية التى تسمى أيضاً الأمزيغية لأن البرابرة يسمون أنفسهم إمازيغن جمع أمزيغ أى الإنسان الأبيض الحر — ولقد وضعت قاموساً بربرياً عربياً فرنسياً أنا فى صدد إخراجه لدفعه للطبع قريباً إن شاء الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمد الفاسى

عضو المجمع من المغرب



الجراحة في الإسلام

للدكتور مهدي محقق

الجراحة والجراح :



لما كان العمل الجراحي يجرى على أيدى الأطباء المهرة المدربين ، والآلات والأدوات الحديدية المناسبة فقد افترقت التعبيرات عن العمل الجراحى فى الطب الإسلامى باليد والحديد فنشاهد فى كتب الطب نظير « علاج الحديد » ، الأعمال بالحديد » ، « عمل اليد » « وصناعة اليد» ونحو ذلك . وهذه التعبيرات هى ما يطلق عليها اليوم اسم الجراحة المترجمة فى كتب الأفرنجية إلى

operative treatment surgery

ويطلق فى الكتب الإسلامية على الطبيب الماهر علماً وعملا فى هذا الفن اسم « جراح » أو « جرائحى » أو « دستكار » وهى كلمة وردت من الفارسية إلى العربية .

أما كلمة جراح العربية فهى صيغة مبالغة من المصدر « جراحة » بمعنى الحرفة أو المهنة ويعنى بذلك الشخص الذى يشق جلد البدن بالآلة الخاصة حتى يعالج الداء من الداخل وهذه الكلمة مستعملة فى العربية والفارسية من قديم الأزمان . فالطبرى يقول « كان المجبرون والجراحون يأتون ليربطوا أرجله »(١) وكلمة «جرائحى» نسبة إلى جرائح جمع جريحة وكانت هى الأخرى متداولة بين الأطباء . يقول ابن بطلان : « يحتاج الجرائحى أن يكون عالماً بالتشريح ومنافع الأعضاء ومواضعها ليجتنب فى فتح المواد قطع الأعضاء وأطراف

بادر خوارزمى جوسنكين دل پزشك　　　دست پرمسبار دارد آستين پر نيشتر

(*) ألقى فى الجلسة العاشرة يوم الثلاثاء ٢٩ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م .

المصادر

(١) ترجمة تفسير طبرى (تهران ١٣٤٢ هـ . ش .) ، ج ٥ ص ١٢٣٧ .

العضل والأوتار والألياف»[1]. كما كانت هذه الكلمة مستعملة إلى جوار كلمة «طبائعى» التى يراد بها الطبيب غير الجراح[2] وأما كلمة « دستكار » الفارسية بمعنى جراح فمأخوذة من الكلمة « دستكارى » وهى ترجمة كلمة « عمل اليد » وقد وردت فى الأدب الفارسى . قال ازرقى الهروى : « الريح الذى يهب من جانب الخوارزم يحكى طبيباً جراحاً جريئاً يده مليئة بالمسابر وكمه بالمباضع »[3] .

وعند ماروى أبو منصور الثعالبى قصيدة أبى دلف الخزرجى الساسانية فسر كلمة « نطاس » الواردة فى هذا البيت :

وتمنسا كل نطّاس على السر زك مستحرى

بأن النطاس « القوى القلب من الدستكارين تراهم على الدواب ومعهم الكلاليب والمباضع يداوون الرمدى وغيرهم من الأعلال »[4].

مصادر علم الجراحة فى الاسلام :

أشار العلماء المسلمون إشارات قصيرة إلى الجراحة الهندية والعربية . أما أهم مصادر هذا الفن فقد توفرت لهم من اليونان ومن أهم هذه المصادر آثار بقراط وجالينوس .

فعلى بن ربن الطبرى فى كتابه الطبى ذكر فى مقالة واحدة أبواباً من محاسن كتب الهند فى الطب وأفضل أدويتهم وفى الباب[5] الثانى ينقل عن كتاب سسرد Susruta أنه قال : « أن علم الطب ثمانية أجزاء أطفالى وميلى ومبضعى وجسمى وأرواحى وترياقى وباهى والمشب » وهو يفسر الميلى بعلاج العين

---

(١) دعوة الأطباء ، ابن بطلان (القاهرة بدون تاريخ) ، ص ١٥ .

(٢) طب النبى (ص) ، ابن القيم الجوزية (القاهرة ١٣٩٨) ، ص ٢١٠ .

(٣) ديوان حكيم أزرقى الهروى (تهران ١٣٣٦ هـ . ش .) ، ص ٢١ .

(٤) يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر . أبو منصور الثعالبى (القاهرة ١٣٦٦) ، ج ٣ ص ٣٦٦ كما استعملت كلمة « دستكارى » فى كتاب الأغراض الطبية ، سيد إسماعيل الجرجانى (طهران ١٣٤٥) ، ص ٤٧٤ يجب أن نذكر أن كلمة « دستكارى » أو « العمل باليد » يشمل أصنافه الستة :

١ — جبر العظم المكسور .
٢ — إصلاح العظم المخلوع .
٣ — البط .
٤ — الخياطة .
٥ — القطع .
٦ — الكى .

ارجع إلى كتاب بستان الأطباء وروضة الأطباء ، أبو نصر أسعد بن الياس بن المطران (مخطوطة مكتبة ملك فى طهران رقم ٤٢١٠) ، ص ١٩ .

(٥) فردوس الحكمة ، على بن ربن الطبرى (برلين ١٩٢٨) ، ص ٥٥٨ ترجمة كتاب سسرد الإنجليزية طبع فى كلكتة سنة ١٩٥٧ .

والمبضعي والمرهمات ، وفى موضع آخر ينقل عن نفس الكتاب بهذه العبارة : ويفبغى أن يروض نفسه بالمباضع والكى والقلع والخياطة والقطع للجلود ويتدرب على عيون الشاة وما أشبهها حتى يستمريده »[١] .

هذا ، ونشاهد فى كتب التاريخ اشارات مجملة إلى طب العرب من جملة ذلك أن ابن خلدون يقول : « وللبادية من أهل العمران طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحى وعجائزه وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج وكان عند العرب من هذا الطب كثير وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كلده وغيره[٢]» كما أنه يحدث أحياناً أن يشار فى العربية إلى بعض الأمراض مثل « حمى الربع [٣]» وهى الحمى التى تعاود الإنسان كل أربعة أيام فالشاعر العربى الشنفرى يقول :

وألف همـــوم ما تزال تعوده
عيادا كحمى الربع أوهى أثقل[٤]

وقد رويت عن الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله وسلم أحاديث وروايات تحكى عن أنه فى الحالات التى لاحيلة لها تجب المبادرة إلى الجراحة . منها أنه روى عن على كرم الله وجهه أنه قال: «دخلت مع رسول الله على رجل يعوده بظهره ورم ، فقالوا : يا رسول الله بهذه مدة . قال : بطوا عنه . قال على : فما برحت حتى بطت والنبى شاهد[٥]». وروى عن أبى هريرة « أن النبى أمر طبيباً أن يبط بطن رجل أحوى البطن ، فقيل : يا رسول الله هل ينفع الطب ؟قال : الذى أنزل الداء أنزل الشفاء فيما شاء[٦]»

---

(١) نفس المرجع ، ص ٥٦٠ .

(٢) مقدمة ابن خلدون (القاهرة ١٩٣٠) ، ص ٤١٤ .

(٣) هى المعروفة اليوم بالملاريا .

(٤) لامية العرب للشنفرى ، اللاميات الثلاث (القاهرة ١٣١١) ص ١٢ وهى الملاريا التى أصيب بها المتنبى بعد ذلك بقرون فقال فى وصفها :

وزائرتى كان بها حيــــاء فليس تزور إلا فى الظـــلام
إذا مـــا فارقتنى غسلتنى كانا عاكفان على الحـــرام
اراقب وقتهـــا من غير شوق مراقبة المشوق المستهـــام
ويصدق وعدهـــا والصدق شر إذا القاك فى الكروب العظـــام

شرح التبيان على ديوان المتنبى ، للعكبرى (القاهرة ١٢٨٧) ، ج ٢ ص ٤١٣ / ٤١٤ .

(٥) طب النبى (ص) ، ص ١٨٥ .

(٦) نفس المرجع .

فبالنظر إلى هاتين الروايتين المذكورتين نستنتج أن رسول الإسلام قد جوز استعمال الحديد فى بعض الأمراض وإن كان قد أظهر كراهيته للعمل الجراحى فى بعض الموارد كراهية اقتضت ظروفها وكيفيتها الخاصة وتكون القصة التالية من مصاديق هذه الموارد روى عن الامام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال : « أن قوما من الأنصار قالوا : يا رسول الله أن لنا جاراً » اشتكى بطنه أفتاذن لنا أن نداويه ؟ قال : بماذا تداوونه ؟ قالوا يهودى عندنا يعالج من هذه العلة قال : بماذا قالوا : بشق البطن فيستخرج منه شيئا ، « فكره ذلك رسول الله (ص) فعاودوه مرتين أو ثلاثا ، فقال : افعلوا ما شئتم ، فدعوا اليهودى فشق بطنه ونزع منه رجرجا كثيرا» ثم غسل بطنه ثم خاطه وداواه ، فصح ، فاخبر النبى (ص) فقال : « إن الذى خلق الأدواء خلق لها دواء » [1] وقبل أن تترجم كتب أطباء اليونان أمثال بقراط وجالينوس إلى العربية . كان عمل الجراحين يتم ببساطة على أساس المعلومات الحاصلة من التجربة والمهارة فى العمل . ولدينا أخبار متناثرة هنا وهناك عن هذا القبيل من العمليات . منها أن أبا الفرج الأصفهانى قال : « أن سكينة بنت الحسين عليه السلام خرجت بها سلعة فى أسفل عينها فكبرت حتى أخذت وجهها وعينها وعظم شأنها ، وكان بدراقس منقطعا إليها فى خدمتها ، فقالت له : ألا ترى ما قد وقعت فيه ؟ فقال : أتصبرين على ما بمسلك من الألم حتى أعالجك ؟ قالت : نعم . فأضجعها وشق جلد وجهها حتى ظهرت السلعة ثم كشط الجلد عنها أجمع ، وسلخ اللحم من تحتها فأخرجها أجمع ورد العين إلى موضعها وعالجها وسكينة مضطجعة لا تتحرك ولا تئن حتى فرغ مما أرد فزال عنها وبرئت منها[2] »

المصادر اليونانية فى علم الجراحة :

أهم ما وصل إلى أيدى المسلمين من المصادر اليونانية فى علم الطب كان من الطبيبن المشهورين بقراط hippocrates وجالينوس galen وعلماء المسلمين الذين اهتموا بشرح أحوال الأطباء والفلاسفة قد فصلوا القول فى ذكر هذين الحكيمين وآثارهما . فابن رضوان المصرى فى مستهل رسالته « فى

---

(١) دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام ، القاضى النعمان المغربى (القاهرة ١٣٧٩) ، ج ٢ ص ١٤٢ والظاهر أن الرسول كره أن يكون بدن المسلم موردا « للجراحة تحت يد غير المسلم وربما كان هذا لما يجب للمسلمين من مهارة فى هذا الفن كما أظهر الشافعى لهذا الأمر بعد سنوات وقال : « لا أعلم علما بعد الحلال والحرام انبل من الطب » وكان يتلهف على ما ضيع المسلمون من الطب ويقول : « ضيعوا ثلث العلم ووكلوه إلى اليهود والنصارى » الطب النبوى ، الحافظ أبو عبد الله الذهبى (للقاهرة ١٣٧٦) ، ص ١٢٥ .

(٢) الأغانى ، أبو للفرج الأصفهانى (للقاهرة دار الكتب المصرية ١٣٤٥) ، ج ١٦ ص ١٦٠ .

التطرق بالطب إلى السعادة « قال» لقد أكمل بقراط صناعة الطب وهذب جالينوس تعليم بقراط» ثم ذكر أسماء خمس وخمسين كتابا من آثار بقراط وبين ترتيب قراءتها على هذا النحو : « وليس هي مرتبة ويمكن أن ترتب ترتيبين أحدهما يليق بأصحاب التجارب وهي أن يبدأ بقراءة قاطيطرون وتفسير «حانوت الطبيب» ثم تثنى بعده كتاب الكسر والرض ثم كتاب الجبر ثم كتاب الجراجات ثم ساير الكتب العلمية على ترتيب ما ينبغي أن يقرأه شيئا « بعد شيء فلما فرغت الكتب العملية يبدأ بعدها بكتاب طبيعة الإنسان وترتيب القراءة فيها على ما ينبغي . والترتيب الآخر يليق برأي أصحاب القياس وهو أن يبدأ بقراءة كتاب طبيعة الإنسان ثم يوالى القراءة على ما ذكرت ويحفظ ظاهر كتاب الفصول وكتاب تقدمة المعرفة فإذا فرغت كتب علم هذه الصناعة يبدى بقراءة كتاب قاطيطرون وما بعده على حسب ما يوجبه العمل [1] وكما نلاحظ فإن كتابي بقراط الهامين الذين يرتبط أحدهما بالطب العلمي والآخر بالطب العملي قد تحصلا لأيدى المسلمين وقد أولى أصحاب التجارب جل اهتمامهم بالجانب العلمي . ويقول بقراط في بداية كتابه قاطيطرون=(حانوت الطبيب [2]) « وأما الأشياء التي عندما يعمل باليد في حانوت الطبيب فالمريض والمعالج وخدمه وآلاته وأدواته والضوء وأين وكيف وكم وفى أي الأشياء وبأى حال ومتى والجسم والآنية والوقت والجهة والموضع « [3] » ثم بين كلا من هذه الأمور بالتفصيل . وكانت أهمية قاطيطرون

(١) مقالة فى التطرق بالطب إلى السعادة ، ابن رضوان ، مجلة تاريخ العلوم العربية ، معهد التراث العلمى العربي (حلب تشرين الثانى ١٩٧٨) ، ج ٢ العدد ٢ ص ٤٤٠ .

(٢) كان فى اليونان القديم ثلاث مدارس طبية :

١ — أصحاب التجارب Empiricistes

٢ — أصحاب القياس Dogmatistes

٣ — أصحاب الطب الحيلى Methodistes جالينوس فى كتابه « فى الفرق » وكذلك فى « فى التجربة الطبية » (اكسفورد ١٩٤٤) تكلم عن الاختلاف بين هذه المكاتب الثلاثة وارجع أيضا « إلى كتاب « جالينوس الفرغامسي » لجورج سارتن (جامعة كانزاس ١٩٥٤) وقد انجر هذا الخلاف بين الفرق الطبية إلى العالم الإسلامى ارجع إلى مناظرة الأطباء فى مجلس الواثق بالله التى نقلها المسعودى بالتفصيل فى مروج الذهب (بيروت ١٩٧٣) ، ج ٤ ص ٢٧٧ .

(٣) كتاب بقراط المعروف بقاطيطرون (كمبردج ١٩٦٨) ، ص ١ .

بالغة حتى أن جالينوس مع عاو مرتبته قد فسره ، ونقله حنين بن اسحق من اليونانية إلى السريانية وترجمة حبيش إلى العربية من أجل محمد بن موسى[1] .

أما جالينوس فإنه حتى يؤسس أصول الجراحة فقد ألف كتابين الها مين فى علاج التشريح وفى منافع الأعضاء[2] وقد صرح الأطباء المسلمين بأن الجرائحى يحتاج أن يكون عالما بالتشريح ومنافع الأعضاء ومواضعها ليجتنب فى فتح المواد قطع الأعضاء وأطراف العضل والأوتار والآلياف .[3] وكانت معرفة الجراحين الإسلاميين بكتاب جالينوس المعروف بقاطاجانس فى الجراحات والمراهم[4] أمرا « الزاميا وذلك لأن الطبيب ينبغى أن يكون واعيا بكيفية فتح البدن والخياطة واستعمال المراهم وعيا كاملا وقد فصل جالينوس هذه الأمور فى ذلك الكتاب وهو نفسه كتب كتبا » متعددة أخرى فى علم التشريح لتعين الأطباء فى علم الجراحة ومن أهم تلك الكتب هى : فى اختصار كتاب مارنيس فى التشريح فى اختصار كتاب لوقس فى التشريح ، فيما وقع من الاختلاف فى التشريح ، فى تشريح الحيوان الميت . فى تشريح الحيوان الحى ، كتابه فى علم بقراط بالتشريح ، كتابه فى علم علم أرسسطراطس فى التشريح ، كتابه فيما لم يعلم لوقس من أمر التشريح ، كتابة فى تشريح الرحم ، كتابه فى تشريح آلات الصوت ، كتابه فى تشريح العين[5] وما أن توافرت هذه المصادر القيمة للمسلمين . حتى تسلطوا على علم التشريح ومنافع الأعضاء ثم استفادوا بهذا العلم فى قسم الجراحة وعمل اليد بسهولة . وكتاب جالينوس فى علاج التشريح هو نفس الكتاب المعنون «كتاب جالينوس فى عمل التشريح ما لم يبق منه فى اللغة اليونانية» الذى طبع فى مجلدين سنة ١٩٠٦ فى لايبزيج وقد

---

(١) رسالة إلى على بن يحيى فى ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعمله وبعض ما لم يترجم ، حنين ابن اسحق (ليزيج ١٩٢٥) ؛ ص ٤٣ والترجمة الفارسية لهذه الرسالة فى ص ٤٠٦ من عشرين مقالة فى مباحث العلمى والفلسفى والكلامى والفرق الإسلامية ، مهدى محقق (طهران ١٣٥٥ هـ . ش) .

(٢) رسالة حنين ، ص ١٩ و ٢٧ الترجمة الفارسية بيست كفتار (عشرين مقالة) ، ص ٣٨٣ و ٣٩١ .

(٣) دعوة الأطباء ، ابن بطلان ، ص ١٥ .

(٤) لمزيد الاطلاع ارجع إلى « فيلسوف الرى محمد بن زكريا الرازى » بالفارسية : مهدى محقق ، (طهران ١٣٤٩) ، ص ٣١٦ .

(٥) رسالة حنين ، ص ٢٠ إلى ٢٣ الترجمة الفارسية « بيست كفتار » ص ٣٨٤ إلى ٣٨٦ .

أورد فيه جالينوس نبذا من الكتب المذكورة ومن جملة ذلك ما أورد فى أوائل المقالة التاسعة على ما يلى :

«والتشريح الذى يكون فى بدن حيوان قد مات يتعلم الرجل ويعرف به كل واحد من الأعضاء وعددها وخواصها فى جواهرها ومقاديرها وأشكالها وتركبها فأما التشريح الذى يكون فى بدن حيوان حى فمرة يفيد صاحبه معرفة فعل العضو الذى يشرحه بلا واسطه فيما بين ذلك ومرة يفيد معرفة الأصول التى يحتاج إليها فى العلم بفعل العضو وإذا كان الأمر فى ذلك كذلك معلوم أنه ينبغى أن يكون تشريح الحيوان الحى وتشريح الحيوان الميت يمكن يعالج بضربين أحدهما العضو الذى شرح فى موضعه من جملة البدن والآخر العضو الذى قد أخرج عن موضعه من البدن وإفراد وحده (١) .

جراحوا عالم الاسلام :

لقد بحث أطباء العالم الإسلامى أمثال على بن ربن الطبرى فى فردوس الحكمة ومحمد بن زكريا الرازى فى الحاوى وعلى بن عباس المجوسى فى كامل الصناعة وابن سينا فى القانون بحوثا مسهبة فى مورد تشريح الأعضاء ومنافعها وأبانوا فى موارد متعددة عن قطع الأعضاء ووصلها وشقها وخياطتها إلا أنه للأسف أن هذه الطريقة فى المعالجة قد نسيت على مدى جيلين بعد العلماء المشار إليهم . فهذا صاحب كتاب هداية المتعلمين وكان تلميذا أبى القاسم المقانعى تلميذ الرازى عندما ذكر عارضة « الفتق » تراه على الرغم من أنه بين عمله الجراحى نظريا على هذا النحو : « وعلاجه أن يشق جلد البطن فيظهر الشق (الفتق) فيخاط ثم يضعون على الجراحة الدواء اللازم لابداء اللحم قياسا على أن من فتحت بطنه يجب أن تخاط إلا أنه اعتبر هذا العمل صعبا وختم كلامه بقوله : « ونظراً إلى صعوبته لم يقدم عليه أحد »(٢) .

وهذا المقال وإن لم يكن المجال الذى تقدم فيه كل الجراحين الإسلاميين وكل الكتب التى ألفت فى فن الجراحة إلا أننا نحرص أن نتناول بالحديث جراحاً من الشرق وهو محمد بن زكريا الرازى وجراحاً من الغرب وهو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى ونذكر خدمتهما لهذا الفن بشىء من البسيط .

أما الرازى فقد اهتم بالجراحة بالآلات والأدوات الحديدية اهتماما بالغا وكتب كتابا تحت عنوان « فى العمل بالحديد

---

(١) كتاب جالينوس فى عمل التشريح ، ترجمة حنين بن إسحق ج ١ ، أول المقالة التاسعة .

(٢) هداية المتعلمين ، ربيع بن أحمد البخارى الأخوينى (مشهد ١٣٤٤ هـ. ش .) ، ص ٥٥١ .

والجبر[1]» وكما يظهر من عنوانه، فقد جمع قوانين الجراحة والتجبير ومقرارتها فى مكان واحد وعلاوة على هذا فقد تحدث عن صناعة الجبر فى كتابه المنصورى أيضاً[2] .

كما خصص الرازى فصلا فى كتابه «الحاوى» للتشريح ومنافع الأعضاء باعتبارها أساسا لفن الجراحة وأشار فى نفس الكتاب إلى الدقة والغاية قبل العمل وأثنائه وبالمريض بعد العمل . فمثلا يقول : « قبل العمل يجب أن يعطى المريض أدوية ملينة مسهلة ، والليلة قبل العمل يجب أن يحقن المريض حتى تخلو معدته تماما ، وأثناء العمل يبين كيفية انامة المريض مقابل النور ووظيفة الممرض ، وبعد العمل يشرح مقررات الأكل والشرب والنوم والنظافة وتسكين الآلم[3] .

ونلتقى بين طيات كتاب الحاوى[4] بأنواع العمل الجراحى واقسامه من ذلك ما يلى من الموارد : فى صدد علاج الشعر الزائد فى العين أى « مرض الشعر» الذى يعرف بالأفرنجية trichiasis يقول الرازى « تؤخذ حديده فى دقة الابرة قدر شبر فيعطف رأسها على زاوية قائمة قدر عقد ثم يحمى الرأس جدا ويقلب الجفن ويمده الميك ويوضع على أصل الشعرة المنقلبة فتكويه نعما فإنه يحترق وإلا يعود ينبت فإن كان شعرا كثيرا فاكو كل مرة واحدة أو اثنين ولا يكوى حتى يبرأ الأول اعنى موضعه . » وفى فتح الحنجرة tracheostomy ومنع الاختناق هكذا يقول : العلاج أن تشق الأغشية الوا صلة بين حلق قصبة الرئة ليدخل النفس منه ويمكن بعد أن يتخلص الإنسان وتسكن تلك الأسباب المانعة من النفس أن يخاط ويرجع إلى حاله ووجه علاجه أن يمد الرأس إلى الخلف ويمد الجلد ويشق أسفل من الحنجرة ثم يمد بخيطين إلى فوق وأسفل حتى تظهر قصبة الرئة » ويقول فى نهاية هذه القسمة : « فإذا سكن الورم وكان النفس فليخط[5] ويمسك قليلا وأجعل عليه دروزا أصغر » .

ويشرح الرازى كيفية عمل حصوة المثانة[6] وفى مورد المصابين باسر البول ومن يتعذر

---

(١) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، ابن أبى اصيبعة (بيروت ١٩٦٥) ، ص ٤٢٦ له « مقالة فى علاج العين بالحديد » عيون الأنباء ، ص ٤٢٧ .

(٢) نفس المرجع ص ٤٢٣ .

(٣) أبو بكر زكريا الرازى حياته ومآثره للدكتور فرات فائق (بغداد ١٩٧٣) ، ص ٦٢ .

(٤) الحاوى فى الطب ، محمد بن زكريا الرازى (حيدر آباد ، دائرة المعارف العثمانية) ، ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٥) الحاوى ، ج ٣ ص ٢٥٥ .

(٦) الحاوى ، ج ١٠ ص ١٥٣ .

عليهم الأدرار يقترح استعمال القاثاطير Catheter أو المبولة (١) وأخيرا يجب أن نذكر بأن الرازى ربما يكون من الأوائل من أشاروا إلى الجراحة البلاستيكية plastic surgery فهو يبين كيفية هذه الجراحة فى الشفة والأنف والأذن حينما تطرأ عليها لحمة ضخمة شديدة ، ويوصى بالعمل بحيث تحتفظ لهذه الأعضاء بصورتها وحالتها الطبيعية حتى يرتفع القبح الناشئ عن اللحمة الزائدة(٢) »

وأما الزهراوى فهو ألف كتابه القيم بالتصريف لمن عجز عن التأليف واختص مقالة منه بالعمل باليد وقسمها على ثلاثة أبواب الباب الأول فى الكى بالنار والكى بالدواء ، والباب الثانى فى الشق والبط والفصد والحجامة والجراحات وإخراج السهام ، والباب الثالث فى الجبر والخلع وعلاج الوثى .

يقول الزهراوى فى مبتدء هذه المقالة : « لما أكملت لكم يا بنى هذا الكتاب الذى هو جزء العلم فى الطب بكماله وبلغت الغاية فيه من وضوحه وبيانه رأيت أن أكمله بهذه المقالة التى هى جزء العمل باليد ، لأن العمل باليد محسنة فى بلدنا وفى زماننا معدوم البتة حتى كاد أن يدرس علمه وينقطع أثره وإنما بقى منه رسوم يسيرة فى كتب الأوائل قد صحفته الأيدى وواقعه الخطء والتشويش حتى استغلقت معانيه وبعدت فائدته فرأيت أن أحييه وأؤلف فيه هذه المقالة على طريق الشرح والبيان والاختصار وأن أتى بصور حدائد الكى وساير آلات العمل إذ هو من زيادة البيان ومن وكيد ما يحتاج إليه (٣) وفى نفس تلك المقدمة الزهراوى ينصح تلاميذه بهذه العبارة : « يا بنى ينبغى لكم أن تعلموا

---

(١) الحاوى ، ج ١٠ ص ١٥٣ « القاثاطير وهى الآلة التى يبول أصحاب حصر البول » كلمة « قاثاطير » يونانية وهى Catheter الإنجليزية وبقراط فى كتاب « فى حبل على حبل » الذى طبع فى مركز مطالعات الشرق الأوسط فى كمبردج ١٩٦٨ قد ذكر هذه الآلة وأنهم يدخلونها فى رحم المرأة حتى يخرجوا القيح من الرحم والمترجم الإنجليزى عندما تعرض للعبارة « . . . أن تدخل فى رحمها ميلايسمى بالقافاطير » لم يعرف كلمة القافاطير (ص القاثاطير) وقال معنى هذه الكلمة غير معلوم ، ص ١٢ .

(٢) الحاوى ، ج ٦ ص ٢١٨ حصل التمييز فى عرف الطب بين « التزيين الطبى » و « التزيين التحسينى » ارجع إلى مقالة جالينوس فى أجزاء الطب (برلين ١٩٦٩) ، ص ٢٤ .

(٣) للتصريف لمن عجز عن التأليف ، الزهراوى (جامعة كاليفرنيا ٣ ١٩) ، ص ٣ مع الترجمة الإنجليزية تحت عنوان : Alleucasis on surgery and Instruments

وطبعت نسخة مصورة منه أيضاً فى موسكو ١٩٨٣ مع الترجمة الروسية للأستاذ ضياء الدين بن موسى بونيا توف تحت إشراف أكادمية العلوم للاتحاد السوفيتى ، قسم العلم التاريخى .

أن العمل باليد ينقسم قسمين عمل تصحبه السلامة وعمل يكون معه العطب فى أكثر الحالات وقد نبهت فى كل مكان يأتى من هذا الكتاب العمل الذى فيه الغرر والخوف فينبغى لكم أن تحذروه وترفضوه لئلا يجد الجاهل السبيل إلى القول والطعن فخذوا لأنفسكم بالحزم والحياطة ولمرضاكم بالرفق والتثبت واستعملوا الطريق الأفضل المودى إلى السلامة والعاقبة المحمودة وتنكبوا الأمراض الخطيرة العسيرة البروم ونزهوا أنفسكم عما تخافون أن يدخل عليكم الشبهة فى دينكم ودنياكم فهوا بقى لجاهكم وأرفع فى الدنيا والآخرة لاقدراكم ، فقد قال جالينوس فى بعض وصاياه لاتداو وأمرض سوء فتسموا أطباء سوء[1] ومن نصائحه أيضا : « وأنا أوصيكم عن الوقوع فيما فيه الشبهة عليكم فإنه قد يقع إليكم فى هذه الصناعة صنوف من الناس بضروب من الاسقام فمنهم من قد ضجر بمرضه وهان عليه الموت لشدة ما يجد من سقمه وطول بليته وبالمرض من التقرر ما يدل على الموت ومنهم من يبذل لكم ماله ويغنيكم به رجاء الصحة ومرضه قتال فلا ينبغى لكم أن تتساعدوا من أتاكم ممن هذه صفته البته وليكن حذركم أشد من رغبتكم وحرصكم ولا تقدموا على شىء من ذلك إلا بعد علم يقين يصح عندكم بما يصير إليه العاقبة المحمودة »[2] وفى مطاوى الباب الثانى الذى جعله الزهراوى سبعة وتسعين بابا يذكر موارد عديده من عمل اليد فى كل عضو ولا يجوز لنا أن نطيل هذه المقالة بذكر تلك الموارد وعلى الطالبين الرجوع إلى كتاب التصريف .

وجدير بالذكر أن نذكر أن الزهراوى فى كل عمل ينصح كيفية وضع المراهم على موضع الجراحه ويشير إلى الأدوية المناسبة لسرعة البرء ومن جملة ذلك ما يذكر بعد كى الرأس على ما يلى : « خذ شيئا من ملح فحله فى الماء واشرب فيه قطنة فضعها على الموضع واتركه ثلاث أيام ثم أحمل عليه قطنه مشربة فى السمن واتركها عليه حتى تذهب الخشكريشة من النار ثم عالجه بالمرهم الرباعى إلى أن يبرء إن شاء الله تعالى »[3] وعلى رغم أن كتابه مستوعب لاهم موارد المعمل باليد الزهراوى يشجع تلاميذه بالاجتهاد والاستنباط وقياس الحاضر على الغايب ومن ذلك ما يقول بهذه العبارة : « إن أجزاء هذه الصناعة وتفصيلها لايدرك بالوصف لا يحيط به كتاب وإنما الصانع الحاذق [يقيس بالقليل على الكثير وبما حضر على ما غاب ويستنبط عملا جديدا] وآله جديدة عند النوازل الغريبة إذا نزلت من هذه الصناعة[4] »

(١) التصريف ص ٧ .

(٢) التصريف ، ص ١٦٧ .

(٣) التصريف ، ص ١٩ .

(٤) التصريف ، ص ٦١٧ .

آلات الجراحة وأدواتها :

يستخلص من مطاوى كتب الطب أن الأطباء الإسلاميين كانوا يتجهزوون بالوسائل اللازمة والآلات والأدوات المختلفة وكما سيرد ذكره كانت بعض الأدوات ذات صفة عامة ينبغي لكل طبيب أن يختارها وبعضها الآخر كان مختصا بالكحالين والجرائحيين .

يقول الشيزرى عالم القرن الثامن فى كتابه : ينبغى للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال وهى كلبات الاضراس ومكاوى الطحال وكلبات العلق وزراقات القولنج وزراقات الذكر وملزم البواسير ومخرط المناخير ومنجل النواصير وقالب التشمير ورصاص التثقيل (ظ : الفتيل) ومفتاح الرحم ونوار النساء ومكمدة الحشا وقدح الشوصة غير ذلك مما يحتاج إليه فى صناعة الطب[1] » .

ومن قبله ابن بطلان فى كتابه اللطيف أتى بهذه العبارة التى تعد فيها الأدوات اللازمة للطبيب : « فلا أزال أذكر نفسى الالام والأوجاع واحضر بين يدى آلات العلاج . ثم قال لغلامه أرفع الحلواء وهات ما عندك فما شككت أنه جام آخر ولون قد تأخر وإذا طبق فيه كلبات الاضراس ومكاوى الطحال والرأس وكلبات العلق والنشاب وصنابير السبل ورصاص التفتيل ومنجل البواسير (ظ : النواصير) ومخالب التشمير ومحك الجرب ومنشار القطع ومهت القطع ومجرفة الأذن ومبرد السلع وقبادين الجرب ومخشنة الكتف وحجال الورك ومفتاح الرحم ونوار النساء ومكمدة الحشى وقدح الشوصة ودرج المكاحل ومرهمدان المراهم ودست المباضع[2]

ومن أهم المصادر التى يوجد فيها أسماء الآلات والأدوات الجراحية كتاب التصريف لمن عجز عن التاليف للزهراوى وراقم هذه الأسطر إستخرج تلك الأسماء وأوردها فى مقالة مع ذكر موارد استعمالها وفى هذه المقالة نكتفى بذكر بعضها على ما يلى : أنبوبة جفت ، زراقة ، صنارة ، قاثاطير ، كلاليب لولب ، مبرد ، مبضع ، مجرد ، محجمة ، محقنة مخدع ، مدس ، مدفع ، مسبار ، مسعط ، مشداخ ، مشرط ، مشعب ، مقدح مقص ، منقاش ، موسى ، مهت مرود[3] .

---

(١) نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، عبد الرحمن بن نصر الشيزرى (القاهرة ١٩٦٤) ، ص ٩٩ .

(٢) دعوة الأطباء ، ابن بطلان ، ص ١٠ .

(٣) ذكرت موارد ذكرها فى مقالة من راقم هذه الأسطر (= مهدى محقق) بالفارسية تحت عنوان : « زهراوى وكتاب التصريف » فى مجلة نشر دانش (طهران ١٣٦٢ هـ . ش) ج ٣ عدد ٣ ص ٧٥ .

ونجد فى كتاب الزهراوى لكل منها أقساما مختلفة مثلا : صنارة بسيطة ، صنارة عمياء ، صنارة ذات مخطافين ، صنارة ذات الثلاثة مخاطيف ، ومبضع ، ومبضع بريد ، مبضع ريحانى ، مبضع زيتونى ، مبضع نشل ، (ظ : نشبيل) ومدفع مصمت مدفع مجوف . ومشرط متوسط ، مشرط صغير[1] .

وهو يؤكد لزوم هذه الآلات بهذه العبارة « هذه الآلات كلها كلما كثرت أنواعها وكانت معدة عند الصانع كان أسرع لعمله وأرفع عند الناس لقدره فلا تستحقر منها آلة أن تكون عندك معدة ولابد من الحاجة إليها[2] »

امتحان الجراحين :

موضوع امتحان الأطباء يعتبر منذ القدم من الأمور المهمة ولجالينوس كتاب باسم فى محنة أفضل الأطباء « ترجمه حنين بن اسحق إلى العربية[3] ، وخلف الرازى كتابا باسم « فى محنة الطبيب وكيف ينبغى أن يكون »[4] كما تكلم فى نهاية الجزء الرابع من كتاب المنصورى عن امتحان الأطباء والرازى فى كتابه فى محنة الطبيب يقول : « فأول ما تسأله عند التشريح ومنافع الأعضاء وهل عنده علم بالقياس وحسن فهم ودراية فى معرفة كتب القدماء فإن لم يكن عنده ذلك ، فليس بك حاجة إلى امتحانه فى المرضى وإن كان عالماً بهذه الأشياء ، فاكمل امتحانه حينئذ فى المرضى فمتى رأيته يدرى فنى الأدوية[5] » .

وفى مكان آخر فى طى الأعمال التى يمتحن بها يقول : « متى رأيت الطبيب يبرى بالأدوية الأدواء التى تعالج بعلاج الحديد مثل الخراجات والدبيلات واللوزتين ، والخنازير واللهاة الغليظة والسلع والغدد والمواضع التى تعفن فى البدن والعظام التى تتعرى من اللحم فمتى أجاد الطبيب جميع هذه ولا يحتاج فى شىء منها إلى البط والقطع إلا أن يدعو إلى ذلك ضرورة شديدة فاحمد معرفته[6] » كما نلاحظ فى تلك العبارة الرازى

---

(١) نفس المرجع ، ص ٧٦ .

(٢) التصريف ، ص ٤٩٥ .

(٣) رسالة حنين ، ص ٤٩ .

(٤) رسالة أبى ريحان فى فهرست كتب الرازى (باريس ١٩٣٦) ، ص ٦ الترجمة الفارسية للرسالة ، مهدى محقق ، ص ٤٨ .

(٥) الرازى ومحنة الطبيب ، الدكتور ا . ر. إسكندر ، مجلة الشرق (بيروت ١٩٦٠) السنة الرابعة والخمسون ، ص ٥١٧ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٥١٤ .

يصرح بأنه لا يجوز علاج المرضى بالعمل باليد متى يرجو الطبيب أن يعالجهم بالأدوية ولهذا صارت جملة « الكي آخر الطب » أو « آخر الدواء الكي [1] من الأمثال السائرة وقد أشير إلى اختيار الجراحين فى كتب الحسبة من جملة ذلك أن ابن الأخوة القرشي قال : « وأما الجرائحيون فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس المعروف بقاطاجانس فى الجراحات والمراهم وأن يعرفوا التشريح وأعضاء الإنسان وما فيه من العضل والعروق والشرايين والأعصاب ليجتنب ذلك فى وقت فتح المواد وقطع البواسير وأن يكون معه دست المباضع فيه مباضع مدورات الرأس والمؤربات والحربات وفاس الجبهة ومنشار القطع ومخرقة الأذن وورد السلع ومرهمدان المراهم ودواء الكندر القاطع للدم . [2] واحيانا ما يتفق اختيار الأطباء من حيث المهارة ولبونة اليد كما روى ابن بطلان فى ضمن حكاية حكاها : « ثم قال أرني مباضعك فاخرجت إليه دست المباضع فتامله وقال : اين المدورات والمشعرات والمرزويات والحربات واين فاس الجبهة وصينارة الصدغ والدواء القاطع للدم قلت ما معى من هذه كله شيء . قال : فأرنى لطف أنا ملك . فلما اخرجت يدى قال : ما هذه أنا مل تصلح لجس العروق ولا هذا زند يقدح جواب هذه المسائل[3] .

اشباه الأطباء واشباه الجراحين :

لما كانت الطب من الحرف التى تتعامل مع عامة الناس ، فإنه يتفق أحيانا أن يكون اجتذاب الأطباء الجهلة لعامة الناس شديدا فيحققون توفيقا أكثر فى مهنتهم وقد كتب محمد بن زكريا الرازى فى توجيه هذا الموضوع ثلاث رسالات بهذه العنوانين :

١ — فى الأغراض المميلة لقلوب كثير من الناس عن فاضل الأطباء إلى أخسائهم .

٢ — فى العلة التى لها ترك بعض الناس ورعاهم الطبيب وإن كان حاذقا .

٣ — فى العلة التى لها ينجح جهال الأطباء والعوام والنساء أكثر من العلماء[4] .

ولهذا يتظاهر بعض الجهلة بصورة الطبيب ويخدعون الناس بالحيلة والشعوذة وهذا القبيل من الأطباء ليس لهم مكان أو محل معين

---

(١) ونقل بعض العوام هذا المثل على صورة « آخر الداء الكى » ارجع إلى تقويم اللسان ، ابن الجوزى (قاهره ١٩٦٦) ، ص ٦٦ وكذا الطب النبوى ، الحافظ الذهبي ، ص ١٥٠ .

(٢) معالم القربة فى أحكام الحسبة ، محمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن الأخوة (كمبرد ج ١٩٣٧) ص ١٦٩ .

(٣) دعوة الأطباء ، ابن بطلان ، ص ١٨ .

(٤) رسالة أبى ريحان فى فهرست كتب الرازى ، ص ١٠ ، للترجمة الفارسية ، ص ٥١ .

حتى يؤخذوا بأخطائهم ولهذا السبب بالذات وعلى حد قول جالينوس فإنهم يطلقون على أنفسهم اسم « الطوافين » (١) ، وقد شوهد في العصور الاسلامي كثير من هذا القبيل من اشباه الأطباء ممن عبر عنهم بالمشعوذين والمشاتين . (٢) وقد ذكر ابن طيفور في كتابه بغداد قصة أحد هؤلاء المشعوذين المشاتين الذى رآه يبسط كساه ببغداد ويلقى عليه أدوية وهو قائم ينادى عليها : هذا الدواء لبياض العين والغشاوة وضعف البصر وإلى غير ذلك كيف اجتمع العوام حوله وقد صدقوا كلامه وانخدعوا من احتياله . (٣) والرازى فى ختام المقال السابع من كتاب المنصورى تكلم فى مخاريق المشاتين (٤) وأعمالهم غير الصحيحة وأقداماتهم المخافية للصواب وحذر الناس منهم وفى كتابه محنة الطبيب ذكر بنبذة من خدع اشباه الجراحين من ذلك قوله : « أن مخاريق هؤلاء كثيرة يضيق عن ذكرها كتابنا هذا بأسره وجرأتهم واستحلالهم تعذيب الناس باطلا فى الغاية التى لا وراءها غاية فإن منهم من يزعم أنه يبرى من الصرع بأن يشق وسط الرأس شقا صليبيا ثم يخرج أشياء قد أعدها معه يوهم بخفته وتمويهه أنه أخرجها من ذلك الشق » (٥) ويقول الشيرزى نحو ذلك بهذه العبارة : « وقد يهرجون على الناس بعظام تكون معهم فيدسونها فى الجرح ثم يخرجونها منه بمحضر من الناس ويزعمون أن أدويتهم القاطعة أخرجتها » (٦)

حسبة الأطباء والجراحين :

أورد الشيرزى الباب السابع والثلاثين من كتابه فى الحسبة تحت عنوان : « فى الحسبة على الأطباء والكحالين والمجبرين والجرائحيين حيث بين شروط الأطباء وأطباء العيون ومجرى العظام والجراحين فقال · وللمحتسب أن يمتحن الأطباء بما ذكره حنين بن اسحق فى كتابه المعروف محنة الطبيب » . (٧) وأما

---

(١) فى الأسماء الطبية ، جالينوس ، ترجمة حبيش ، ص ٤ . R. Dozey

(٢) « المشاتين » بمعنى المحتالين نقلا » عن متمم معجم الأسماء العربية ، دزى ٧ (باريس ١٩٢٧) ، ج ٢ ص ٥٩٤ .

(٣) بغداد ، ابن طيفور (القاهرة ١٩٤٩) ، ص ٥٤ نقلا عن تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، سامى خلف الحارنة (القاهرة ٩٦٧) ص ١٣ .

(٤) عمل الرازى كتاب المنصورى المعروف بالكناش المنصورى وفى اللاتينية Liber Almansoris لمنصور بن أسد قرابة وإلى خراسان راجع رسالة أبى ريحان .

(٥) الرازى ومحنة الطبيب ، مجلة المشرق ، سنة ٥٤ ص ٤٨٨ .

(٦) نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، ص ١٠٢ .

(٧) نهاية الرتبة ، ص ١٠٠ اطلق عليه ابن أبى اصيبعة « فى إمتحان الأطباء » عيون الأنباء ، ص ٢٧٣

الكحالون فيمتحنهم المحتسب بكتاب حنين بن اسحق أعني العشر مقالات في العين(1) . و « أما المجبرون فلا يحل لأحد أن يتصدى للجبر إلا بعد أن يحكم معرفة المقالة السادسة من كناش بولص في الجبر » (2) . وأما الجرائحيون فيجب عليهم معرفة كتاب ، جالينوس المعروف بقاطاجانس في الجراحات والمراهم(3)» ثم يذكر ساير شروط كل طبقة وهو يوكد بأن من لم يكن حائزاً لهذه الشروط لا يحل له مداداة المرضى ولا يجوز له الاقدام على علاج يخاطر فيه ويؤيد اظهاره بذة الحكاية من قدماء اليونان : « وقد حكى أن ملوك اليونان كانوا يجعلون في كل مدينة حكيما مشهورا بالحكمة ثم يعرضون عليه بقية أطباء البلد ليمتحنهم ، فمن وجده مقصرا في علمه أمره بالاشتغال وقراءة العلم ، ونهاه عن المداولة . وينبغي إذا دخل الطبيب على مريض أن يسأله عن سبب مرضه وعما يجد من الألم ويعرف السبب والعلامة والنبض والقارورة ثم يرتب له قانونا من الأشربة وغيرها ثم يكتب نسخة بما ذكر له المريض وبما رتبه له في مقابلة المرض ويسلم نسخته لأولياء المريض ، بشهادة من حضر معه عند المريض فإذا كان من الغد حضر ونظر إلى دائه ، وسائل المريض ورتب له قانونا على حسب مقتضى الحال وكتب له نسخة أيضاً وسلمها إليهم وفي اليوم الثالث كذلك ثم في اليوم الرابع وهكذا إلى أن يبرأ المريض أو يموت فإن برىء من مرضه أخذ الطبيب أجرته وكرامته وإن مات حضر أولياءه عند الحكيم المشهور وعرضوا عليه النسخ التي كتبها لهم الطبيب فإن رآها على مقتضى الحكمة وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب أعلمهم وإن رأى الأمر بخلاف ذلك قال لهم : خذوا دية صاحبكم من الطبيب فإنه هو الذي قتله بسوء صناعته وتفريطه . فكانوا يحتاطون على هذه الشريفة إلى هذا الحد حتى لا يتعاطى الطب من ليس من أهله ولا يتهاون الطبيب في شيء منه(4) وفي الإسلام اعتبر الطبيب

---

(1) نهاية ، ص ١٠٠ المقصود كتاب « عشر مقالات في العين الذي طبع مع ترجمته الإنجليزية بمعرفة ماكس مايرهوف سنة ١٩٢٨ بالقاهرة .

(2) المقصود بولص اجانيطي Paulus Aegineta وكناشه هو الذي لخصه حنين عيون الأنباء ، ص ٢٧٣ كلمة كناش آرامية بمعنى مجموعة وفي العربية استخدمت بمعنى مجاميع طبية. ارجع إلى متمم معجم الأسماء العربية ، دزى ، ج ٢ ص ٥٩٤ .

(3) في اللاتيني : De Composition Medicamentorum Secundum Genera
نقلا عن تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، أحمد عيسى بك (دمشق ١٣٥٧) ، ص ٥٤ .

(4) نهاية الرتبة ، ص ٩٨ .

مسئولا وفى حالة عدم المعرفة والتقصير فانه ضامن من فى مقابل المريض ويستند هذا الأمر إلى الحديث الشريف المروى عن الرسول الأكرم (ص) : « من تطبب ولم يعلم منه بالطب قبل فهو ضامن [1] وقال ابن القيم الجوزية : « والطبيب فى هذا الحديث يتناول من يطبه بوصفه وقوله وهو الذى يخص باسم الطبائعى وبمروده وهو الكحال وبمبضعه ومراهمه وهو الجرائحى وبموساه وهو الخاتن وبريشته وهو الفاصد وبمحاجمه ومشرطه وهو الحجام وبخلعه ووصله ورباطه وهو المجبر وبمكواته وناره وهو الكواء وبقربته وهو الحاقن ووسوا ، كان طبه لحيوان بهيم أو إنسان فاسم الطبيب يطلق لغة على هؤلاء كلهم [2] .

وفى مورد ضمان التشخيص غير الصحيح على الأطباء المخطئين بحث العلماء المسلمين والفقهاء بالتفصيل ومن جملة مراجع هذا البحث كتاب الطب النبوى لابن القيم الجوزية وكتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر فى حفظ الشعائر وتغيير المناكر لأبى عبد الله محمد بن أحمد العقبانى التلمسانى [3] .

وهنا بهذه المقالة المشتملة على معلومات متناثرة عن الجراحة فى الاسلام أختم كلامى وأرجو أن يكون مفيداً لطالبى علم تاريخ الطب الإسلامى بعون الله الملك العلام

مهدى محقق

عضو المجمع المراسل من ايران

(١) بخصوص كلمة « تطبب » و « الفرق بين الطبيب والمتطبب » ارجع إلى فيلسوف الرى محمد ابن زكريا للرازى ، مهدى محقق ، ص ٣٦٤ .

(٢) طب النبى ، ابن القيم الجوزية ، ص ٢١٠ .

(٣) بدون تاريخ ، ص ٨٧ .

ليس في اللغة "واو" للاستئناف

للدكتور محمد نائل أحمد (*)

ذكر بعض النحاة المتأخرين، وفي مقدمتهم ابن هشام، أن الواو تأتي للاستئناف، وذكروا بعض الشواهد من القرآن الكريم ومن الشعر.

ولقد راجعت مؤلفات المتقدمين كسيبويه وابن جني وابن يعيش، فلم أجد فيها شيئاً اسمه «واو الاستئناف» وإنما تأتي عندهم للعطف أو الحالية أو المعية، فمهمتها عندهم الربط والوصل، وليس القطع والفصل، فكيف غاب عن ابن هشام العالم الفحل، هذا التضارب الواضح بين معنى «الواو» ومعنى «الاستئناف» في اللغة وفي اصطلاح علماء البلاغة .. فان اللغة تقول: الاستئناف — الابتداء، إذ هو مأخوذ من «الأنف» وأنف كل شيء أوله .. وعلماء البلاغة يعرفون الاستئناف بأنه فصل جملة عما قبلها لوقوعها جواباً عن سؤال تضمنته الجملة الأولى، فهو قطع وفصل، لا مكان فيه للواو .. فحين قال يوسف — عليه السلام —: «وما أبرئ نفسي» أثارت الجملة علامة استفهام كبرى تخطر لكل قارئ أو سامع: كيف تنفي عن نفسك البراءة وقد ثبتت بأكثر من شاهد؟ فيكون الجواب: «إن النفس لأمارة بالسوء» (يوسف ٥٢) فالجملة الثانية كأنها ابتداء كلام، إذ السائل عادة يقطع كلام المسئول فيستأنفه هذا بالجواب.

ويبدو أن ابن هشام حاول في كتابه «المغني» أن يتتبع كل المعاني والأفكار التي طافت بعقول العلماء والمتأدبين في عصره، فذكر ما يصح وما لا يصح ذكر «واو التذكر» و «واو المذكورة» و «واو الإنكار» و «واو الثمانية» و «الواو الزائدة» و «واو التعليل»، وغيرها إلى ما يزيد عن عشرة

(*) ألقي في الجلسة العاشرة يوم الثلاثاء ٢٩ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م.

معان لم تعرفها اللغة الفصيحة ولم يثبت منها شيء عند التحقيق .

وسوف لا نناقش هنا إلا واو الاستئناف وحدها .

قال ابن هشام فى مغنيه : ومن أقسام الواو واوان يرتفع ما بعدهما ، إحداهما واو الاستئناف ، نحو «لنبين لكم ونُقِرُّ فى الأرحام ما نشاء » ، ونحو « لا تأكل السمك وتشرب اللبن » فيمن رفع تشرب ، ونحو « من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم » فيمن رفع أيضاً ، ونحو « واتقوا الله ويعلمكم الله » ، إذ لو كانت واو العطف لانتصب (نقر) ولانتصب أو انجزم (تشرب) ، ولجزم (يذر) كما قرأ الآخرون ، وللزم عطف الخبر على الأمر (أى فى الآية الأخيرة) وقال الشاعر :

على الحكم المأتى يوماً إذا قضى
قضيته ألا يجور ويقصد

وهذا (أى البيت) متعين للاستئناف ، لأن العطف يجعله شريكاً فى النفى ، فيلزم التناقض ، وكذلك قولهم : دعنى ولا أعود .اهـ نص ابن هشام ، ج ٢ ص ٣٢ ، طبعة ١٩٢٨

ولقد نقلت كلامه كله ، لتسهل مناقشته جملة ثم تفصيلا .

فلأول نظرة يتبين أنه اعتمد فى رأيه هذا على اختلاف حركة الإعراب وحدها ولم يحاول أن يستوحى المعنى ، وما وراء مخالفة الإعراب من سر ، وما أكثر الأسرار التى يعبر عنها باختلاف الحركة ، من رفع يأتى بعد نصب أو جزم ، سواء فى الأفعال أو فى الأسماء كما سنرى بعد ، حين نعرض نماذج له من كتاب الله .

وفى النظرة الثانية ، نقف عند قوله — تعليقاً على البيت — إنه يتعين فيه أن تكون الواو للاستئناف فان مفهوم هذا النص أن ما سبقه من الآيات لا يتعين فيها ذلك ، إذ قد خرجها العلماء فعلا على العطف ، رافضين هذا الاستئناف ، وبهذا لا يتبقى من شواهده إلا البيت والجملة التى بعده ، على أننا سننظر فيها جميعها ، شاهداً بعد شاهد :

١ — ففى قوله تعالى فى سورة الحج (٥) « يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم » .

هناك قراءتان فى (نقر) الرفع والنصب ، فالرفع هو ما اعتمد عليه ابن هشام فى رأيه ، والنصب عطفا على (لنُبيِّن) وفى نفسى شيء من قراءة النصب لأن التعليل الواضح فى (لنبين) لا يتضح فى (نقر) بينما قراءة الرفع هى التى يساندها السياق .

والمتأمل فى الآية يجدها استعملت حرف « ثم » فى العطف سواء فى الأطوار التى سبقت

(نقر) والتي جاءت بعدها : فلم تلجأ إلى الواو إلا عند (نقر) وحدها . أليس فى هذا التغيير إشارة إلى سر قصد إليه النظم؟ أو ليست الواو هنا مع ما بعدها (مما أقر فى الأرحام) ، مما يشير إلى حديث مطوى عن شيء لم يستقر فى الأرحام ..؟ وما أروع القرآن حين يوجز فيشير ، ويكتفى بالإشارة عن العبارة . إن ها هنا حذفاً فى الآية دلت عليه الواو والفعل المرفوع بعدها . يتبين ذلك حين نصوغ الآية بلغتنا نحن هكذا : يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانظروا كيف خلقتم .. إنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، وجعلنا الأرحام تلفظ ما نشاء مما لم تكتب له الحياة ، وتقر ما نشاء مما أردنا له الحياة ثم نخرجكم طفلا ... فالواو عطفت (نقر) على (تلفظ)

ومثل هذا التقدير فى إظهار ما طواه النظم الكريم ، كان العلماء يقدرون. فهذا ابن قتيبة.. وقد فطن إلى أن القرآن الكريم لا يمكن أن يترجم لفظه ، بل الميسور أن يترجم تفسيره — يقول : (واعلم أنك لو أردت أن تنقل (أى تترجم) قوله تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » (سورة الأنفال ٥٨ (، لم تستطع أن تأتى بهذه الألفاظ مؤدية عن المعنى الذى أودعته ، حتى تبسط مجموعها وتصل مقطوعها وتظهر مستودعها ، فتقول : إن كان بينك وبين قوم هدنة ، أو عهد ، فخفت منهم خيانة أو نقضاً ، فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت لهم ، وآذنهم بالحرب ، لتكون أنت وهم فى العلم بالنقض على استواء (كتاب تأويل مشكل القرآن) ص ١٦ تحقيق السيد أحمد صقر

هكذا كان الأوائل يدركون المطوى ، إيجازاً وإعجازاً فى كتاب الله ، فإنه يحذف ويطوى ، مكتفياً بالإشارة والتلويح عن العبارة والتصريح .

فالعدول عن «ثم» إلى الواو ورفع ما بعدها فى الآية وأمثالها ، إنما هو عطف على محذوف دل عليه السياق ، وما أشبه رفع الفعل هنا برفع الاسم بين المنصوبات فى لفظ «الصابئون» كما سنوضحه فيما بعد .

ومهما يكن فقد رفض شراح ابن هشام أن يوافقوه على أن الواو للاستئناف ، فقال الدماميني : إنها للعطف على الفعل الذى تعلق به الجار والمجرور فى (لنبين) وقدره هكذا (نفعل ذلك لنبين لكم ونقر ...) فعطف نقر على نفعل . بينما رأى الأمير أنها عطف على جملة (فانا خلقناكم) .

٢ — وفى قوله تعالى فى الأعراف (١٨٦) : « من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون » قراءتان أيضاً فى «ويذرهم» : الرفع وهى شاهد ابن هشام ، والجزم عطفاً على جواب الشرط ، إذ هو مجزوم محلا وقدره

الزمخشرى هكذا : (من يضلل الله لا يهده أحد ويذرهم) .

ولعل الأقرب من هذا ، أن نقول : إن جملة « من يضلل الله فلا هادى له » هى حكم عام يشمل الخلق جميعاً ، فحين يساق عند الحديث عن قوم بأعينهم يتساءل متسائل : أهؤلاء يضلهم الله ولا يهديهم أحد ..؟ يكون الجواب : نعم ، يضلهم ويذرهم فى ضلالهم يعمهون ، وهذا ما عناه الزمخشرى حين قال : إن الرفع على الاستئناف — أى الاستئناف البلاغى الذى يعطف الفعل على جواب السائل المحذوف ، وليس استئناف ابن هشام ، على أن الشيخ الأمير يرى أن جملة يذرهم معطوفة على الجملة الشرطية بتمامها ، ومعنى ذلك أنها معطوفة على أية حال ، مجزومة أو مرفوعة وأن الورو للعطف لا للاستئناف .

٣ — وقوله تعالى فى آخر سورة البقرة (٢٨٢) : « واتقوا الله ويعلمكم الله » ، جاءت الواو بين جملتين : إنشائية وخبرية ، ويرى ابن هشام أنه لا يجوز عطف هذه على تلك ، وهو الذى عقد فصلا فى هذا الكتاب بعنوان (عطف الخبر على الإنشاء وعكسه (ص٧٩ من الجزء الثانى وذكر فيه الخلاف بين النحاة فى من أجازه ومن منعه ، وذكر أن ممن أجازه سيبويه والصفار وجماعة من النحاة ، محتجين بقوله تعالى فى أول البقرة : (وبشر الذين آمنوا) ، ونقل فى تأييد هؤلاء رأى الزمخشرى فى هذه الآية ، وأنها من عطف جملة المعنى على جملة ما سبقه من عقاب الكافرين ، بل إن ابن هشام عقد عنواناً لعطف المعنى على المعنى ، بل لعطف التوهم . .

فكيف ضيق الأمر فى هذه الآية ولم ير فيها عطف المعنى على المعنى ، أو العطف على محذوف — فلقد علمهم الله نظام التعامل فى الدين ، حاضرين ومسافرين ، وشدد على الكاتب والشهود ، وكرر لهم الأمر بالتقوى أكثر من مرة .. أفلا يصح تقدير الكلام هكذا : ... فاتقوا الله فيما علمكم من هذه الأحكام ويعلمكم من غيرها ، فكان تغيير النسق فى رفع يعلمكم إشارة إلى هذا المحذوف . ولترتبط هذه الواو ما علمهم قبل بما سيعلمهم بعد .. لا ينبغى أن يفهم القرآن إلا على هذا النسق .

٤ — ثم نأتى إلى البيت الذى أصر على أنه يتعين فيه الاستئناف لا غير :

على الحكم المأتى يوماً إذا قضى
قضيته ألا يجور ويقصد

فان عطف (يقصد) على (يجور) يؤدى إلى التناقض . . . .

ولنا أولا على هذا البيت أكثر من ملحوظة فهو بيت مجهول النسب ، لا يعرف قائله ، ثم هو سقيم الصياغة ركيك ، ثم إن نصف ألفاظه مجتلب بلا فائدة ، ولو أننا عبرنا عنه

لقلنا : (على الحكم إذا قضى ألا يجور) فأدينا المعنى كاملا تاماً فالكلمات (المأتى — يوماً — قضيته — يقصد) زيادة لا حاجة إليها ، فالبيت بهذه الصورة يشك فى أنه مصنوع وصناعته رديئة .

ومع كل هذا ، قد أواحنا الدماميني من أمره ، إذ قال فى حاشيته : يمكن أن الأصل (وأن يقصد) فالواو عاطفة على أن لا يجور ، ثم حذفت أن فارتفع الفعل ، على حد قوله تعالى : « ومن آياته يريكم البرق » ، وتسمع بالمعيدى خير من أن تراه ... ولك أن تقول : إن جملة (ويقصد) عطف على جملة (على الحكم ...) ، كما تقول : على زيد الصلاة ويزكى) .

٥ — ثم مثاله الذى ألحقه بالبيت فى حتمية الاستئناف وهو قولهم : (دعنى ولا أعود) إنما يجرى على الألسنة ، وهو من فصيح الكلام ، ولكن ليست واوه للاستئناف كما يرى ، وإنما هى للعطف ، وقد قدره العلماء هكذا : منك العفو ، ومنى الترك ، على أساس أن هذا القول إنما يصدر ممن أخطأ ويطلب العفو ويعد بألا يعود ، وينبغى أن يعلم أن المخطىء من شأنه .. وهو فى موقف الضعف — ألا يستعمل صيغة الأمر (دعنى) بل حقه أن يقول : تدعنى وأعدك ألا أعود ، أو تدعنى ولا أعود ، وإنما لجأ إلى صيغة الأمر — وإن كان الأمر بمعنى الرجاء هنا — كأنه يتعجل الإفلات من العقوبة ، وكثيراً ما تجرى على ألسنة المخطئين عبارات : أرجوك أتوسل إليك أن تعفو عنى ولا أعـود إلى مثلها ، فالجملة الأولى تحمل فى مضمونها خبرا يعطف عليه الخبر بعدها .

* * *

وبعـد :

فان لهذه اللغة أساليبها الدقيقة التى تستخدم فى التعبير والتصوير ، وهى فى سبيل الأغراض التى يقصـد إليها المتكلم ، تفسح له الطريق بأساليب متنوعة ، يختار منها ما يشاء ، فمن حقه أن يخالف النسق الإعرابى لأداء غرض لا يود التعبير عنه بالكلمة أو الجملة ، ومن حقه أن يحذف بعض الكلام ويشير إليه بحرف العطف ، أو بحرف من الحروف الزائدة ، التى نيط بها أداء هذه الغاية ، نحو : « فبما رحمة من الله لنت لهم » .

ولئن كان ما وصل إلينا من كلام الفصحاء الأول ، لا تشيع فيه الأساليب التى تقوم فيها الإشارة مقام العبارة ، لقد جاءنا من كتاب الله ما لا يكاد يحصى عدداً ، أو تدرك أبعاده إعجازاً وأسراراً .

وليس هذا الذى تقوله هنا استطراداً دخيلا على البحث ، إنما هو فى صميمه ومحتواه ، فما جر النحاة المتأخرين إلى هذه المصطلحات والمسميات الكثيرة المرهقة ، إلا انصرافهم إلى المظهر الإعرابى المتعلق بالحركات ، بينما

كان النحاة القدامى يغوصون وراء المعانى ، ويتحسسون ما وراء المخالفة للنسق الإعرابى من أسرار وأغراض ، ولو أن النحاة المتأخرين ساروا على خطى المتقدمين لكفونا مئونة مثل هذه الدراسة حول واو الاستئناف وغيرها مما شغل حيزاً كبيراً فى كتب المتأخرين ، وحرم النحو من متعة التذوق والخصب فى دراسة الشواهد والنصوص ، وساقنا إلى تشقيق هذه الدراسات إلى علوم ثلاثة : النحو والبلاغة والنقد ، بينما كان النحو الأول هو هذه الثلاثة مجتمعة . وغفر الله للسكاكى ، فهو صاحب هذه البدعة ، فقد كان « مفتاحه» هو الذى أغلق الباب فى وجه الدراسات التى بدأها سيبويه وابن جنى والمبرد والجرجانيان : صاحب « الوساطة » وصاحب « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » ، والتى سجلها الزمخشرى ببراعة واقتدار فى الكشاف «الباحث عن أسرار التنزيل » ، وهذه قطرة من — بحارهم :

١ — يقرأ الزمخشرى قول الله تعالى فى سورة المائدة (٦٩) : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله بالله واليوم الآخر ... » الآية .

فيرى فى الآية ظاهرتين تخالفان الآية نفسها فى سورة البقرة (٦٢) : « رفع الصابئون » هنا ، ثم قدمها على النصارى ، بينما جاءت هناك منصوبة ، ومتأخرة عنهم .. فما السر ..؟ ولماذا خالف بين هذه وتلك ..؟ ثم يجيب بما يراه السر فى ذلك ، فيقول : فائدة التقديم التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إذا صح منهم الإيمان والعمل الصالح ، فما الظن بغيرهم وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالا وأشدهم غياً ، لأنهم خرجوا عن الأديان كلها . (ج ١ ص ٦٣٢) .

ثم يستأنس بما قال سيبويه فى قول الشاعر :

وإلاّ فاعلموا أنا وأنتم
بغاة ما بقينا فى شقاق

إذ قال : قدم « وأنتم » قبل مجىء الخبر « بغاة » ليسارع إلى التنبيه على مشاركتهم فى البغى ، إذ لو قال : « أنا بغاة وأنتم كذلك لأفاد أن المتكلم وقومه هم البادئون بالبغى ، وأن أولئك جاء بغيهم رداً عليهم ، فقدم « أنتم » ليدفع هذا الوهم .

هكذا فهم النحاة الأولون أن المخالفة فى الإعراب أو المخالفة فى الترتيب كلاهما وراءه مغزى وسر ، تماماً كالمخالفة فى « نقر فى الأرحام » بعد « لنبين لكم » . وكلمة « الصابئون » فى الآية خبرها محذوف ، والجملة معطوفة على جملة « إن الذين آمنوا » ، كما أن جملة « ونقر » معطوفة على الجملة المحذوفة كما سبق تقديرها (فنسقط من الأرحام ما نشاء ونقر ما نشاء) ، أو معطوفة على جملة الفعل الذى تعلق به (لنبين لكم) أى (نذكر لكم ما ذكرنا من أطوار الخلق لنبين لكم قدرتنا ،

ونحر ...) ، والواو عاطفة لا استئنافية على كل حال ، والعطف على المحذوف أشهر من أن يذكر .

٢ — ويرى العلماء قول الله تعالى في قصة بني إسرائيل في سورة البقرة (٤٩) : « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم » قد فصل « يذبحون » عما قبله ، بينما وصله بالواو في سورة إبراهيم (٦) فيدركون أن الله تعالى — وهو المتحدث في البقرة — أجمل العذاب ، ثم فصل ، على حد قوله تعالى : « أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين (الشعراء ١٣٢ ، ١٣٣) ، بينما المتحدث في إبراهيم هو موسى ، فأراد أن يذكرهم بأنواع العذاب التي كانوا يعانونها ، من اضطهاد وضرب وسجن وتشريد ، ثم خص أشدها وأفجعها وهو ذبح الأبناء .. فلما اختلف المعنيان بالتنوع عطف ، من عطف الخاص على العام ، على حد قوله تعالى : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح » (الأحزاب ٧) ، ولا يعطف الخاص على العام إلا إذا كان له خصوصية تجعله كأنه نوع مستقل .

ولا أحب أن أستطرد في ذكر هذه الدقائق التي تراها منبثة في كتاب الله وفي بعض الشعر ، والتي أغفلها النحو المتأخر ، فابتعد عن أسرارها في كثير من نظراته ، حتى حكم بزيادة إحدى الواوين في قوله تعالى في سورة الزمر (٧٣) : « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم » ليكون ما بعد الواو الزائدة هو جواب إذا . قياساً على الآية التي سبقتها إذ كانت (فتحت) فيها هي الجواب ، متغافلا عن النكتة التي ذكرها العلماء في حذف الجواب في آية المتقين ، بل اتخذ من الآية شاهداً على أن « الواو » تأتي زائدة ، دخولها كخروجها ج ٢ ص ٣٤ من المغني .

ومن القضايا التي أجمع عليها الثقاة من أهل اللغة أن القرآن الكريم ليس فيه حرف زائد دخوله كخروجه قط ، وإنما لكل حرف زائد فيه معنى قصد به ، وغرض سيق من أجله ، فكيف يقول بعض النحاة : إن الواو هنا دخولها كخروجها ؟

كما أن من القضايا التي لا جدال فيها ، أن اللغة لا تقبل بحال وضع جملة بجوار أخرى إلا وبين الجملتين نسب وصلة ، وإلا كان الكلام لغواً لا يشبه كلام الناس .. فان قويت الصلة بين الجملتين بأن اتحد معناهما اتحاداً ما ، وجب الفصل ، بأن يمتنع ذكر عاطف بينهما وذلك إذا كانت الجملة الثانية بيانا للأولى أو بدلا منها أو توكيداً لها ، فان ضعفت الصلة بينهما ، بأن تغاير معناهما مع وجود صلة ما تجمعهما وجب الوصل بحرف عطف.

وإنما أذكر هذه القضية الثانية ، مع أنها معلومة ، لأن حديث النحاة عن واو الاستئناف

قد يوهم جواز الانقطاع بين الجمل بينما اللغـة تأباه إباء شديداً وتسقط الكلام إذا بدت فيه رائحة هذا الانقطاع ، ولهذا حوسب الشعراء حساباً عسيراً ، عندما بدت فى أشعارهم جمل لا رابط بينهما ، كالبيت المشهور ، الذى جمع بين مرارة النوى وكرم أبى الحسين :

لا والذى هو عـالم أن النوى
صـبر وأن أبا الحسـين كريم

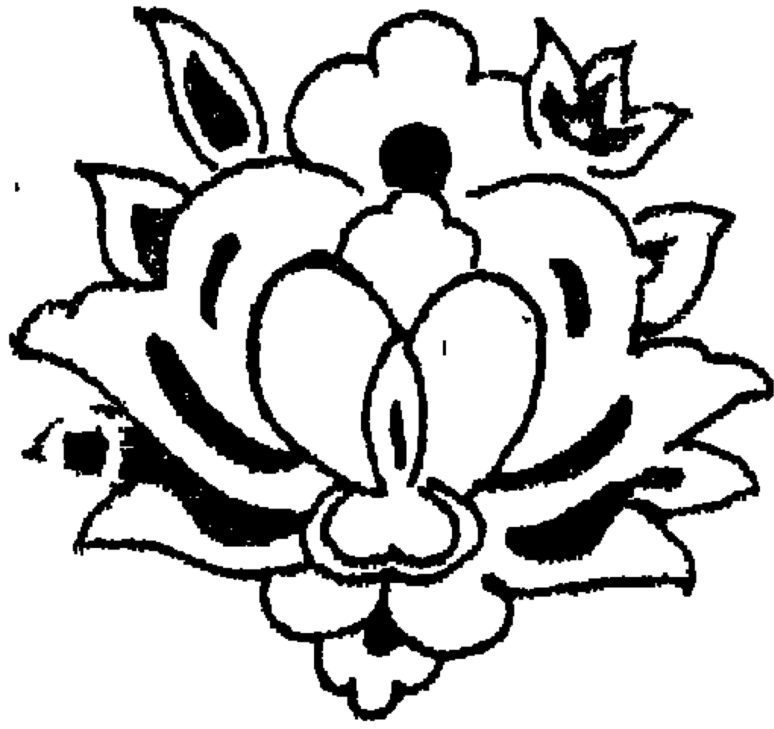
ومع تقديرى للجهود التى بذلها علماؤنا فى ضبط قواعد هذه اللغة ، مما يشكر لهم ، ولا ينكر ، فأنى لا أجد حرجاً فى تعقب بعض الآراء التى تثقل هذا العلم ولا تفيـده ، والتى يمكن ردها بيسر إلى القواعد والأصول المتسقة مع أساليبها الجميلة والتى فطن إليهما الفحول القدماء من النحاة وأرباب الذوق .

فقد رأيناهم يردون جميع الشواهد التى أريد بها أن تكون واوها للاستئناف إلى المعنى الأصلى للواو ، وهو العطف ، إما على محذوف دل عليه المقام ، وإما على مضمون الكلام السابق :

* * *

ومن هنا أرى مهمة المجمع وكل مشتغل بعلوم اللغة . مهمة شاقة وواسعة المدى لا فى وضع مصطلحات للعلوم والفنون فحسب ؛ بل فى تخليص هذه العلوم مما يثقلها من التقسيم والتفريع والتنويع ، وليتنا نفكر عملياً وجدياً فى العودة إلى النحو القديم ، ندرسه من خلال النص دراسة تطبيقية لا نظرية تنقد وتعرب وتعلل لما وراء الأساليب من أسرار وأبعاد .. ليتنا .. وكان الله فى عون الحافظين للضاد .

محمد نايل
عضو المجمع



آدم وحواء وإبليس في القرآن الكريم

للدكتور حسين مؤنس

عندما كنا صغاراً كنا نتعلم في الكتاب القراءة والكتابة ومبادئ الحساب ونحفظ شيئاً من القرآن الكريم ، ومنا من كان يحفظ المصحف كله ، وكان القرآن أعظم ما نتعلمه لأنه كتاب الله أولا وقاعدة الإسلام ثانياً ، ثم إنه كان أساس تعلمنا البلاغة ثالثا ؛ والبلاغة يتعلمها الإنسان لأنها خصلة لابد أن يولد بها صاحبها ولكن القرآن الكريم يجودها ويصقلها فتستقيم بلاغة البليغ بفضل القرآن الكريم ، ويستقر في سمعه الوقع القرآني العظيم . كنا نجد في كتابات بلغاء الماضي من أمثال : الجاحظ وابن المقفع وابن عبد الحميد من القدماء ومصطفى صادق الرافعي وطه حسين ومصطفى لطفي المنفلوطي من المحدثين ، ونستطيع أن نقول : إن العامل الأكبر من بلاغة الكتاب في عصر العباقرة الذي نعيش اليوم في أعقابه يرجع إلى القرآن الكريم وماله من أثر بالغ العمق والشمول على قلوب الناس وعقولهم .

وشبابنا اليوم — وخلال العشرين سنة الماضية — يفقد هذه الصلة بالقرآن الكريم ، لأن الكتاتيب عصرها قد انقضى ، وأصبح الأولاد لا يتعلمون القرآن في المرحلة السابقة على المدرسة الابتدائية وهي التي تسمى الكندرجارتن ثم المدارس الابتدائية فالإعدادية وقد هبط مستوى اهتمام وزارات التربية والتعليم إلى درجة جعلت الوزارات تخصص له ساعة واحدة في الأسبوع تتركز الدراسة فيها على مادة الدين يحفظ فيها التلاميذ بضع آيات في القرآن الكريم حفظاً سطحياً عابراً ، وفي الغالب نجد أن الذين يقررون المواد يسيئون اختيار الآيات التي يحفظها الطلاب ، فيقررون على التلاميذ مثلا آيات الميراث أو بعض الآيات من سور القرآن القصيرة العسيرة الحفظ والتي تحتاج

(*) ألقي في الجلسة الحادية عشرة يوم الأربعاء ٣٠ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٦ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م .

إلى شرح كثير ، والنتيجة أن التلميذ يبغض تلك الآيات ويحفظها قسراً عنه ولا يكاد ينتهى الامتحان حتى ينساها وينقطع الأمل فى أن يجيد العربية أو يحصل على ذلك الرنين القرآنى البديع فى أذنيه، وهذا هو السبب فى هبوط مستوى علم الشباب — بل الكهول — فى أيامنا فى اللغة العربية. ومن الغريب أن اهتمام الناس بالإنجليزية فى بلادنا يزيد على اهتمامهم باللغة العربية ، وأمر مدارس اللغات معروف حيث ينفق أولياء الأمور الألوف على أبنائهم فى التعليم فيها على أمل إتقان اللغة الإنجليزية مع إهمال يكاد يكون تاماً للغة العربية التى يكتفون بالنزر اليسير منها، والنتيجة أننا نجد أنفسنا فى أزمة اللغة العربية الراهنة ، فنحن لا نكاد نجد إنساناً دون الخمسين يتقنها لا نطقاً أو كتابة ، ويكفى أن نقرأ الصحف حتى نتأكد من تلك الظاهرة المحزنة لكل عربى .

كذلك نحن لا نظفر بين المذيعين أو المتحدثين فى الإذاعة والتليفزيون من يقرأ جملة واحدة دون أن يترع فى أخطاء بلا نهاية فى اللغة العربية وأذكّر القارئ بإعلان تلقيه إحدى مذيعات التليفزيون عن مكتبات الأطفال ، والإعلان كله أربعة سطور ولكن المذيعة تقع فى تسعة أخطاء نحوية وهى تقرأه .

* * *

وكان هذا الضعف المتزايد للغة العربية فى عصرنا هذا من أكبر ما يشغل بالى خلال السنوات الأخيرة لشدة حرصى على اللغة العربية ورغبتى فى تقوية الصلة بين الشباب والقرآن الكريم وزيادة مكان كتاب الله فى التعليم لأن القرآن الكريم هو السبيل الوحيد لتقويم لسان الصبى فى اللغة العربية وإرهاف سمعه للغة حتى يعتاد أن يقرأها صحيحة دون جهد ، لأن النطق الصحيح باللغة العربية يتربى فى السمع أولا فيشب الإنسان وقد تعودت أذنه الحركة الصحيحة لأواخر الكلمات ما بين رفع وجر ونصب وسكون ، ونحن أنفسنا نعرف ذلك فقد جربناه فى حياتنا وتجربتنا ، وإذا كنا قد نسينا معظم ما حفظنا من القرآن فى الصغر فقد بقى فى آذاننا الجرس الجميل والوزن الصحيح ، بل إن محتويات الكتاب الكريم بقيت فى أذهاننا، والواحد منا يعرف ما هو من القرآن وما ليس منه ، وبالاستعانة بمعاجم القرآن ما بين لفظية ومعنوية لا يصعب علينا أن نجد أى آية من آيات القرآن إذا طلبناها، ونحن لا نستغنى عن القرآن الكريم فى كل ما نقوم به من بحث ودراسة ، لأن الواقع إن حفظنا القرآن الكريم ونحن صغار أصبح جزءاً أساسياً من تفكيرنا . حتى الذين يتقنون لغات غير العربية منا يحسون أن الفضل فى ذلك يرجع إلى القرآن الكريم الذى أنشأنا على النطق العربى الصحيح والإحساس ببلاغة العربية ، ومن أتقن لغة أتقن غيرها إذا أراد ومضى يدرسها .

وقد كنت فكرت فى أساليب لتقريب القرآن الكريم إلى أذهان الشباب وقلوبهم ، وأعددت محاضرة فى هذا الموضوع وألقيتها فى الجامعة الأزهرية فى قاعة محمدعبده وقلت فيها : إننا ينبغى أن نختار من القرآن للتدريس للشباب فقرات قصصية كما نرى فى قصص الأنبياء والآيات العلمية ، كما نرى فى سورة الرعد والآيات التاريخية كما نرى فى سورتى الأنفال والأحزاب أو الآيات التصويرية ،أى ذات البلاغة التصويرية كما نجد فى سورة النور أو السور التى تصف المجتمع وما فيه والمصاعب التى يواجهها الإنسان فى المجتمع وكيف يحلها بالصبر وطول البال والحسنى كما نجد فى سورة التوبة . وأذكر أننى قلت فى نفس المحاضرة : إننا ينبغى أن ندرس القرآن للتلاميذ على أساس السورة لا الآيات المقتطفة من السورة ، وليس معنى ذلك أن يحفظ التلميذ السورة كلها ، بل معناه أن نعطى التلميذ فكرة عن السورة التى نختارها ثم نبين له الموضوعات التى تتناولها لأن كل سورة من سور القرآن الكريم تتناول — موضوعات متعددة ولكن السورة كلها لها وحدة وشخصية واحدة ، ثم نختار للتلميذ آيات من موضوع من موضوعات السورة ونأخذها ونقدمها للتلميذ ليحفظها مع الشرح والتعليق .

* * *

وقد ظل موضوع تقريب القرآن الكريم من نفوس الصبيان والشباب يشغل بالى حرصا على تربية الشباب تربية إسلامية عربية صحيحة حتى قرأت أخيرا الجزء الأول من سفر التكوين لبعض أبحاثى فاستوقف نظرى أن الإصحاحات التى قرأتها تحكى قصة الخلق ثم خلق آدم ، ولاحظت أنها تروى ذلك رواية بسيطة ذات طابع هو أقرب إلى ما نقرأه فى أدب الأطفال وأنالم أرجع إلى الطبعة العربية القبطية من الكتاب المقدس بل الطبعة الدولية التى أقرتها الجامع الدينية المسيحية سواء الكاثوليكية أو البروتستانتية ، وهى الطبعة المعروفة باسم المنشقة Emoardant التى تأتى بالنص وتقارنه بما فى طبعات المقدس الأخرى وتشير إلى التشابه بين المواضع فى الطبعات المختلفة فى الهوامش فاذا قرأ الإنسان فقرة عن خلق آدم مثلا وجد فى الهامش كل مواضع الخلاف والتشابه بين النص الذى يقرأ ونصوص الكتاب المقدس الأخرى . ومن المعروف الكتاب المقدس المسيحى يتكون من قسمين يسميان العهدين Teataments فالعهد القديم يتناول كل ما روى فى الكتب المختلفة عن الخلق وبداية تجارب الانسان ثم تلى ذلك مرتبة ترتيبا زمنيا وأخبار أنبياء بنى إسرائيل أو اليهود وما يروى عنهم وما أثر من كلامهم وكل ذلك مروى بروايات الناس أى أنه

ليس بكلام الله سبحانه وتعالى كما هو الحال عندنا فى القرآن الكريم . بل هو أشبه بما نسميه نحن بالآثار أى أخبار الأنبياء الماضين وما نروى نحن محمد صلى الله عليه وسلم من الأحاديث والأخبار مما يسمى فى مجموعه بالسنن أو الأحاديث أو الصحاح أو المسانيد . والأجزاء الخمسة الأولى من العهد القديم يقال أنها الكتب الخمسة الأولى من التوراة وتتضمن أخبار الخلق والأنبياء إلى موسى عليه السلام . ولهذا فانها تسمى بالكتب الخمسة pentateuch أو كتب موسى عليه السلام ثم تلى ذلك بقية الإصحاحات وهو تقريب للفظ عبرانى هو الصحاح ويراد به الصحيح الذى يوثق فيه . وهذا العهد القديم كله يعتبر وعدا من الله سبحانه بالغفران للانسان عندما يرسل النبى المخلص للانسان من خطيئته التى وقع فيها عندما عصى الله سبحانه وأكل من الشجرة فعاقبه الله بالاخراج من الجنة ولكنه بحسب ما يقال فى المسيحية لم يغفر له أى إنه هبط إلى الأرض ملعونا ويقولون إنه عندما جاء المسيح عليه السلام خلص من آمن به بالمسح على رأسه بالزيت وهم يسمون ذلك بالساكرامنت ونتيجة ذلك هى الخلاص من لعنة الله salvation . وبعد وفاة المسيح انتقل حق التخليص المقدس أو الساكرامنت إلى الحواريين الذين أنشأوا الكنيسة وهى فى الأصل جماعة المؤمنين ، ثم أطلق ذلك اللفظ على المبنى الذى يضم المؤمنين . ثم جاء الحوارى بولس Paulus وهو الذى استبد بأمر المسيحية وخاصم برنبا وعددا من الحواريين الآخرين ومنهم مرقس منشئ الكنيسة القبطية المصرية . وبولس هو الذى أنشأ الكنيسة التى سماها الجامعة Eatalica وهى أصل الكنيسة الكاثوليكية أما مرقس فقد أنشأ الكنيسة المستقيمة Orthosdox . وقد انقسمت كل منهما إلى كنائس مختلفة بعد ذلك . ولكن بولس هو الذى وضع ما يعتقدون أنه أصول المسيحية مثل الإيمان بالثالوث وضرورة تخلص الإنسان من الخطيئة الأولى على يد رئيس الكنيسة الكاثوليكية الذى يسمونه البابا أو من يعينه هذا من كبار القساوسة كالكرادلة والأساقفة أو صغارهم وهم الرعاة pastors الذين يسمون أيضا بالآباء fathers أو رعاة prastors

أما العهد الجديد فهو الإنجيل ، والإنجيل عند النصارى هو ما يذكرونه من أقوال عيسى ابن مريم عليه السلام وأعماله ومعظمها يتعلق بالشهور أو الأسابيع الأخيرة من حياته منذ انفصاله عن كنيسة بنى اسرائيل وتعميده نبيا على يد يوحنا المعمد أو المعمدان إلى موته شهيداً على الصليب فى رأيهم على يد اليهود ، وكانت هناك أناجيل كثيرة ولكن المجامع الكنسية أقرت منها أربعا ، وهى أناجيل يوحنا ومرقص ومتى ولوقا ، وهى تنشر فى العادة فى كتاب واحد يلى بعضها بعضا

لأنها قصيرة. النصوص متشابهة الفقرات وهم يقولون : إن هذا العهد الجديد هو خلاص الإنسان من الخطيئة أو من قرأه وآمن بما جاء فيه عمده القس أى أدخله جماعة الكنيسة وأصبح عضوا من أعضائها

أما الحوارى بولص — وتاريخه ومكانه فى المسيحية عظيمان جدا . وليس له إنجيل ولكن له فى « العهد الجديد » بعد الإنجيل رسائل يعتبرونها من أسس المسيحية ، والحقيقة أن هذا الرجل الذى كان قويا جدا وبالغ الذكاء والنشاط هو الذى فصل المسيحية عن اليهودة وجعلها دينا مستقلا وهذا واضح فى خطاباته تلك وهى :

— خطابه إلى أهل مدينة روما
— خطابه الأول إلى أهل كورنثة
— خطابه الثانى إلى أهل كورنثة
— خطابه إلى أهل غلطه (بفتح الغين واللام ، من مدن آسيا الصغرى)
— خطابه إلى أهل أفيسوس
— خطابه إلى أهل فيليبينه
— خطابه إلى أهل كولوسنيس
— خطابه الأول إلى أهل تساليا
— خطابه الثانى إلى أهل تساليا
— خطابه الأول إلى طيماوس
— خطابه الثانى إلى طيماوس
— خطابه إلى الامبراطور تيتو
— خطابه الأولى إلى القديس بطرس
— خطابه الثانى إلى القديس بطرس
— خطابه الأول إلى القديس يوحنا
— خطابه إلى فيلومون
— خطابه الثانى إلى القديس يوحنا
— خطابه الثالث إلى القديس يوحنا
— خطابه إلى العبرانيين
— خطابه إلى يهوذا
— نظرة عامة على الأناجيل الزائفة أى الأبوكريفيا

وهذه الخطابات تتضمن أفكار بولص التى انتهت إلى فصل المسيحية عن اليهودية وجعلها دينا قائما بذاته .

والحق إن بولص هو الذى صاغ المسيحية بصورتها الراهنة ، فهو الذى أوجد فكرة الثالوث ، وقال إنه يتألف من الله والابن — وهو عيسى عليه السلام فى رأيه — والروح القدس ، وإن هذه الثلاثة تكون إلاها واحدا هو الله ولما كانت هذه أفكارا معقدة فقد بذل بولص جهدا عظيما ليوضحها ويثبت أن الله — تعالى عن ذلك علوا كبيرا — نزل الأرض وأخذ صورة عيسى ابن مريم وقبض عليه اليهود وصلبوه على

الصليب حتى مات ، ولهذا أصبح الثالوث أساسا للمسحيية البولصية ، والمسيح نفسه حتى فى الأناجيل لم يقل بالثالوث ، ولا بو عرفه ، ولكنه كان يتحدث عن الله أحيانا بقوله « أبى» ومن هنا أخذ بولص فكرة أن المسيح ابن الله، وقد اختلف بولص مع كثير من الحواريين فى هذه النقطة وغيرها ومنهم مرقص منشئ الكنيسة المصرية وهى الكرازة المرقصية ويرنب صاحب الإنجيل المعروف لدينا وهو يعتبر عند النصارى من الابوكريفا وهى الأناجيل الرائفة فى رأيهم .

وبولص هو الذى صنع الكنيسة نفسها ، ولفظ الكنيسة باليونانية هو اكليسيا ومعناه حماعة المسيحيين، وبولص قال إن الجماعة المسيحية لابد أن يكون لها مركز مادى هو الكنيسة ، وهو الذى أنشأ كنيسة روما وقال إن الله اعتبرها وارثة السيد المسيح وإن رئيسها -وهو البابا- ينبغى أن يكون ملكا على الملوك جميعا ، ومن بولص أخذ أساقفه روما هذا الكلام وجعلوا أنفسهم بابوات وملوكا على الأرض ، وزوروا خطابا زعموا أن المسيح كتبه يجعلهم به أصحاب روما ومسافة شاسعة من أرض إيطاليا ، وقد أثبت البحاثة الفرنسى « مابيون » أن هذا الخطاب زائف :

أقول هذا كله لكى يفهم القارئ عنى كل ما سأقول بعد ذلك لأننا نحن المسلمين لدينا القرآن الكريم ، وهو كلمة الله تعالى التى لا يأتيها الباطل من بين يديها أو خلفها أى فى أى شئ يتصل بالحاضر والمستقبل أو الماضى ، وأمر العقيدة واضح عندنا ولا يمكن أن يدخله ريب . والمسيحية عندنا هى مرحلة من مراحل تطور دين الله سبحانه من أيام سيدنا آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى وأخيه هارون ثم عيسى ثم محمد عليه الصلاة والسلام ، وكل هؤلاء كانوا مسلمين ، ولا دين عند الله إلا الإسلام الذى يقوم على التوحيد الثابت لله سبحانه فلا أم له ولا أب ولا ابن وإنما هو الله خالق كل شئ . والمسلمون يقولون أنه ما دام دينهم واحدا وواضحا فكذلك غيره من الأديان ، وهذا غير صحيح ، فهناك مسيحيات مختلفة وكل منها دين قائم بذاته ، وكذلك هناك يهوديات مختلفة . ولا يدرك نعمة التوحيد إلا من يعرف هذه الحقائق .

* * *

ولما كان موضوع آدم وحواء وتحدى الشيطان لهما وإخراجهما من الجنة يعتبر أساسا من أسس الفكر التاريخى المعاصر على اعتبار أن الحياة على الأرض تحد وأن الإنسان معرض لهذا التحدى فى كل خطوة يخطوها ، على الأرض وفى كل عمل يقوم به لأن الشيطان آلى على نفسه أمام الله أن يتعقب الإنسان ويتدخل فى حياته وأعماله ليفسدها ، فقد اتجه ذهنى إلى استخدام موضوع آدم وحواء كما ورد فى القرآن الكريم

كموضوع قصصي حضاري هام وممتع وجذاب استطيع أن أجتذب به الشباب إلى قراءة القرآن وأعوده محبته والإقبال عليه .

والذي قال بنظرية الحياة على أنها تحد هو الكاتب الانجليزي تشاوسر « Chaucer» ولكن قصته بسيطة وغير جذابة بالصورة التي اريدها، ثم جاء الأديب الألماني « ﭬولفجانج جوته» وكتب نفس القصة في رواية فاوست « Faust » التي تعتبر العمل الأساسي الرائع الذي جعل هذا الأديب من أعظم أدباء الدنيا ، فقد روى قصة فاوست وصور التحدي فيها تصويرا بديعا يرينا حقيقة أن الإنسان في هذه الحياة معرض لإغراء الشيطان وخداعه لإفساده، فإن فاوست كان عالما مسنا وهب حياته للعلم ، وكان يقضي أيامـــه يقـــرأ ويكتب ويعيش حياة صالحة فاتخذه الشيطان أو إبليس وإســـمه في القصـــة مفيستوفيليس Mafistofilis ودخل عليه في مكتبته وجعل يغريه ببنت جميلة تسمى هيلانة وقال له لافائدة من علمه السقيم هذا وأن حياته تضيع في كلام لا يجدي وجهد تافه لا نتيجة له وأنه لو اتبعه وكفر بالعلم والحياة الصالحة فانه سيفتح له قلب هيلانة الجميلة ويرده شابا، فيكفر بالله ويستمتع بالبنت ليجد في النهاية أنه خسر حياته دون أن يكسب شيئا ذا قيمة ، وقد كانت حياته قبل ذلك هادئة جميلة وإن كانت مملة ولكنه الآن ضيعها وتحول إلى حطام ، وهكذا يكون الشيطان قد حقق إرادته وعبث بالإنسان كما قال .

وقد درس المؤرخ الإنجليزي ارنولد توينبي موضوع فاوست وقال إنه رمز على حياة الإنسان ، والإنسان الأوربي بصفة خاصة، لأن الأوروبي يعتمد على الله حقا ولكن اعتماده على العقل عظيم، والحياة عنده تحد دائم وتهديد بالفشل، واذا كان التحدي في الماضي هو تحد بالفساد والخروج عن طاعة الله فقد أضاف اليها في أوائل القرن التاسع عشر تحديا جديدا هو التحدي للنجاح ، فإن الإنسان اذا وجد على الأرض فعليه أن يعمل ويدرس وينجح ويغتني ويتخلص من الفقر ، وعليه ان يدرس ليتخلص من الجهل، ويدرس الطب ليتخلص من المرض ومن هنا أصبحت الحياة تحديا متصلا ، فالإنسان لابد أن ينجح فإذا لم ينجح استولى عليه الشيطان واذله وأفسد حياته ، ومعنى ذلك أن الإنسان أصبح أمام تحديين تحد اخلاقي ديني وتحد حضاري.

وكل جهد الإنسان على الأرض إنما هو استجابة للتحدي الحضاري لأن الإنسان لابد أن ينجح والنجاح يكون بالعمل ومحاربة ظروف الأرض والتغلب عليها وإلا

فلا معنى للحياة، ومن هنا فأن توينبي يسمى الحضارة الأوروبية حضارة فاوستية أى استجابة للتحدى، وهذه الاستجابة ينبغى أن تكون إيجابية أى تقدمية، وتقدمية معناها ناجحة، فمن الناس من يواجه تحدى الحياة وينهزم أو لايقوم باى مجهود، وهذه هى التى تسمى الاستجابة السلبية negative Response ومن الناس من يواجهه مواجهة ضعيفة فلا ينتصر ولا ينهزم ويظل مكانه وهذه هى التى تسمى استجابة لا معنى لها ولا فائدة useless Response وهناك من يواجهها مواجهة ناجحة فينتصر ويتقدم وهذه هى الأمم المتقدمة Progressive أو دول الدرجتين الأول والثانى The first and second worlds أما الدول المتأخرة وهى دول العالم الثالث The third world nations دول الدرجة الثالثة.

وقد قرأت قصة خلق آدم وحواء وعبث الشيطان بهما وإخراجهما من الجنة فى أسلوب بسيط جدا لا يفهم معنى التحدى ولا فكرته فرجعت إلى القرآن الكريم فوجدته يقص القصة فى أسلوب أجمل بكثير مما هو فى الكتاب المقدس، فإن القصة مرسلة فى القرآن إرسالا قويا متماسكا يعطى حقا فكرة التحدى وتدخل الشيطان فى حياة آدم وحواء وهذا كله معروض عرضا جميلا جدا. حقا إنه يرد بنفس الأسلوب أحيانا فى أكثر من سورة ولكن له فى كل سورة معنى آخر يرتبط بالسياق لأن القرآن لا تكرار فيه قط، فقد يورد نفس الآية فى سورتين فيخيل إلينا أنه يكرر ولكننا إذا نظرنا فى السياق والمناسبة وجدنا أن المعنى يختلف:

وقصة آدم وحواء وإبليس مقصوصة فى القرآن فى سور شتى، فمضيت أجمعها وأرتب فقراتها بعضها بعد بعض على نحو قصصى متماسك، فوجدت نفسى أمام آيات من القرآن يحبها الصغار والكبار ويتذوقونها ويحسون حقا أن القرآن جميل، ثم إن القصة مروية بكامل تفاصيل التحدى بحيث إننا إذا قرأنا الآيات معا تبينا قصة التحدى بكامل عمقها وشمولها، وأنا هنا أفسر الآيات القرآنية لا تفسير الفقيه بل تفسير المؤرخ، وهو يختلف عن تفسير الفقيه ولكنهما لا يتعارضان.

وفى النهاية عندما جمعت الآيات ورتبتها وربطتها بعضها ببعض اجتمعت لى حكاية خلق الله سبحانه الأرض وآدم وحواء وتحدى إبليس ثم خروج آدم وحواء من الجنة على أجمل صورة:

وفيما يلى سأورد الآيات بحسب الترتيب الذى رأيته وسأعلق عليها بما أرى حتى تكتمل القصة أمام الشباب وغير الشباب ويزداد حبهم للقرآن وإقبالهم عليه.

ولما كانت قصة آدم وحواء موزعة فى سور كثيرة فى القرآن ، فساورد هذه الآيات فيما يلى مرتبة ترتيبا مترابطا كما رأيت ، وسأتبع كل آياتة بالشرح والتعليق .

(١) سورة البقرة ٢٩/٢ :

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ، وهو بكل شئ عليم » .

رأيت أن أبدأ بهذه الآيات من سورة البقرة وهى تقص قصة الخلق بصورة مختصرة جداً وهى مروية فى سورة أخرى بصور هى أكثر طولا وتفصيلا ، ولكنى رأيت أن آتى بهذه الآية نظرا لاختصارها وهى تشرح قصة الخلق فى الإسلام شرحا هو غاية الوضوح .

(٢) السجدة ٣٢ / ٩/٥ :

٦ — « ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم » .

٧ — « الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين » .

٨ — « ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين »

٩ — « ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » .

هذه الآيات غاية فى الجمال والعمق فهى تجمع حقائق كثيرة لابد أن يعرفها الإنسان عن الإسلام فان الله سبحانه يعرف الحاضر والمستقبل (فى هذه الآيات) وتكتفى الآيات فى مدحه سبحانه وتعالى بصفتين هما العزيز والرحيم لكى تدل على عظيم قوته ورحمته وهما صفتان متناقضتان إلا فى الله سبحانه فهو وحده القوى الرحيم ثم تقول الآيات « إن الله أحسن كل شئ خلقه » والمراد بقوله « أحسن » « أتقن » ومعنى ذلك أن الله أتقن كل شئ خلقه . ولما كان الله هو المثل الأعلى للاسلام فان إتقان العمل من الفضائل التى ينبغى أن يتوخاها المسلم ، والعمل غير المتقن لامكان له فى الإسلام ولفظة أتقن مشتق من الإغريقية technes وهو الإتقان ، ومنه التكنولوجيا وهو العلم المتقن ويقال إن الله سبحانه خلق الدنيا فى ستة أيام ثم خلق التقن فى اليوم السابع .

ثم يقول : « وبدأ خلق الإنسان من طين » وهذا معروف علميا فإن أصل الإنسان من طين أو من تراب ، وخلق إبليس من نار ، وسنرى أثر ذلك فيما يلى من تفاصيل قصة آدم وحواء . وقد جعل الله نسل آدم من ماء مهين والمراد بذلك السائل الذى يخلق منه نسل الإنسان عندما يجتمع بالمرأة ، ثم يقول « ثم سواه ونفخ من روحه » .

ويفسرون نفخ الله من روحه فى الإنسان بأن الله نفخ فى الإنسان العقل ، وهو الميزة الكبرى والوحيدة كذلك للأنسان على غيره من المخلوقات . ولأن الله قد رزق الإنسان العقل فقد أصبح مسئولا عن أعماله لأنه يختار الطريق السليم بعقله كما نرى . أما غيره من الحيوانات والمخلوقات فتسير بالغريزه والله سبحانه وتعالى يرزقها لأنها دواب لاعقل لها بل غريزة . ويخطئ كثير من الناس عندما لا يعملون ويقولون إن الله لابد أن يرزقهم مادام يرزق كل دابة على الأرض، ونحن نقول له إن الله يرزق الدابة لأنها دابة بلا عقل ، أما الإنسان فمخلوق له عقل ، والله سبحانه وتعالى هو الذى نفخ فيه هذه الروح بعد أن سواه ، أى بعد أن أتم خلقه . ثم رزقه السمع والإبصار لكى يرى طريقه ويسمع الأصوات ويميز قبل أن يختار . أما الأفئدة فالمراد بها العقول وهى فى القرآن أيضا « القلوب » والقلب هو العقل وهو الذهن الذى يميز به الأشياء ويتحمل مسئولية أعماله : .

* * *

(٣) — البقرة ٢/٣٠ — ٣٨ :

٣٠ « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون . »

٣١ « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين »

٣٢ « قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم »

٣٣ « قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »

وهذه الآيات واضحة المعانى وليس فيها ما يستحق الشرح إلا أن الله عندما علم آدم الأسماء كلها أراد بذلك أنه علمه كل اللغات وكل المعلومات اللازمة له فى الحياة .

ونريد هنا أن نقف لحظات عند قول الله « إنى جاعل فى الأرض خليفة » فما المراد بخليفة ؟ بعض المسلمين يرون أن المراد بذلك أن الله جعل الإنسان سيد الأرض وأنه خلق خيراتها كلها له ، وهذا غير صحيح فالخليفة معناه مخلوق له عقل لكى يستفيد من خيرات الأرض جميعا . وإلا فهل يعقل أن يعهد الله فى الأرض إلى الإنسان هذا المخلوق الضار المفسد الذى أفسد الأرض كما ترى ، فليس فى مخلوقات الله من يعرف الحرب أى القتل الجماعى إلا

الإنسان ، وليس فى المخلوقات من اخترع المفرقعات والديناميت والقنابل والرصاص والمدافع والقنبلة النووية والهيدروجينية إلا الإنسان . فكيف يكون الإنسان بهذا الشر ثم يقال إن الله سبحانه جعله سيد الأرض وصاحب كل ماعليها وسيد كل من عليها ؟

٣٤ — « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

٣٥ — « وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين .

٣٦ — فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه .

وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوا لكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين .

٣٧ — فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم .

٣٨ — (قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون » .

وبعد أن عصى آدم ربه وأكل من الشجرة التى حرم الله عليه الأكل منها أخرجه الله من الجنة وأهبطه إلى الأرض . ولكنه تاب عليه ، أى إن الإنسان فى الإسلام لا يحمل مسئولية خطأ جده آدم ، وليس عليه أن يقضى عمره يكفر عن هذا الذنب ولاينبغى عليه — كما قرر الرسول بولس — أن يحصل على التوبة على يد قس من الكنيسة ، فإن الكنيسة لاتغفر الذنوب ، والله وحده هو الذى يغفر الذنوب .

وهذا القول بالخطيئة الأزلية هو من مبتكرات بولس فقد أراد أن يقيم دولة الكنيسة ويجعل لها سلطانا على الناس فأنشأ هذه الدولة وجعل قوتها فى هذا الغفران الذى يقوم به القساوسة بعد اعتراف الإنسان بذنبه .

وفى الآية السابعة والثلاثين من سورة البقرة نجد الله سبحانه وتعالى يأمر آدم وأولاده أن يهبطوا إلى الأرض بعضهم لبعض عدو ، والعداوة جزء من طبيعة الحياة على الأرض ، فنحن نرى أن الإنسان تحول أولا إلى حيوان ، وقل إن العنصر الحيوانى فى طبعه استيقظ فيه عندما أخطأ وأخرجه الله من الجنة فأحس آدم أنه ذكر وأحست حواء أنها أنثى وطفقا يخصفان على سوءاتهما من ورق الشجر . ثم هبطا إلى الأرض وقد حلت العداوة فى قلبيهما ، وستحل فى قلوب أبنائهما لأنها عنصر من عناصر الحياة على الأرض أما فى الجنة فلم يكن هناك صراع على البقاء ولا عداوة .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم يتتبع حكاية آدم وحواء وتطورهما بغاية الدقة مرحلة بعد مرحلة .

(٤) (طه ٢٠ / ١١٥ ÷ ١٢٧ :

١١٥ – (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما)

١١٦ – (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى) .

١١٧ – (فقلنا ياآدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) .

١١٨ – (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى)

١١٩ – (وأنك لا تظلم فيها ولا تضحى)

١٢٠ – (فوسوس إليه الشيطان قال ياآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) .

١٢١ – (فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى) .

١٢٢ – (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) .

١٢٣ – (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) .

١٢٤ – (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) .

١٢٥ – (قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا (.

١٢٦ – (قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) .

١٢٧ – (وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وابقى) .

فهذه آيات أساسية بالنسبة لموضوعنا ، فنحن نرى فى أولها مصداقا لما سبق أن قلناه من أن آدم لا يمكن أن يكون سيد هذه الأرض وصاحبها ، فها هو الله يقول : إنه عهد إلى آدم فى الأمانة فنسى ولم يجد له عزما ، وبهذه الصورة لا يمكن لآدم أن يظل صاحب ثقة الله سبحانه ، ومادام قد نسى ولم يجد الله له عزما فقد فقد مكانته وأصبح مخلوقا مثل غيره . ولم ينتفع بجوهرة العقل التى أهداه الله إياها . و هذا بدوره يؤيد ما قلناه من أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق هذه الأرض لآدم وأولاده لكى يستمتعوا بخيراتها ويتصرفوا فيها ، بل خلقها لكل مخلوقاته على سواء .

* * *

(٥) الأعراف ٧ / ١٠ – ٢٧ :

١٠ – ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ماتشكرون .

١١ – ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين .

١٢ – قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين .

١٣ – قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين .

١٤ – قال أنظرنى إلى يوم يبعثون .

١٥ – قال إنك من المنظرين .

١٦ – قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم .

١٧ – ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين .

١٨ – قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين .

١٩ – ويآدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين .

٢٠ – فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماووري عنهما من سوءاتهما وقال: مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين .

٢١ – وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين .

٢٢ – فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين .

٢٣ – قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين .

٢٤ – قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين .

٢٥ – قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون .

٢٦ – يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون .

٢٧ – يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون .

وهذه الآيات شاملة جامعة، وهى تقص علينا جوانب جديدة من قصة آدم وحواء وإبليس ، وتحدى هذا الأخير للإنسان وتحذير الله سبحانه وتعالى للأنسان من الشيطان . وفى الآيات تكرار لبعض ما سبق ولكنه تكرار لفظى فقط لأن المعانى هنا تختلف عنها فى الآيات الأخرى المشابهة .

ففى الآية الأولى من هذه ، وهى الآية العاشرة من سورة الأعراف يقول الله جل وعلا إنه بعد أن خرج آدم وحواء من الجنة بفعل إبليس نزلا إلى الأرض بعد أن أصبحا مخلوقين أرضيين أى حيوانين فيهما الغرائز وطبائع الصراع للحياة وللبقاء ومكن الله لهما معايشه أى سبيلا للعيش لعلهم يشكرون مع أن الإنسان بطبعه غير شكور .

ثم يعيد الله سبحانه قصة خلق آدم وحواء وإعطائه إياهما هذه الصورة التي هما عليها . ويلاحظ هنا أن القرآن لايقول إنه صور الإنسان على صورته سبحانه كما تقرأ في الكتاب المقدس ولكن على الصورة التي اختارها لها ، لأن الله سبحانه وتعالى ليست له صورة معينة في الإسلام فهو سبحانه لايشبهه شيء ومن ثم فلا يمكن القول بأن آدم صور على صورة الله ففي هذا مساس بالسمو الإلهي والوحدة الربانية .

ثم أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم والسجود هنا ليس للعبادة بل معناه مجرد الاعتراف بامتياز الإنسان لأن الله منحه العقل دون أن يكون في ذلك أي سيادة من الإنسان على غيره من المخلوقات إذ أنه لاسيادة في الكون إلا الله .

وفي الآية رقم اثنتي عشرة نعرف السبب الذي جعل إبليس يرفض الاعتراف بامتياز آدم عليه ، وهو أن الله خلق آدم من طين وخلق الشيطان من نار ، والنار في رأي إبليس أشرف من الطين ، ولا أساس لذلك من الصحة إنما هو غرور الشيطان بنفسه .

وهنا أخرجه الله من الجنة فلا يجوز له أن يبقى في الجنة وهو على هذه الكبرياء وهنا نجد كيف بدأ التحدي بين إبليس وآدم ، فإن الله أمر إبليس بأن يخرج من الجنة ومن الأرض ، ولكنه سأل الله أن ينظره إلى يوم البعث فشاءت إرادة الله أن يبقى لكي يكون في ذلك اختبار للإنسان، وبقاء الشيطان إلى جانب الإنسان في الحياة واجتهاده في إفساد أمر الإنسان والوسوسة إليه بالشر هي التي كانت سببا في التحدي فمن ذلك الحين أصبح الإنسان في موقف تحد . الشيطان يريد أن يوقعه في الشر ويفسد حياته ، والإنسان لابد أن يثبت ويتنبه إلى حيل الشيطان ويقاوم الفساد .

وكان التحدي مقتصرا فيما مضى على التحدي الأخلاقي وضرورة محافظة الإنسان على نفسه من الوقوع في غضب الله ، كما حدث لجده آدم ، ولكن الأوروبيين من أوائل القرن التاسع عشر ابتكروا فكرة التقدم أي إن الإنسان ينبغي أن يعمل لكي يكون في غده خيراً من يومه، وهذه هي فكرة التقدم the idea of progress ولم يكن الماضون يعرفونها ولكنها أصبحت أساس الحياة في عصرنا، فلابد أن يعمل الإنسان ويتعلم لكي يتقدم وإذا لم يعمل لم يتقدم وظل متأخراً وهذا هو أساس مانراه اليوم من وجود عالم أول first world وهو العالم الغربي الرأسمالي الغني ، والعالم الثاني second world وهو العالم الشيوعي وهو عالم قوي ومتقدم أيضا

رغم شيوعيته ، ثم العالم الثالث Third World وهو العالم المتأخر الذى نسميه من جانب الذوق والأدب بالعالم المتقدم أى الذى يتقدم The progressive world ونحن نتقدم فعلا ولكن فى بطء .

ونرى هنا أن الله سبحانه وتعالى يحذر الإنسان فى نهاية هذه الآيات من الشيطان الذى أخرج جده آدم من الجنة . ويلاحظ أن الله ينبه هنا إلى أن الشيطان عندما أخرج آدم وحواء من الجنة كشف فى نفس الوقت جنسها لكى يصبحا مخلوقين من مخلوقات الأرض ، لأن آدم وحواء لم يكونا يشعران بالجنس فى الجنة لأن البقاء فى الجنة خالد دون جنس ، أما عندما هبط الإنسان إلى الأرض فكان لابد له من المحافظة على نوعه بالجنس فأحس آدم أنه رجل وأحست حواء أنها امرأة وأصبح هذا الجنس من متاعب الإنسان فى حياته الأرضية . وقال الله إن الشياطين يعيشون مع البشر على الأرض ولكن البشر لايرونهم فى حين أن الشياطين يرونهم وهنا يمكن أن نفترض أن الميكروبات التى تصيب البشر وتقتلهم ربما كانت فى جملة الشياطين .

(٦) الإسراء ١٧ / ٦١ — ٦٩ :

٦١ — (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال : أأسجد لمن خلقت طينا .

٦٢ — قال (الشيطان) أرأيتك هذا الذى كرمت على ، لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا .

٦٣ — قال (الله سبحانه وتعالى) اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا .

٦٤ — واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا :

٦٥ — إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا .

٦٦ — ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما .

٦٧ — وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا :

٦٨ — أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لاتجدوا لكم وكيلا .

٦٩ — أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى، فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا :

٧٠ — ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم

على كثير ممن خلقنا تفضيلا .»

هنا نرى كيف أن الله سبحانه يتم التحدى فيطلق للشيطان الحرية فى أن يفعل بمن اتبعه مايريد ، فهو يستطيع أن يستفزز من استطاع أن يستفزه منهم بصوته ويجلب عليهم بكل قوته ، بل يستطيع أن يشاركهم فى أموالهم وأولادهم ويعدهم بما يشاء والشيطان لايعد الإنسان إلا بالغرور .

أما عباد الله المخلصون فلاسبيل للشيطان عليهم لأن وكيلهم هو الله سبحانه وكفى به وكيلا .

ثم يعطينا الله صورا من أفضال الله على البشر ، فهو الذى يجعل لهم الفلك ليركبوها فى البحر ليبتغوا من فضله إنه كان بهم رحيما، وإذا مسهم الضر فى البحر فلن ينفعهم إلا الله سبحانه . ولكن يحدث أن الله بعد أن ينجى الإنسان من الموت فى البحر ويوصله إلى البر أن يعود الإنسان إلى كفره وينسى فضل الله ويعرض عنه لأن الإنسان كفور .

وفى آخر هذه الآيات البليغة العميقة المعانى يذكر الله فى الآية ٧٠ أنه كرم بنى آدم وحملهم فى البر والبحر ورزقهم من الطيبات ثم يقول الله سبحانه إنه فضل بنى آدم على كثير ممن خلق تفضيلا . ولم يقل إنه فضل بنى آدم على كل من خلق وهذا يؤكد المعنى الذى قلناه فيما سبق أن الإنسان ليس أفضل الخلق جميعا ومن ثم فلا يمكن أن يكون الله قد جعل خيرات الأرض كلها له وحده فهو ليس أفضل ماخلق الله » .

* * *

(٧) البقرة ٢ / ٣٧ — ٣٩ :

٣٧ – فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم .

٣٨ – قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم لا هم يحزنون .

٣٩– والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

هذه الآيات من أدل الآيات على طبيعة الإسلام وامتيازه على غيره من الأديان فإن الله تاب على آدم بعد أن أخطأ . تاب عليه قبل أن يهبط إلى الأرض .

فهبط دون خطيئة . ولا تزر وازرة وزر أخرى : هذا ونحن نعرف أن الإنسان فى المسيحية هبط إلى الأرض بخطيئته بحسب ماقال بولص . وكان على الإنسان أن يكفر عن توبته أو يخلص نفسه منها بين يدى القساوسة : وهذا هو الذى أعطى للكنيسة هذه القوة الكبيرة على الأرض فى حين أن الإنسان فى الإسلام حر تمام الحرية . فمن الناس من يأته هدى الله فيتبعه به ولاخوف

عليه ولاهو يحزن . أما الذين يكفرون بنعمة الله فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

* * *

(٧) الإعراف ٧ / ٢٦ :

٢٦ — (يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون)

هذه آية ذات معان حضارية عظيمة حقا فإن الله سبحانه عندما أهبط الإنسان إلى الأرض وجعله مخلوقا أرضيا وأراه سوأته وسوأة امرأته حواء . وكانا قبل ذلك لايعرفان الجنس ، ولايشعران به فى الجنة وعلم الله آدم كيف يصنع الكساء من أشياء شتى منها الريش ولكن أعظم لباس للإنسان هى التقوى أى الخوف من الله ومراعاته ، وذلك هو الستر الحقيقى للإنسان فى حياته على الأرض هى التقوى أى مراعاة الله والخوف منه .

* * *

(٨) الأعراف ٧ / ٣١

٣١ — يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين .

٣٢ — قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنو فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة . كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون .

ونحن نرى هنا كيف أن الله يرسم للإنسان حياته الحضارية على الأرض فإن الله يأمر الإنسان بأن يأخذ زينته عند كل مسجد أى عند كل مكان يقيم فيه الصلاة والله سبحانه يدعه حرا فى أن يأكل ويشرب ما يشتهى إلا المحرمات لأنها كلها ضد صحة الإنسان وحياته. والله سبحانه يأمر الإنسان ألا يسرف فى الأكل أو الشرب لأن الله لا يحب المسرفين :

ولما كان اليهود يحرمون على الناس الكثير من الأطعمة فإن الله سبحانه يدع الإنسان حرا يأكل مايريد مما خلق الله ويلبس مايشاء، لأن كل خيرات الدنيا هى لمخلوقاته أجمعين وخاصة البشر الذين آمنوا بالله فى الحياة الدنيا وكلها خالصة له حتى يوم القيامة .

* * *

(٩) الأعراف ٧ — ١٧٢ :

١٧٢ — وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين :

١٧٣ — أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون .

١٧٤ — وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون .

هنا نرى كيف أن الله سبحانه وضع نظام تناسل بنى آدم على الأرض وأشهدهم على أنفسهم أنه عرفهم أنه ربهم وذلك حتى

لايدعوا يوم القيامة أنهم لم يتنبهوا إلى ألوهية الله سبحانه وواجب عبوديتهم له . وهذا التنبيه صحيح متصل فى الأجيال كلها فلايجيء جيل يقول إننا كنا جيلا جديدا لم يبلغنا خبر الإله وواجبنا نحوه . وهذا هو الالتزام الخلقى للإنسان فى هذه الدنيا وهو نعمة أنعم بها الله عليه فى مقابل غفرانه ذنب خطيئته فى الجنة .

* * *

١٠ ــ سورة التين ٩٥ :

١ ــ والتين والزيتون .

٢ ــ وطور سينين

٣ ــ وهذا البلد الأمين

٤ ــ ٥ ــ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين .

٦ ــ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون .

٧ ــ فما يكذبك بعد بالدين :

٨ ــ أليس الله بأحكم الحاكمين .

هذه السورة القصيرة من أهم مايقرأه المؤرخ الذى يخشى أن يكون هناك تناقض بين مافى القرآن الكريم وما يقول به التاريخ من تطور الإنسان على الأرض وارتقائه مراحل التطور فيجد فى هذه السورة القصيرة أنه لاتناقض إطلاقا وأن القرآن الكريم يؤيد ماتقوله أبحاث التاريخ .

فالسورة تبدأ بالقسم بنباتين من نعم الله سبحانه على الإنسان وهى التين والزيتون ، والتين حلو ، والزيتون مر ، ولكنها يؤكلان ولكل منها طعم جميل وفائدة عظيمة وهم ينبتان فى نفس المكان .

ثم يقسم الله بطور سينين وهو الجبل الذى تحدث الله إلى موسى عليه السلام وهو عليه .

ثم يقسم بذلك البلد الأمين وهو مكة مستقر الحرم الإلهى ثم يقول إنه سبحانه خلق الإنسان فى أحسن تقويم عندما كان فى الجنة فكان هناك فى أحسن تقويم ثم خالف الإنسان ربه فعاقبه بالإخراج من الجنة وتحول إلى مخلوق أرضى مثله فى ذلك مثل أى حيوان آخر ، أى الإنسان ــ بحسب هذه الآية بدأ على الأرض من أسفل سافلين بدأ حيوانا عليه أن يكافح على الأرض ليحافظ على وجوده ثم يرتقى نتيجة للكفاح . وهؤلاء الذين يرتقون هم أولئك الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات أى ساروا على الطريق الأخلاقى الذى رسمه الله فيجازيهم الله عن ذلك أحسن الجزاء ، وهذا معنى : فلهم أجر غير ممنون .

ثم تتساءل الآية عما إذا كان من الممكن بعد هذا أن يكذب الناس محمدا صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من دين .

وهذا كله يدل على أن الله هو أحكم الحاكمين .

* *

(١١) سورة البلد ٩٠/٦ ــ ٢٠ :

٦ ــ يقول أهلكت مالا لبدا .

٧ ــ أيحسب أن لم يره أحد .

٨ — ألم نجعل له عينين ؛

٩ — ولساناً وشفتين ؛

١٠ — وهديناه النجدين ؛

١١ — فلا اقتحم العقبة ؛

١٢ — وما أدراك ما العقبة ؛

١٣ — فك رقبة ؛

١٤ — أو إطعام فى يوم ذى مسغبة .

١٥ — يتيماً ذا مقربة ؛

١٦ — أو مسكيناً ذا متربة ؛

١٧ — ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ؛

١٨ — أولئك أصحاب الميمنة ؛

١٩ — والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة .

٢٠ — عليهم نار مؤصدة ؛

وهذه الآيات تكشف لنا عن سر الخير فى هذه الحياة الدنيا ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى هدى الإنسان النجدين أى فتح أمامه الطريقين طريق الخير وطريق الشر طريق الفضيلة وطريق الرذيلة، طريق الجنة وطريق النار ليختار منهما ما يختاره بعقله الذى أهداه إليه الله ، وهذا يرينا كيف أن الإنسان — لأنه عاقل — مسئول عن كل أعماله ؛

وقد أهداه الله عينين ليرى بهما ولساناً وشفتين ليتكلم لكيلا يقول بعد ذلك إنه لم يرزق الوسائل التى تمكنه من الرؤية والفهم والتمييز بين الخير والشر وطريق كل منهما . ومن هنا فان الإنسان لا يستطيع أن يقول إنه أهلك مالاً كثيراً فى الشر ، فهل يحسب أن أحداً لم يره ؟ هذا وهم لأن الله سبحانه وتعالى يراه ويرى كل ما يفعل ؛

فإذا فكر الإنسان واختار طريق الصواب اقتحم بذلك العقبة إلى الجنة من بين الأعمال التى يستطيع الإنسان أن يفعلها لكى يكون مطمئناً إلى أنه يسير فى طريق الرضا. وفك رقبة أى المعاونة على إطلاق سراح إنسان مسكين وقع فى الأسر والعبودية ، أو إطعام فى يوم جوع عام يتيماً قريباً منه أومسكيناً فقيراً ذا متربة وكان بعد ذلك من الذين آمنوا بالله واتفقوا فيما بينهم على الصبر واتفقوا على معاملة غيرهم من البشر بالرحمة وأولئك هم أصحاب الميمنة أى أصحاب الجنة أما الذين خالفوا الطريق وساروا فى طريق الشر فهم أصحاب الشؤم وأهل النار يدخلون النار وتوصد أبوابها عليهم .

* * *

وهكذا نصل إلى نهاية هذه الدراسة عن قصة آدم وحواء فى القرآن الكريم ، تتبعناها عبر آيات كثيرة تكمل القصة وترينا كيف أن الإنسان من يوم كان فى الجنة وهو فى موقف تحد من الشيطان الذى يجتهد فى أن يفسد حياة الإنسان ويضله ، ثم هنالك التحدى الآخر وهو تحدى العمل للتقدم والاهتداء إلى طريق الخير والحضارة والتقدم .

حسين مؤنس
عضو المجمع

ألفاظ الحضارة فى الوثائق العربية ذات الطابع الدولى

للدكتور عبد الهادى التازى

البحث الذى قدمه د . عبد الهادى التازى
لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، فى دورته
الخامسة والخمسين (27 فبراير 13 مارس
1989)

التاريخ

الدولى لأمة مامن الأمم يعنى الاهتمام بما يربط جهة من الجهات مع غيرها ، من حيث علاقاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ...

وهكذا فإن التاريخ الدولى هو شىء غير التاريخ المحلى الذى لايعدو الاشتغال بالأحداث والوقائع التى تجرى على الساحة الوطنية المحدودة ..

وإذا كان العتاب قد وجه من قديم لنا — نحن العرب — بسبب إهمالنا لتاريخنا الإقليمى فإن الشعور بالعتاب يزداد حدة عندما يتعلق الأمر بحديثنا عن تاريخ علاقاتنا مع الأمم الأخرى :

وإذا كان الاعتراف بالحق فضيلة كما يقال فإننا فعلا مقصرون فى هذا الباب تقصيراً يبلغ فى بعض الأحيان درجة لانمتلك معها غير الاعتراف بواقع الحال ...

وهكذا فإننا إذ نشيد بدور مؤرخينا القدامى ممن دونوا تاريخنا من أمثال ابن جرير الطبرى (ت 310 = 923) والبكرى (ت 487 = 1094) ومن أمثال ابن الأثير (ت 630—1233) وابن واصل (ت 697=1297) وما لنا لا نقول أمثال

(*) ألقى فى الجلسة الحادية عشرة يوم الأربعاء ٣٠ من رجب سنة ١٤٠٩هـ الموافق ٦ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م .

ابن خلدون (80=1332) والقلقشندى 821=1418 والمقريزى 844=1441 وغيرهم كثير وكثير فى المشرق والمغرب ؟؟

لكنى إذ أشيد فيه بذكر هؤلاء أجرؤ على القول بأنهم يتحملون نصيباً من التبعة فى عدم إعطائهم للوثيقة العربية ذات الطابع الدولى ما تستحقه من عناية وما تتطلبه من تتبع وملاحقة !

وينبغى لكى نتصور — باختصار — ما أقصد إليه أن أذكر أن ابن خلدون مثلا وهو رجل دولة عايش كثيراً من أحداث عمره على الصعيد الدولى ...

هذا المؤرخ العظيم لم يهتم بإعطائنا صورة لما كانت عليه العلاقات بتفصيل بين المغرب مثلا والممالك الأوربية ... هناك وثائق دبلوماسية حررت على مقربة منه ولكنها لم تجد لها صدى فى كتابه ولولا احتفاظ أرشيفات فرنسا أو إيطاليا بها لذهبت أخبارها أدراج الرياح ..؟

وسأضرب مثلا أكثر دلالة على عدم اكتراثنا بهذه الحقول من ثقافتنا الوطنية وحياتنا السياسية ، أضرب المثل أيضاً بالقلقشندى الذى لانجد فى كتابه صبح الأعشى على حجمه وضخامته لا نجد إلا صورة مكاتبة واحدة ترجع إلى عصر السلاطين المماليك : وهى الرسالة الموجهة من دوج البندقية ميخائيل إلى السلطان فرج بن برقوق فى 16 صفر 814=10 يونيه 1411 وعلى ذكر العلاقة مع البندقية أذكر أن أصول اتفاقية 12 رجب 818=17 سبتمبر 1415 مع البندقية تختفى من الأرشيف المصرى ..! إذا ما استثنينا الإشارة العابرة لها والمختصرة جدا عند المقريزى فى (السلوك) وعند ابن حجر فى (أنباءات الغمر) (1) فى الوقت الذى نجد الترجمة الكاملة للإتفاقية فى أرشيف البندقية ، أكثر من هذا نجد لوحة رائعة لسفارة البندقية التى وردت على سلطان مصر شيخ بن عبد الله المحمودى وهى من الرسوم التى يمكن لكل واحد أن يقف عليها فى الرواق الكبير بمتحف (اللوفر) لوحة بريشة بيللينى (........ (Bellini)

وفيما يتعلق بالمغرب كذلك نجد أنه فى الوقت الذى لا يوجد فيه بالأرشيف المغربى أثر لنصوص الاتفاقية التى عقدتها المملكة المغربية مع البندقية بتاريخ 19 رمضان 913= 11 يناير 1508 نجد أن أرشيف الدولة فى

---

(1) د. رؤوف عباس : مصر وعالم البحر المتوسط — دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع — القاهرة 1986

فينيسيا يحتفظ بالنصوص الكاملة للاتفاقية المغربية البندقية مع ترجمتها وكأنها حررت بالأمس ..

وهكذا يتأكد أن بعض كتب التراث مما ذكرته آنفاً ونوهت به ما يزال « مناجم » في حاجة كبرى إلى اكتشافها وتقصي ما ورد بين ثناياها بالرغم من شحته وقلته ! !

ومن حسن الحظ أن بعض زملائنا وأساتذتنا أخذوا يشعرون بفداحة الفراغ الذي تشكوه المكتبة العربية فيما يتصل بهذا الموضوع فأخذوا يحاولون رأب الصدع ، وقرأنا لهم في مختلف البلاد العربية عدداً من المقالات ، وربما ظهر عدد من المؤلفات(1) التي تتحدث عن هذه السفارة أو هذه الوثيقة وربما ظهرت ترجمات لعدد من الكتب التي أسهم بها أصحابها من جنسيات أخرى في موضوع العلاقات الدولية (2) .:. وقد أخذنا نقرأ — وهذه ظاهرة محمودة عن بعض الأطاريح التي تعالج بعض جوانب هذه المواضيع .:.

وإننا إذ نكبر كل الجهود التي تبذل من أجل كتابة تاريخ علاقاتنا الدولية بما كان يصحبها من ظهور أسماء لبعض الشخصيات وظهور أعلام جغرافية كذلك .:. وبما كان يقترن بها — أحياناً — من مناظرات ومحاورات حول شتى الموضوعات ... وبما كان يظهر على إثرها من كتابات وإفادات ... إذ نكبر كل ذلك ما نزال نعتبر أن جل أمهات التراث السياسي العربي والإسلامي وخاصة منهما يتصل بجانب التاريخ الدبلوماسي ما تزال « مناجم » — كما قلنا — في حاجة إلى الكشف والاستكشاف ... وما تزال في حاجة إلى حفريات متوالية ووئيدة ليس فقط في خزائننا ومستودعاتنا بالبلاد العربية ولكن — وهذا مهم — في الخزائن والمستودعات التي تحتضنها الأرشيفات في الديار الغربية ...

لقد أتيحت الفرصة لي — وأنا أحضر كتابي « التاريخ الدبلوماسي للمغرب » أن أتردد على أرشيفات الدولة في معظم البلاد الأوروبية مثلا ... هناك في بيزة وفي جنوة ، وفينيزيا ونابولي.وفي ليشبوة وفي سيمانكاس... وباريز ولندن إلخ ... يجد المرء نفسه أمام متاحف عربية بكل ما تؤديه كلمة « المتحف » من معنى ... ليس في باب التراث كمخطوط ولكن فيما يتصل بعلاقات البلاد الغربية ، والإسلامية بالعالم الغربي .

---

(1) د. صلاح الدين المنجد : للنظم الدبلوماسية في الإسلام ، دار الكتاب الجديد ، بيروت لبنان 1403=1983

(2) ورى ميخايلوفتش كوبيشا نوف : الشمال الأفريقي الشرقي في العصور الوسطى المبكرة وعلاقاته بالجزيرة العربية . نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم—عمان 1988 .

وقد كان مما يثير الانتباه فى أمر هـذه الوثائق موضوع الهدايا المتبادلة بين ملوك ورؤساء الدول ، كانت هذه الهدايا تكون وحدها عنصراً على حدة يعبر عما وصل إليه الفكر الحضارى العربى بين الأمم من تذوق لنوع ما يهدى وشكل مايقدم للامم الأخرى ، حيث تتبارى المكايسات والمجاملات فى انتقاء ما يجلب تقدير الآخرين ويترجم لهم عن مركز وقيمة ومكانة هؤلاء الذين تقدموا بهذه الهدايا والعطايا ... وما تزال أمامنا الحكمة المروية عن النملة : « إن الهدايا على مقدار مهديها » .

فهنا نرى أن الذى يقدم الهدايا يحرص على أن يظهر أتم ظهور ... وهكذا فإن الهـدايا فى الواقع بمثابة بطاقة تعريف تحمل معهـا الحيثيات والإمكانيات والقدرات ...

وقد رأيت أن أقدم بهذه المناسبة بعض اللقطات التاريخية التى تعبر عن بعض الجوانب المغربية الحضارية التى اتسمت بها العلاقات المصرية فى العصر الوسيط ويتعلق الأمر بحدث جميل شاهدته سنة 733=1338 ، ويتمثل فى إهداء العاهل المغربى السلطان أبى الحسن المرينى المصحف الكريم الذى خطه جميعه بذات يده إلى المسجد النبوى بالمدينة المنورة شكراً لله على توحيد المغربين الأقصى ، والأوسط ... وتعبيراً عن الحمد لله على أن مهد الطريق لحج بيت الله ... لقد عهد العاهل المغربى السلطان أبو الحسن للأميرة المغربية مريم محل والدته بتبليغ المصحف إلى مكانه المخصص له ... وكان السلطان الناصر محمـد ابن قلاوون هو المخاطب الأساسى لإنجاح هذه المهمة وتحقيق هذه الرغبة ...

ومن حسن الحظ هذه المرة أن نجد الوثائق بين أيدينا ونجد المؤلفات كذلك فى مساعدتنا سواء فيها المؤلفات التى حررت بالديار المغربية أو الأندلسية أو التى ألفت كذلك بالديار المصرية .

وهكذا نمتلك حول هذا الموضوع مادة جيـدة تتمثل فى المراسـلات الدبلوماسية ، والحوليات التى حررت من طرف شـاهدى عيان والتى ترجم بعضها إلى الفرنسية والإسبانية والإنجليزية كذلك .

ويحتوى مجموع تلك المستندات على ثروة من ألفاظ الحضارة وأفعال الحضارة ، كذلك كانت تقتضى منا أن نلتفت إليها تحقيقاً وتعليقاً سيما وقد تعرض بعضها للتحريف عند النسخ أو عند الطبع أو عند الترجمة كذلك .

كان فى مقدمة المصادر التى تنـاولت الموضوع من الجانب المغربى :

أولا : الرسائل الدبلوماسية التى رفعت من العاهل المغربى إلى العاهل المصرى والأولى منها تضيف إلى مهمة الوفادة معلومات عن الحالة السياسية فى المغرب وعن ظروف

العلاقات المغربية القشتالية فى الأندلس ::. إن النية كانت مصروفة لإرسال والدة السلطان حسبما أخبر به سلطان مصر السفير ابن الجراح لكن بما أن الوالدة هارت إلى عفو الله فإن سلطان المغرب يبعث بزوجة والده محل والدته :.؛ واستجابة لطلب ملوك مصر إخباره بمتزيدات المغرب وجدنا السلطان أبا الحسن يقدم المعلومات المطلوبة . أما الرسالة الثانية فقد تخصصت لمهمة الوفادة : حمل المصحف.. وحج الأميرة ... وذكرت من أعضاء الوفد المغربى أبا إسحاق بن يحيى السويدى وأمير الركب الحسن بن عمران ... وهذا الخطاب « كتب فى يوم الخميس المبارك الخامس والعشرين من ربيع الأول عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة (21 أكتوبر سنة 1337) » .

وقد وردت نصوص هاته الرسائل فى صبح الأعشى للقلقشندى فى المجلد الثامن منه.

ثانياً : كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة تأليف لسان الدين بن الخطيب سنة (776=1375) فى مجلده الرابع (1) .

ثالثاً : كتاب المسند الصحيح الحسن فى مأثر ومحاسن مولانا أبى الحسن (ت 781=139). تأليف محمد بن مرزوق التلمسانى (2) .

رابعاً : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر تأليف ابن خلدون فى مجلده السابع والأخير وفى كتاب (التعريف) الذى ألحقه الناشر بكتاب العبر .

وقد كان كذلك فى صدر من اهتم بهذا الحدث من الجانب المصرى :

أولا : الخطاب الديبلوماسى الذى راح من السلطان الناصر محمد بن قلاوون جواباً على رسالة العاهل المغربى السلطان أبى الحسن ويلاحظ أن الناصر يجعل الرسول هو أبا إسحاق إبراهيم بن أبى يحيى (التازى) ويصف السويدى بالحاجب الكبير ويكتفى بذكر الكاتب أبى الفضل بن أبى عبد الله بن أبى مدين . .

ثانياً : صبح الأعشى للقلقشندى. .

---

(1) صدر بتحقيق محمد عبد الله عنان ج / 4 ص 322—325

() صدر هذا الكتاب عن المكتبة الوطنية بالجزائر، بدراسة وتحقيق د. ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد— الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1401=1981 وقد كانت المحققة ترجمته إلى الأسبانية عام 1977 ، وصدر عن المعهد الأسبانى العربى للثقافة بمدريد وظهرت قبل هذا عام 1925 دراسة وترجمة بالفرنسية لنخب من الكتاب الأستاذ ليفى بروفنسال .

esperis 1925 T.V. 1 Trimestre

ثالثاً : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لتقي الدين المقريزي . . .

(ت 845=1441)

رابعاً: ابن إياس الحنفي (ت 930=1524) في كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور ...

وهكذا فنحن أمام إفادات تتضافر جميعها على تسجيل مقدم الأميرة المغربية في اليوم الثاني والعشرين من رمضان سنة 738=13 أبريل 1338 .

وإذا ما رجعنا إلى رواية ابن الخطيب (ت 776=1375) وهو أقرب تاريخ للزيارة فإننا سنجده في معرض إشادته بالسلطان أبي الحسن المريني يأتي بنسخة العقد الذي تضمن هديته إلى صاحب الديار المصرية صحبة الربعة الكريمة بخطه . . . وفي ذلك يقول ابن الخطيب:

1 — قبة كبيرة من مائة (بنيقة(1)) وفيها أربعة أبواب .

2 — قبة أخرى من ستة وثلاثين (بنيقة) داخلها حلة محلقة ووجهها حرير أبيض ، وركيزها أبنوس وعاج مرصع والأكبار(2) فضة مذهبة والشرائط حرير ...

وقد ضربت القبتان بالصفيصف(3) ، وحل فيها جميع الهدية وصففت جميع الدواب بجهازاتها أمام القبة .

3 — ثلاثمائة من الخيل .

4 — خمسة وثلاثون من البغال بين ذكور وإناث(4) ؛

---

(1) بنيقة : كلمة عربية عرفت تطورات عديدة في دلالاتها ، ومن جملة ما تعني الحجرة يتخذها الوزير ، مثلا ، مكتباً له ، وربما منها بتحريف أتت كلمة (Cabinet (Ministériels ولأجل تصور وجود بنائق داخل القبة ينبغي أن نعرف معنى كلمة (أفراق) المحرفة عن (فرق) وهي تعني مجموعة مضارب صغيرة يستقر فيها أعضاء الحكومة أثناء السفر وقد فهم كانار CANARD خطأ أن القصد بالبنيقة هنا قطعة الثوب G.S. Colin, Encyc. ISLAM 1954

(2) جمع كبر القصد إلى أعالي القبة أي ذروتها وتفافيحها .

(3) محلة بتلمسان حيث كان العاهل المغربي يقيم انذاك .

(4) كان جميعا بسروج ولجم مسقطة بالذهب والفضة . . . وبعضها سروجها وركبها من الذهب .

(5) سبعمائة من الجمال إلا أنها لم تصفف بل أعدت لحمل الهدية .

(6) أربعة وثلاثون من البزاة الأحرار .

(7) مائتان وخمسة وعشرون من أحجار الياقوت [1] .

(8) مائة وثمانية وعشرون من قضب الزمرد[2] .

(9) ثلاثة آلاف وأربعة وستون من حبوب الجوهر الفاخر أكثره .

(10) ثمانية وعشرون من أحجار الزبرجد.

(11) عشرة من المهندات بحلية الذهب .

(12) عشرة أزواج مهاميز من الذهب .

(13) عشرة أزواج الأركب ، واحد كله ذهب وثلاثة كلها فضة وستة من خبحبة مذهبة على الحديد [3].

(14) مضمتان من ذهب .

(15) شاشية مذهبة .

(16) ثلاث عشرة حلة (مذهبة) .

(17) عشر كلل .

(18) مخاد مائتان بعضها نزف [4] ذهب وبعضها حلل .

(19) عشرون أنساقاً ذهب [5] .

(20) ستة وأربعون من القدود[6] .

(21) فرش جلد[7] .

(22) عشر علامات مششة[8] .

(23) عشر وقايات مذهبة .

(24) ثلاثون من وجوه اللحف حرير وذهب[9] .

(25) مائتان من المحررات الملونة الرفيعة المذهمة .

---

(1) ينعت ابن مرزوق الياقوت بأنه فاخر عظم القدر والمقدار ، النفح . 400,4

(2) قضب ج قضيب ، تنظم فيه قطع الزمرد DOZY

(3) نقل ابن الخطيب هنا أكثر وضوحاً ودقة .

(4) (النزق) آلة النساج من تسمية الشيء باسم آلته .

(5) رسم عند آخرين انزاق جمع نزق 1941—1939 A. I. E. O.

(6) يسميها ابن مرزوق أيضاً (الخلادى) جمع خلدى · جلد الغنم كانوا يتخذون منه لباساً . . .

(7) M. Canard : Relations .. AIE.O 2932– 41

(8) يضع دوزى علامة استفهام على هذا اللفظ فلعلها مغششة أى مغشاة

(9) يعدها ابن مرزوق عشرين

(26) حيطيان أحدهما حلة والآخر نزق (1)

(27) ثلاثة وعشرون شقة من الرصان (2)

(28) إثنان من حنابل الحلة .

(29) عشرة براقع للخيل ، منها ثمانية من الحلة .

(30) ثلاثون من أسلة (3) الخيل .

(31) ثلاثة طنافس من الحرير .

(32) حنبلان اثنان من الحرير .

(33) عشرة حنابل من الحرير و الصوف .

(34) مائة وسبعة من الحنابل الونشريشية والزمورية .

(35) أربعة آلاف من الجلد الشركي ... والإغماتي .

(36) مائتان من درق اللمط المثمنة (4) .

(37) أربعة وعشرون من الأكسية المحررة .

(38) ثمانية من البرانس المحررة .

(39) عشرون من الأحارم ما بين محررة وصوف .

(40) خمسون من أزواج المحفف (5) .

(41) عشر لزمات من الفضة (6) .

(42) ست عشرة شقة من الملف (7) .

وأما أزودة الحجاج ، يتابع ابن الخطيب لائحة نسخة العقد التي وقف عليها :

أعطى للحرة المكرمة (8) أخته أعزها الله ثلاثة آلاف دينار من الذهب ومائتي كسوة برسم العرب .

---

(1) تعبير ابن مرزوق : نسق

(2) لعل أصل الكلمة من الإيطالية RASO

(3) جمع سليل ، تعني التجفاف ، يتقى به كالدرع للفرس والإنسان

(4) يضيف ابن مرزوق فيها إثنان بنهود الذهب وثمانية عشر بنهود الفضة

(5) في ابن مرزوق المشفف ، أي الشفاف Voir M. Canard — A.I.E.O.

(6) اللزمة هي الشكيمة

(7) جوخ يستورد من (أمالي) الإيطالية ، ويعرف بملف للطليان

(8) يلاحظ أن الرسالة الرسمية التي بعثها السلطان أبو الحسن تنعت الحجة في الرسالة الأولى : من يمت بحرمة المحرم إلينا ويلزم بحق التربية علينا من يقوم عندنا مقامها « وفي الرسالة الثانية : » وهي محل والدتها المكرمة المبرورة ... » وفي ابن مرزوق يسميها بمريم ويظهر أن الرسالتين السلطانيتين تعمدتا هذا التكتم فتلك للعادة المتبعة ...

* أعطى لمن سافر معها ستمائة وسبعين دينارا(1) .

* أعطى لأبى إسحاق بن أبى يحيى ثلاثمائة دينار من الذهب وكسوة رفيعة .

* أعطى لعريفه يحيى السويدى ألف دينار من الذهب .

* أعطى للوصفان والخدم العدد الكثير من الذهب .

* أعطى لرسوم التحبيس على قراء الربعة الكريمة ستة عشر ألفاً وخمسمائة دينار (2) وعلى غيرهم من علماء المالكية .

* * *

ويأتى بعد لسان ابن الخطيب ابن مرزوق الذى يذكر هو الآخر أنه يعتمد فى لائحته على ما ضبط من نقل المتولى لذلك ، ومن خلال المقارنات والمفارقات بين إفادة ابن الخطيب وابن مرزوق يظهر أن الاختلاف بينهما لا يكاد يذكر على ما وقفنا عليه فى التعاليق المقتضبة السابقة .

وإذا ما رجعنا أخيراً لابن خلدون فسنجده فى صفحتين متتابعتين من كتابه يردد عبارة : أن الناس تحدثوا فى البلاد دهراً كاملا عن يوم مقدم الأميرة المغربية ، ويقول : إنه وقف على برنامج الهدية بخط أبى الفضل ابن أبى مدين لكنه ، أى ابن خلدون ونسيه ! ! وأن بعض قهارمة الدار ذكر له كذا وكذا مما كان يقارب الجرد الذى قدمناه نقلا عن ابن الخطيب .

* * *

ونرى فى البداية أن نقف قليلا أمام الربعة الكريمة ، أى الصندوق المعد للمصحف الشريف ، الذى نسخه للعاهل المغربى ، على ما أسلفنا ، بخط يده وجمع الوراقين لمعاناة تذهيبه وتنميقه ، واستدعى القراء لضبطه وتهذيبه حتى اكتمل شأنه — كما يقول ابن مرزوق وابن خلدون معاً — : لقد كان العاهل حبس هذا المصحف ابتداء على شالة (مقبرة بنى مرين المطلة على وادى بورقراق بالرباط) . لكنه — وقد عزم على أن يبعث أم ولد أبيه بعد وفاة والدته — قرر أن يبعث بالمصحف إلى المدينة المنورة ، وهنا وضع له وعاء مؤلف من خشب الأبنوس والعاج والصندل الفائق الصنعة ، وغشى بصفائح الذهب ونظم بالجواهر والياقوت ، وقد اتخذت له أصونة الجلد المحكمة الصناعة

---

(1) ينبغى أن نشير هنا إلى أن العدد العديد من السيدات اللاتى رافقن الأميرة كن من زوجات وكريمات الوزراء والكبراء والقضاة على ما سنذكره .

(2) يتساءل هنا عن عدم ذكر ابن مرزوق للكاتب أبى الفضل بن أبى مدين الذى ورد ذكره فى خطاب السلطان الناصر للسلطان أبى الحسن . . .

المرقوم أديمها بخيوط الذهب ، ومن فوقها غلاف الحرير والديباج وأغشية الكتان قبل أن يأخذ الركب طريقه من حاضرة تلمسان(1) في النصف الثاني من شهر جمادى الثانية على ما نقدر استئناساً برحلة مماثلة تمت في ظروف مشابهة سنة 1143=1731 (2) .

وحتى يحصل الغرض الذي قصده العاهل من تحبيس المصحف أخرج من خزائنه أموالا عيناً لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفاً على القراء فيها ... وهو النص الذي يوضحه ما جاء في اللائحة التي أسلفنا الحديث عنها(3) .

فماذا عن جواب مصر على هذه الوفادة التي تحدث الناس عنها دهراً على ما أسلفنا ؟ هنا سنرجع للمعلومات القيمة التي أوردها المقريزي في كتابه « السلوك » وهو المصدر الوحيد – على ما أعلم – الذي حدد يوم 22 رمضان سنة 738=13 أبريل 1338 (4) موعداً لوصول الأميرة التي ينعتها بينت السلطان .. التي قدمت ومعها هدية جليلة للغاية ، نزل لحملها من الاصطبل السلطاني ثلاثون قطاراً من بغال النقل سوى الجمال ،

---

(1) حضر ابن مرزوق هذه الأيام بتلمسان مع العاهل المغربي الذي أضفى عليه من عنايته ، ويفيدنا ابن مرزوق أن المصحف كان ما يزال بالمغرب ليلة عيد المولد النبوي 738 ، وقد أنشدت فيه عدد من القصائد الشعرية علق بحفظ ابن مرزوق هذان البيتان ·

يــا مصحفاً مــا رأى الراؤون في زمن ... شبهاً له مصحفاً مـن نسخ سلطان

فضيلــة مثلها في الدهر مــا عرفت ... من عهــد عثمان إلا لابن عثمان

ويفيد ابن مرزوق هنا أنه شاهد المصحف بالحرم النبوي ، هذا وقد تقفيت أثر هذا المصحف في المدينة فلم أقف له على أثر ، في حين وقفت فيه على المصحف الذي حبس على بيت المقدس . .

التازي : أوقاف المغاربة في القدس ، مطبعة فضالة (المحمدية)سنة 1981 ص 21—22 .

(2) القصد إلى الرحلة التي قامت بها الأميرة خناثة زوجة السلطان مولاي إسماعيل وأم السلطان مولاي عبد الله ، التي حجت صحبة حفيدها الأمير سيدي محمد بن عبد الله الذي أصبح ملكاً للمغرب : محمد الثالث لقد كان على الركب الأميري أن يقضي سبعين يوماً في الطريق بين مدينة فاس التي ودعها يوم حادي عشر جمادى الثانية من سنة 1143=22—12—1730 وبين أول نقطة في ولاية طرابلس د . التازي · أمير مغربي في طرابلس أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الاسحاقي (مطبعة فضالة 1976) .

(3) ينبغي أن نذكر هنا أن بعض المؤرخين يرون أن تقديم السلطات أبي الحسن مثل هذه الهدايا الفخمة لسلاطين مصر مقترنة بالمتزيدات عن امتداد سلطانه إلى حدودهم لم يقع موقع رضى من أولئك الحكام الذين نفسوا عليه ذلك الأمر الذي يفسر إيواءهم لابن تافرا جين ألد خصوم السلطان أبي الحسن .

(4) يذكر ابن إياس خطأ أن الحرة حضرت مصر عام 736=1336 على ما أسلفنا – بدائع الزهور تحقيق محمد مصطفى ، الجزء الأول – القسم الأول ص472. الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1402=1982

وكان قد خرج المهمندار إلى لقائهم وأنزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح[1] ... وهم جمع كبير جداً . يقول المقريزي: وكان يوم طلوع الهدية من الأيام المذكورة ففرق السلطان الهدية على الأمراء بأسرهم على قدر مراتبهم حتى نفدت كلها ، سوى الجوهر واللؤلؤ ، فإنه اختص به ، فقدرت قيمة هذه الهدية بما يزيد على مائة ألف دينار .

ثم نقلت الحرة إلى الميدان[2] بمن معها ، ورتب لها من الغنم والدجاج والسكر والحلوى والفاكهة في كل يوم بكرة وعشية ما عمهم وفضل عنهم ، فكان مرتبهم في كل يوم عدة ثلاثين رأساً من الغنم ونصف أردب[3] أرزاً وقنطار حب الرمان[4] ، وربع قنطار سكراً ، وثمان فانوسان شمع [5] وتوابل الطعام ، وحمل إليها برسم النفقة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم ، وكانت أجرة حمل أثقال ركبها قد بلغت ستين ألف درهم ... ثم خلع على جميع من قدم مع الحرة : فكانت عدة الخلع مائتين وعشرين على قدر طبقاتهم حتى على الرجال الذين قادوا الخيول ، وحمل إلى الحرة من الكسوة ما يجل قدره ، وقيل لها : أن تملي ما تحتاج إليه (فقالت) : « لا يعوزها شيء ، وإنما تريد شكر عناية السلطان بإكرامها وإكرام من معها حيث كانوا » .

---

(1) سمي هذا المسجد بالفتح لأن منه كان انهزام الروم إلى قصر الشمع حين قدم الزبير بن العوام والمقداد ابن الأسود فيمن سواهما مدداً لعمرو بن العاص، وكان الفتح، وإن تحت حائطه الشرقي قبر عامر الذي كان أول من دفن بالقرافة ، ومحراب مسجد الفتح منحرف عن خط سمت القبلة إلى جهة الجنوب انحرافاً كثيراً على نحو محراب جامع القرويين بفاس المغرب ... المقريزي: الخطط، طبعة بيروت، 3 ص447—450 د. التازي، جامع القرويين ج 3 ص 656 طبعة بيروت 1922

(2) أي ميدان يقصد ؟ فالميادين كثيرة على ذلك العهد في القاهرة ميدان القلعة وميدان القصر، وميدان الملك العزيز إلخ انظر الخطط 3 ، ص 19—76 وانظر كذلك كتاب نظم دولة سلاطين المماليك للدكتور عبد المنعم ماجد ص 137 .

(3) الأردب مكيال ضخم في مصر يساوي 24 صاعاً ج أرادب .

(4) يمكن أن نلاحظ أن الرمان كان من الفواكة المدخرة لأن موسمة عادة هو الخريف، ومعلوم أن الوفادة المغربية وصلت في إبريل ربيع 1338 .

(5) الفانوسيات ج فانوسية وهي على ما عند دوزي (Dozy) كمية معينة من شمع القوانيس والظاهر أن تلك الكمية كانت قدر ما يكفي للفانوس الواحد ، والفانوس لفظ يوناني معرب .

فتقدم السلطان إلى النشو[1] وإلى الأمير أحمد أقبغا[2] بتجهيزها اللائق بها فقاما بذلك واستخدما لها السقائين والضوءية، وهيأ كل ما تحتاج إليه فى سفرها من أصناف الحلوى والسكر والدقيق والبشماط[3] وطلبا الجمالة لحمل جهازها وأزودتها ، وندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولى الجيزة[4] ، وأمره أن يرحل بها فى مركب لها بمفردها قدام المحمل ويمتثل كل ما تأمره به ، وكتب لأميرى مكة والمدينة بخدمتها أتم خدمة » .

وهكذا لقاهم سلطان مصر فى طريقهم أنواع البر والتكرمة حتى قضوا فرضهم ، ووضعوا المصحف الكريم بحيث أمرهم صاحبهم ، وجواباً على الهدايا المغربية وجدنا ملك مصر يسنى الهدية للسلطان أبى الحسن فيقدم له علاوة على ثياب الإسكندرية البديعة النسج المرموقة بالذهب ، علاوة على ذلك أنواعاً من الفساطيط المصرية الغريبة الهيكل والصنعة بالمغرب على ما يذكره ابن خلدون فى كتابه (التعريف[5]) .

وقد وقفنا فى هذا المصدر على تفصيلات أدق عن الفساطيط المصرية المهداة : إنهما خيمتان شاميتان كانتا مثار إعجاب كبير من سلطان المغرب ، ويتعلق الأمر بخيمة عظيمة على تصميم قصر فخم تشتمل على بيوت للمراقد وأواوين للجلوس وأماكن للطبيخ ،

---

(1) هذا لقب كان يعرف به المشرف على الكتابة الخاصة بالملك مصر ، ماكان يسمى «ناظر الخاص» ويتعلق الأمر بشرف الدين عبد الوهاب بن التاج فضل الله الذى تردد ذكره كثيراً عند المقريزى فى السلوك، كما ورد ذكره أيضاً فى الخطط (ج 3 ص80) فى معرض حديثه عن المطبخ . قال : أمر القاضى شرف الدين المطبخ السلطانى فى سنة 739 فوجد عدة الدجاج الذى يذبح كل يوم للسماط سبعمائة طائر .

وقد قتل عام740عقاباً له من الملك الناصر ، وقال فى النجوم الزاهرة ج 9 ص132 : وجدت له صناديق كثيرة فيها قماش اسكندرى، مما عمل برسم الحرة جهة ملك المغرب قد اختلسه .

(2) يفترض الأستاذ كانار أنه ربما كان هو علاء الدين اقبغا صهر السلطان الناصر .Marius Canard. Les relations entre les Merinides et les Mamlouks. A.I.E.O. T.V 1939—41 P.62

(3) قطع من الحلوى الناشفة المجمرة تصبر على مدى الشهور ، والكلمة من أصل رومى ورد ذكرها علاوة على المقريزى فى الوثائق التركية بعد هذا التاريخ .

(4) متولى الجيزة يعتبر من ألصق الشخصيات بالسلطان الذى له بالجيزة عدة أملاك على ما يؤخذ من الخطط للمقريزى .

(5) ابن خلدون : التعريف ج 7 ص 1668، طبعة بيروت — د . التازى التاريخ الديلوماسى للمغرب ج 7 ص216 رقم الإيداع القانونى 1986/25 مطابع فضالة 1988=1408 .

وأبراج للإشراف على الطرقات وردهات عديدة فيها واحدة لجلوس السلطان للعرض ، وفيها تمثال مسجد بمحرابه وعمده ومئذنته ، وحوائط الخيمة كلها من خرق الكتان الموصولة بحيك الخياطة ، مفصلة على الأشكال التى يريدها المستعملون لها ... أما الخيمة الشامية الثانية فهى على شكل مستدير عالية السمك ، مخروطة الرأس ، رحبة الفناء ، وهى تظل أزيد من خمسمائة فارس . هذا إلى قطعة من الكسوة العتيقة للكعبة على ما جاء فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى الذى حج فى نفس العام(1) .

وإذا كانت هذه الوثائق بما تضمه من رسائل وأجوبة ... وما تشمل عليه من نقول وفصول تعبر فى حد ذاتها عن مظاهر حضارية أصيلة ، فاننا مع ذلك سنركز على بعض الألفاظ التى استرعت انتباهنا مما كان لها وزن فى استعمالات العالم المتمدن ... وسنكتفى بعرض بعضها معلقين بما نراه ضرورياً ، لاستجلاء أمرها كما أننا سنندرج فيها بعض الألفاظ الدخيلة (فارسية أو يونانية(2)) التى أصبحت — بحكم ممارسة العرب لها — داخلة فى المعجم العربى .

(1) فيما يتصل بالربعة :

ومعلوم أن الربعة كما أسلفنا هو الوعاء أو الظرف الذى يحفظ المصحف ، وهذه الربعة وحدها تشتمل على عدد من الألفاظ والاصطلاحات التى تدون عادة فى بابه المفردات الحضارية .

وينبغى أن نثير الانتباه أولا إلى مادة الكاغد الذى كتب عليه المصحف المهدى ... الكاغد كان وما يزال عنصراً أساسياً يعبر عن رقى الأمم ... وفى هذا الصدد أذكر أن حاضرة فاس وحدها كانت فى هذا العهد تتوفر على أربعمائة معمل للكاغد ...

وهنا أيضاً سنذكر بمهنة الوراق الذى يقوم بتذهيب الصفحات وتنميقها . . كما نذكر بالمواد التى صنع بها الصندوق : من أبنوس وعاج وصندل ، علاوة على سبائك الذهب وقطع اللؤلؤ والياقوت التى رصعت بها الربعة .. يضاف إلى كل هذا أغلفة الجلد التى كانت تحاط أيضاً بقطع من الحرير والديباج والقماش الرفيع ...

وكل هذا يقدم لنا طائفة من الألفاظ ذات الدلالات الحضارية الرائعة .

---

(1) م . المنونى • ورقات عن الحضارة المغربية فى عصر بنى مرين ، منشورات كلية الآداب الرباط 1979=1399

(2) M. Canard: Les Relations entre les Mernides et les Mamlouks. A.I.E.O. T.V. Années 1939-41 p. 41—81

(2) فيما يتصل بالأحجار الكريمة التي اهديت لبلاط مصر والتي كانت تذكرني في كتاب (الذخائر والتحف) للقاضي ابن الزبير، نجد أرفع أنواع الجواهر واللآلى والزبارج والزمرد واليواقيت بألوانها الأخضر (Jade) ، والأحمر (Ruty) ، والأزرق (Saphir) ، والأصفر (Topaz) .

(3) فيما يتصل بالثياب المهداة : سنقف على نماذج تعبر - بما تضمنه من أسماء وأشكال عما وصلت إليه الصناعة في ذلك العصر ، كما تعبر عما كان يروج من ملابس على عهد بني مرين مما أثبت بعضه المستشرق الهولاندي رينهارت دوزي في كتابه (المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب)(1) :

وبالرغم من ثراء هذه العطايا وثقلها فإننا نلاحظ أن رسالة السلطان أبي الحسن تعتذر عن التقصير بوجوده آنذاك بعيداً عن فاس التي كانت تحتضن على هذا العهد ثلاثة آلاف معمل لصناعة الحرير .

ونذكر من هذه الحريم أو الإحرام الذي يجمع على الأحارم ، نوعاً من أغطية الرأس التي تجعل فوق العمامة على نحو الطيلسان عند المشارقة .

كما كان من أنواع الألبسة المهداة البرنس الذي قد يسميه المغاربة (السلهام) بالسين والهاء وليس بالزاي والخاء كما يذكره خطأ الذي ترجموا دوزي ، والسلهام أو البرنس يكاد يكون من خصوصيات المغرب ولذلك نقرأ عن أبي الحسن اليوسي قولته التي تعطي شبه هوية للمغاربة يتميزون بها : لبس البرنس وأكل الكسكس وحلق الرؤوس .

ونجد كذلك الحياصة ، وتجمع على حوائص التي تعني نوعاً من الحزام كان يستعمل أحياناً من الفضة أو الذهب ، ويتحدث المقريزي في كتابه (وصف مصر) عن سوق الحوائصيين الذي تباع فيه الحوائص وهي التي كانت تعرف بالمنطقة في القديم .

كما نجد إلى جانب الحياصة (المضمة) التي نقل دوزي عن الدبلوماسي الدانماركي (هوست) في كتابه حول المغرب أنها المضمة من ملابس رجال البلاط بمثابة زينة .

ونجد كذلك الشاشية التي تجعل على الرأس وقد خصص لها دوزي في معجمه عن الملابس حيزاً واسعاً يرجع إليه والمهم فيه أنه يؤكد أنها تعبر عن درجة معينة في المجتمع للذي يلبسها ، وتضاف إلى كل هذا ألفاظ أخرى كالخلادي لنوع من القماش الذي تحدثنا عنه ،

---

(1) ترجمة د. أكرم فاضل - نشر وزارة الإعلام - بغداد 1971 .

والرمان كذلك لنسيج معين مستورد ، والفضالى لنوع من الثياب ، والشقق ج شقة لقطع من النسيج يحتوى على عدد من القالات ولهاذرع .

(4) ومما يتدرج فى أشكال الفراش الذى رحل إلى مصر نجد على سبيل المثال : الكلة ج كلل ، واللفظ يعنى غشاء شفافاً مخاط كالبيت وتجعل فوق الفراش يتوقى به من البعوض ، والناموس وقد يسمى « الناموسية » .

كما نجد كذلك الطنفسة أو الطنفسة (كلمة فارسية الأصل) تجمع على طنافس ، واللفظ يعنى نوعاً من البساط الذى تستعمله الطبقات الميسورة وهذه غير (الحنابل) (ج حنبل) الذى ورد ذكره ضمن الهدايا المرفوعة ... إن الحنابل تكون عادة من ألوان مختلفة ومن الطريف أن نجد النص فى لائحة المواد المهداة على أن الحنابل يوجد فيها ما هو مصنوع بزمور من أرض المغرب الأقصى ومنها ما هو مصنوع بونشريش التى توجد فى تاجين بالمغرب الأوسط ... وكأن السلطان أبا الحسن يعنى بهذا أنه متمكّن من المغربيين ...

(٥) ثم نجد كذلك ضرباً مما تغطى به عادة الجدران حتى لا تظهر للناس بجبسها وجيرها ، وهذا ما يحمل اسم (الحايطى) الذى يكون مزخرفاً مطرزاً بشتى أنواع التطريز وهو منظر يضفى على البيوت مسحة من الرفاه ، والأناقة ...

ونرى من المناسب أن نذكر تحت هذا الباب الخيام الفخمة الرائعة التى تبادل المغرب إهداءها مع مصر .

وينبغى أن نتصور هذه القصور المتنقلة التى حملتها الوفادة المغربية إلى المشرق ، والتى حملتها الوفادة المصرية إلى المغرب : الخباء الكبير الذى توجد له أبواب بعدد من الجهات الأربع : شمال وجنوب وشرق وغرب ، والذى يحتوى على مائة حجرة التى تسميها الوثائق المغربية (البنيقة) ... تسع تلك الخيمة الحاشية الملكية بوزرائها وكتابها .

ثم الخباء المغربى الثانى الذى يحتوى على ستة وثلاثين حجرة والذى كان مخصصاً ، فيما يبدو ، للسلطان وحريمه وهو يحتوى على ست وثلاثين حجرة وقد طرز من داخل بحلق مذهبة ، وكسى من خارج بالحرير الأبيض .

أما عن الفسطاطين اللذين صنعا فى الشام :

الأول : كان فعلا على تصميم قصر مربع فخم يحتوى على قاعات بقصد الاستعراض والاستقبال ، وعلاوة على الأبراج المنصوبة فيها للإشراف على ما يأتى به الطريق ، فإن هناك غرفاً للنوم طبعاً إلى جانب المطابخ ودور المياه ينبغى أن نذكر هنا أن حوائط هذا الفسطاط كلها من خرق الكتان المفصلة على الأشكال والمساحات التى يريدها المستعملون حتى لها

تبقى الحجرات صغيرة أو تشرك مع بعضهـا عند الحاجة .

أما الفسطاط الثاني : فقد كان على شكل مستدير عالي السمك رحب الفناء وهو يسع أزيد من خمسمائة فارس ...

وإن من أطرف ما حملته إلينا هذه الأخبار أن يصحب الفسطاط الأول بتمثال (ماكيط) لمسجد على تصميم مشرقي بمحرا به وسواريه ومئذنته ...

والجدير بالذكر هنا أن ظاهرة إنشاء الماكيطات أو الرسوم المجسّمة كانت شائعة على هذا العهد . . .

فقد قرأنا في كتاب المسند لابن مرزوق (ص 448) أن السلطان أبا الحسن هو الذى رسم بذات يده مساحة الدار التي سكنتها الأميرة الحفصية عزونة التي خطبها من والدها أبي يحيى .

وقرأنا أيضاً في رحلة ابن بطوطة (ج 4 ص 354) عن صنع ماكيط لجبل طارق كان يحتفظ به السلطان أبو عنان في قصره بفاس[1] ...

(5) وفيما يتصل بآلات الركوب والعدة نقف أيضاً على عدد من الألفاظ الدالة على مدى ما بلغته المدنية آنذاك في البلاطين المصري والمغربي وهكذا نجد لفظ أسلة ج سليل بمعنى الدرع الذى يحمى الفرس ... يحصن به الفرس على نحو ما يحصن الفارس بالدرع ...

ونجد إلى جانب هذا البراقع التي تخصص للخيل ، وفي هذا الصدد نجد أن البرقع يختلف من فرس إلى فرس شكلا وقيمة فهو يصل أحياناً إلى أن يكون كله من ذهب وأحياناً أخرى تتنوع مادته ...

ونجد مع الحيوانات المهداة ... أربعاً وثلاثين صقراً أو بازاً .. وينبغي أن نقف قليلا مع هذا النوع من الهدايا ...لعل بعضنا لا يعرف أن العصور الوسطى اصطلحت على أن إهداء الصقر من التعابير الدالة على أن العلاقات بين أمة وأخرى بلغت غايتها في التواصل والتكامل ... فالصقر الحر إذن سفير سلام ومحبة ... وليس هذا فقط ولكن إهداء الصقر يعبر في جهة أخرى عن مدى ما وصلت إليه دقة ورقة ورهافة حضارة الجهة التي تهديه ... فإن الصقر لا يهدى وحده كطير عار عاطل ... ولكن الصقر تصحبه جهازات وأدوات وأثاثات ... نجد في صدرها البراقع التي عبرت عنها لائحة

(1) د. التازى : التاريخ الدبلوماسى للمغرب ج 7 ص 98 .

الهدايا بالوقايات وهى تجعل على عينى الصقر أثناء تدريبه وهى تكون من جلد ومن فضة وأحياناً من الذهب الخالص ؟؟ !!

كما نجد فى تجهيزات الصقر ما يسمى بالمناقل ، أى القفاز ، الذى ينتقل عليه الصقر على يسرى مربيه الذى يحمل فى المغرب اسم البياز وفى المشرق اسم البازريار !!

هذا إلى الوكر الذى يعنى المجثم الذى يجلس عليه الصقر للراحة والنوم وهو غير المنقلة السالفة الذكر ...

هذا كذلك إلى الجلجل الذى يربط فى إحدى رجلى الطائر وهو يساعد البياز أو الصقار على التدليل على مكان صقره فى حالة ضلاله عن الطريق ! وأخيراً الخيوط التى تلازم رجل الصقر بطريقة لا تضره ولا تضيعه كذلك .

طبعاً كل الأدوات تكون من مواد تعبر عن المركز الاجتماعى للمُهدى وللمُهدَى له ...

ولا يمكن أن نتصور هدايا من هذا النوع رائحة من ملك إلى ملك دون أن تكون مصحوبة بهذه التجهيزات الدقيقة سيما ونحن نعرف عن مدى اهتمام السلطان الناصر بأمر الطيور الجوارح التى وجد منها نحو مائة وعشرين صقراً بعد وفاته على ما نقرأه فى تاريخ مصر ... تماماً على نحو اهتمامه بالخيول وأنسابها وأسمائها وأعمارها وأثمانها ...

ولم يكن هناك غير سلطان المغرب أبى الحسن يقدر مكانة هذه الهواية عند أخيه الناصر سلطان مصر ... إن أبا الحسن نفسه من الهواة الكبار للقنص بالصقر(1) ...

ومما يندرج فى هدايا العدة نذكر الدروع وخاصة منها التروس الجلدية للمطبعة المصنوعة من جلد حيوان اللمط(2) الذى لا يخترقه سهم ولا نبل ، والذى ظل حديث الكهاة والفرسان فى العصور الوسطى ...

وبالإضافة إلى السروج على اختلاف

---

(1) د. التازى : القنص بالصقر بين المشرق والمغرب ، المطبعة العصرية – الرباط 1980 ص 91–92 أبو القاسم الفجيجى : الفريد فى تقييد الشريد وتوطيد الوبيد ، تقديم وتحقيق د. عبد الهادى التازى ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء 1983 .

(2) اللمط ، كما نعلم ، حيوان يشبه الثور من حيث شكله ، ولكنه أصغر حجما وقوائمه وقرونه أكثر دقة ، ولونه يكاد يكون أبيض غير أن أظلافه سوداء فاحمة وتصنع من جلده – كما يقول ابن الوزان تروس شديدة المقاومة لا يخترقها شىء باستثناء قذيفة عن سلاح نارى ! وتباع هذه التروس بأسعار عالية جداً . وقد ورد فى كتاب البلدان لابن الفقية الهمذانى : « وأهل لمطة أصحاب الدرق ينقعونها فى اللبن حولا مجرداً فينبو عنها السيف ، وإن قطع السيف منها شيئاً نشب السيف فى الدرقة اللمطية ليس عليها قياس . »

أنواعها ما بين ثقيل وخفيف وإلى المهاميز على اختلاف أشكالها ، وزخرفها وإلى اللجم والركب واللزمات والمهندات والرايات المغربية من التى صحبت مئات المطايا والخيول. بالإضافة إلى ذلك نجد النص على أثاث البيت بما يتطلبه المطبخ والمغسل والمفرش والماعون ما يعرف فى اللغة العربية بالخرثى، هذا اللفظ الذى يعد بنفسه لفاً من ألفاظ الحضارة :

(6) وينبغى أن نقف قليلا عند الألقاب والوظائف التى مرت بنا ونحن نعيش مع هذا الحدث ...

ونذكر منها أمير المسلمين وملك البرين وسلطان العدوتين وحامى القبلتين وخادم الحرمين ...

كما نذكر لفظ الأرسال التى تستعملها بعض الوثائق السياسية جمعاً لكلمة رسول بمعنى السفير بين القوم ...

ونذكر لفظ « المتولى » و « ناظر الخاص» بمعنى المشرف على النفقات الخاصة ، وقد عرفنا من هؤلاء القاضى شرف الدين الذى يحمل لقب النشو ... والمهمندار بمعنى مدير المراسيم والتشريفات ، والقهرمان بمعنى وكيل الدخل والخرج[1] ، هذا إلى لفظ « الفرانق » وهو يعنى حامل الخرائط أى ساعى البريد ، الذى يحمل فى المغرب اسم « الرقاص » أخذاً من أصل اللفظ العربى لكلمة الرقص : قال حسان :

بزجاجة رقصت بما فى قعرها

رقص القلوص براكب مستعجل

(7) ولابد من التنصيص هنا على تلك المبالغ الهامة من الدنانير التى حملتها الوفادة المغربية إلى الديار المشرقية ... والسؤال عن طريقة صرفها فى تلك الجهات ؟

وهنا نذكر أن دنانير بنى مرين كانت نسخة طبق الأصل من الدينار المرابطى الذى طبقت شهرته الآفاق من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق ، والذى كان فى عصره عملة دولية على نحو ما نسمعه اليوم عن الدولار الأمريكى وقد دخل الدينار المرابطى القاموس اللاتينى وأصبحنا نسمع عن (AL-MARAVEDI) ...

(1) الصابى ، كتاب الوزراء — ابن خلدون : 7 ، 551 دكتور عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسوم مصر 1967 . مكتبة الأنجلو مصرية دكتور حسن الباشا : الألقاب الإسلامية من التاريخ والوثائق والآثار 1978 دار النهضة المصرية .

ذلك الدينار المرابطي هو الذى احتفظ به المغرب أيام بنى مرين ، وقد قرأنا فى كتب التاريخ المغربى الأندلسى عن إعانة السلطان أبى يوسف يعقوب (ت 684=1285) للعاهل الإسبانى بمبلغ مهم من الدينار « المرابطى » ...

وهكذا فإن الدنانير سواء منها الذهبية أو الفضية كانت تحمل معها قيمتها أينما توجهت ، وقد ضربت على أساس سليم ودقيق صدر به الأمر فى جميع دور السكة الموجودة آنذاك فى القواعد المغربية الكبرى : فاس ، سبتة ، مراكش وسجلماسة(1) ...

(8) أما عن عدد الشخصيات المغربية التى رافقت الأميرة مريم ... فإنه يفوق العد ، وإنه ما يزال علينا أن نعرف عن المزيد ممن لم نقف لهم على ذكر إلى الآن وأعتقد أن هؤلاء كثير وكثير فقد دأبت العادة فى مثل هذه المناسبات أن لايذكر جميع المرافقين لأسبابه أمنية ولأغراض يقتضيها عدم إثارة الحساسيات أو الرغبة فى التستر على بعض ذوات الحجاب.

ومع ذلك فسنذكر ما وصلنا من أسماء هؤلاء مرتبة حسبما مبلغ الأغلفة التى توصلوا بها ولو أننا نعرفه سلفاً عن الرصيد العلمى لبعض من زحلقتهم تلك المبالغ عن رتبهم ممن استحقوا عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن يقدموا على غيرهم فى الخطاب الذى بعث به للسلطان أبى الحسن المرينى :

وهكذا يأتى الترتيب بعد ذكر الأميرة هكذا :

(1) عريف السويدى(1000 دينار) :

ﻧﺔ أبو زيان عريف بن يحيى بن عثمان السويدى أمير بنى زغبة من عرب بنى هلال كان قد قدم على السلطان أبى سعيد والد السلطان أبى الحسن فأحله أعلى رتبة واتخذه جليساً وأنيساً ، ولما جلس أبو الحسن على كرسى الحكم عينه حاجباً له ومن خواصه وأهل سفارته ، سفر عنه إلى المشرق فى هذا الركب ثم سفر عنه لتونس عام 746 = 1345 — 46 فى خطبة بنت الملك الحفصى أبى يحيى السلطان أبى الحسن نفسه ... كان وافر العقل مشاركاً فى العلم والأدب والتاريخ ، توفى بمدينة سلا ودفن إلى جانب السلطان أبى الحسن بشالة عام 755=1354

(2) أبو محمد عبد الله بن القاسم المزوار ، المدعو (عبو) (400 دينار) .

(3) الحسن ابن عمران ، المدعو حسون (400 دينار)

---

(1)أبو الحسن على بن يوسف الحكيم الكومى المديونى · الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة اقتضب من الروضة الغضة فى معركة أحكام الذهب والفضة .

(4) أحمد بن يوسف بن أبي محمد بن صالح

نعت في ابن مرزوق بشيخ الركب ولم يتذكر المبلغ الذي دفع له .. فافترضت أنه كأمير الركب ...

(5) إبراهيم التازي (300 دينار) :

أبو إسحاق إبراهيم بن أبي زيد عبدالرحمن ابن أبي بكر بن أبي يحيى التسولي التازي ثم الفاسي ويكنى أيضاً أبا سالم ويعرف بابن أبي يحيى ، الفقيه القاضي من صدور المغرب ، له مشاركة في العلم وتبحر في الفقه ، وله مركز مرموق عند الملوك ، صحبهم وحضر مجالسهم واستعملوه في السفارة عنهم للاندلس وبلاد المشرق ... كان مليح المجالسة أنيق المحاضرة ، جميل الصورة ، نبيه الشارة ، فاره المركب ، قائم على تدريس التهذيب والرسالة القيروانية وتقييده عليها ... مرض بفاس ونقل إلى داره من تازي بلده فتوفي بها في حدود 749=1348 .

(6) عطية بن مهلهل بن يحيى (300) .

(7) سليمان بن أبي بكر العسكري (150).

(8) أبو سعيد عثمان بن سليمان من أولاد حمامة (150) .

(9) أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سيد الناس (100 دينار)(1) .

(10) يوسف ابن عبلة المدعو يشو (60 دينار) .

(11) عبد الرحمن بن القاضي المليلي (50 ديناراً) .

(12) ابن خميلة (50 ديناراً)

(13) أبو الفضل أو أبو المجد بن أبي عبد الله محمد بن أبي مدين العثماني وسماه ابن خلدون صاحب ديوان الخراج وكاتب الجباية والعساكر ... ووصفه في نكبه الجمال لصاحب القلم الأعلى ... كتب العلامة للسلطان أبي الحسن ... سفر لدى هذا السلطان الناصر هذه المرة ومرة أخرى لدى ابنه السلطان أبي الفداء إسماعيل عام 745 كما سفر عنه لتونس عام 745 مع عريف السويدي لخطبة الأميرة الحفصية للسلطان أبي الحسن .. ولم يذكره ابن مرزوق — كما أسلفنا — فلم نعرف مبلغ الغلاف الذي تسلمه والذي يظهر أنه كان غلافاً ثقيلا ! كذلك!

* * *

وهكذا فنحن أمام زهاء مائة وخمسة عشر لفظاً حضارياً أمكن تقصيها في هذه المجموعة

---

(1) يعرف عن ابن سيد الناس أنه راح في محنة لطرابلس عام 755 هـ من لدن السلطان أبي عنان .
Canard. : Relations P : 61

المحدودة من الوثائق التى تتعلق بسفارة واحدة وردت من المغرب على المشرق نذكرها مرتبة على حسب الحروف الهجائية :

الأبنوس
الإحرام ج أحارم
الأديم
الأردب
أمير المسلمين
إصطبل
إيوان ج أواوين
الباز ج بزاة
برج ج أبراج
برنس ج برانس
برقع ج براقع
بنيقة ج بنائق
البشماط
البازيار — البياز
التجفاف : الدرع
الترس ج تروس
تمثال ج تماثيل
التوابل
الجلجل
جهاز ج جهازات
جوهر ج جواهر

حامى القبلتين :
الحايطى ج حياطى
الحباك ج حبك
الحبحبة
حبس — وقف
الحرة .
الحرير
الحنبل
الحياصة : الحزام
خادم الحرمين
الخرثى .
الخلدى ج خلادى
الخلعة ج خلع
الخيمة .
الدرع
الدرق
الدرهم
الديباج
الدينار (المرابطى)
الراية ج رايات .
الربعة ج ربعات .
الردهة .
الركاب ج ركب ...

الرصان : نوع من القماش
الرقاص : ساعي البريد
رسول ج أرسال
زاد ج أزودة
زبرجد ج زبارج
زمرد
طنفسة ج طنافس
الضوئية
الضياع ج ضيعة .
العاج
العرض — استعرض
العلم ج أعلام
غلاف ج أغلفة
غشاء ج أغشية
الفرانق
القدود
القطار
قضيب ج قضب
قفاز
قهرمان ج قهارمة
الكاغد
الكبر ج أكبار : ذروة

الكتان
الكلة ج كلل
كساء — كسوة
الفانوس ج فانوسات
فرّق : وزع
فروش الجلد .
الفضالى : نوع من الثياب .
الفسطاط ج فساطيط .
اللجام ج لجم
اللحاف ج لحف .
اللازمة ج لزمات
اللؤلؤ
المتزيدات
المتولى
المجثم
المحررات
المحمل
المخفف .
المخدة ج مخاد
المزوار : النقيب .
ملكة البرين
الملف (الجوخ) :
المنقلة ج مناقل .

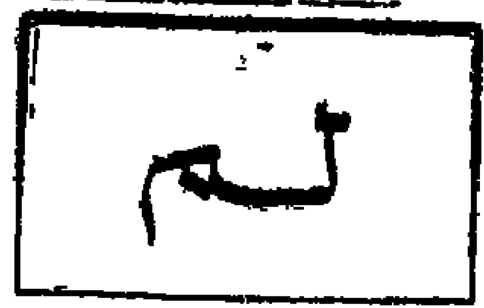
المضمة	سرج ج سروج
المشرف	سلطان العدوتين
المشفف	السقاء ج سقائين
المهماز ج مهاميز	سلهام : (ZULAM)
المهندات	سليل ج أسلة
المهمندار	شاشية ج شواشى
الميدان	الشريط ج شرائط
ناظر الخاص	الشقة ج شقق
الناموسية	الوراق ج وراقين
نهود الدرع ...	الوكر
الصندل	الوصيف : الخادم .
الصقر	الوقايات : البراقع .
الصوان ج أصونة	الياقوت

إنى على مثل اليقين من أن تتبع مثل هذه الوثائق الدبلوماسية من شأنه أن يعرفنا على المزيد من الكلمات التى ابتكرتها عبقرية أسلافنا والتى لم تقتصر فائدتها على المعجم العربى فحسب ولكنها تعدت ذلك إلى إثراء المعاجم الأوربية بطائفة من المفردات التى تستعمل اليوم على الصعيد السياسى وفى المجال العلمى كذلك .

عبد الهادى التازى
عضو المجمع المراسل من المغرب

مدخل إلى الألفاظ الإسبانية المأخوذة من العربية

للدكتور محمود مكي



لم تنقطع الصلات أبداً بين شبه جزيرة إيبريا (إسبانيا والبرتغال الآن) وبين الشعوب الأفريقية والأسيوية ، فقد تعرضت هذه البلاد لهجرات كثيرة قادمة من بلاد الشرق ومن شمال أفريقية على نحو مستمر منذ فجر التاريخ. ولعل أهم هذه الهجرات في العصور القديمة هي تلك التي مثلها التوسع الفينيقي في نحو سنة ١٠٠٠ (ق . م .) ، فقد امتد هذا التوسع من سواحل بلاد الشام على طول الشمال الإفريقي حيث أقام الفينيقيون العديد من المراكز التجارية ، ثم واصلوا امتدادهم إلى سواحل إسبانيا الجنوبية ، فأنشأوا مدناً كان لها إزهار عظيم استمر حتى اليوم عبر الحضارات المتعاقبة . على أن التأثير اللغوي الفينيقي لا يكاد يلحظ اليوم إلا في أسماء بعض المدن التي قاموا بإنشائها ، ونذكر من بينها قادس Cádiz (وكان اسمها القديم Gadir – من الأصل السامي ق د ر لأن معناها المدينة القادرة أو القوية المحصنة ») ومدينة مالقة Málaga (وكان اسمها Malaca – من الأصل السامي م ل ك لأنها كانت تعني « المدينة الملكية » ، ولهذا فقد ترجم الرومان هذا الاسم ترجمة حرفية حينما أطلقوا عليها لفظ Reggio المشتق من Rex أي الملك) .

واستمرت حضارة الفينيقيين على أرض شبه الجزيرة أكثر من أربعة قرون ، فلما ضعف أمرهم وفدت على شبه الجزيرة موجة قادمة من بلاد الشرق أيضاً ، ولكنها أتت من بلاد الإغريق . ثم عادت تطرق أبواب البلاد هجرة جديدة ذات أصول سامية وإن كان منطلقها من شمال أفريقيا ، ونعني بها القرطاجيين القادمين من إفريقية (تونس) ، والقرطاجيون هم من سلالة الفينيقيين ، وقد اعتبروا أنفسهم

* ألقي في الجلسة الثانية عشرة يوم الأحد ٤ من شعبان سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ١٢ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م .

ورثة هؤلاء منذ سقطت حاضرة دولتهم صور في أيدي الأشوريين ، واستطاعوا الاستيلاء على جزيرة سردانية ثم على جزر البليار منذ أواخر القرن السادس (ق . م .) ومنها نفذوا إلى أرض شبه الجزيرة ومدوا سلطانهم على شرقي البلاد وجنوبها ، وظلوا يحكمون هذه المناطق حتى نهاية ما يعرف باسم « الحروب البونية » في منتصف القرن الثاني الميلادي ، وهذه هي المرحلة الثانية من مراحل الوجود السامي الإفريقي في شبه الجزيرة . على أن القرطاجيين لم يخلفوا في لغة البلاد آثاراً واضحة ، إذ أن الرومان الذين سيطروا على البلاد بعد ذلك محوا آثارهم محوا ، واستطاعوا أن ينشروا فيها لغتهم اللاتينية منذ احتلالهم لها حتى انحلال امبراطوريتهم في أوائل القرن الخامس الميلادي . أما القوطيون الذين كانوا ينحدرون من أصول جرمانية وسيطروا على شبه الجزيرة حتى أوائل القرن الثامن فإنهم بدورهم لم يتركوا في لغة رعاياهم إلا آثاراً قليلة جداً .

وأخيراً دخل العرب أرض شبه الجزيرة رافعين راية الإسلام في سنة ٩٢ هـ (٧١١م) . واستمر وجودهم في البلاد ممثلا في كيان سياسي حتى سنة ٨٩٧ هـ . (١٤٩٢ م .) . ونلاحظ أن هذا « الوجود » لم ينقطع باستيلاء الملكين الكاثوليكيين على دولة بني الأحمر في غرناطة آخر معاقل الإسلام في البلاد ، بل ظل الشعب الأندلسي المسلم الذي خضع للسلطة المسيحية يعيش في كل أنحاء شبه الجزيرة متخذاً في البداية اسم « المدجنين Mudéjares » ثم اسم « الموريسكيين Moriscos » إلى أن صدرت مراسيم طرد هؤلاء المسلمين بين سنتي ١٦٠٩ و ١٦١٤ . ومع هذه المراسيم قامت محاكم التحقيق La Inquisicion التي أنشأتها السلطات الكنسية بأبشع أعمالها الهادفة إلى محو كل أثر للثقافة الإسلامية واللغة العربية . فضلا عن التعذيب والاضطهاد لكل من يرتاب في كونه محتفظاً بعقيدته كانت هناك قوانين تحرم استعمال العربية وتنص على إحراق ما ألف بها من كتب . ومع ذلك فقد كانت اللغة العربية قد نفذت إلى صميم كيان اللغة الإسبانية على طول القرون السابقة ، وأصبح كثير من الكلمات والتعابير العربية جزءاً من تراث الإسبانية حتى اليوم .

ويختلف العلماء الذين بحثوا هذا الموضوع في نسبة الكلمات العربية إلى مجموع مداخل المعجم الإسباني ، فمنهم المقلل والمكثر ، إذ أن هناك من يزعم أن هذه النسبة لا تتجاوز الـ ٥ ٪ وهناك من يرتفع بها إلى نحو ٢٠ ٪ وترجع أسباب هذا الاختلاف إلى عدة عوامل :

١ — هناك من يقتصر على اللفظ الإسباني المأخوذ من أصل عربي بغير أن يلحق به مشتقاته المختلفة وهناك من يضيف هذه المشتقات إلى الأصل .

٢ — هناك من يدرج جميع الألفاظ حتى ما قل استعماله أو سقط ، هناك من يقتصر على المستعمل الشائع .

٣ – هناك ألفاظ كثيرة مختلف في أصولها الاشتقاقية ، إذ أن الرأى الأخير لم يستقر حول تلك الأصول .

٤ – من اللغويين من يستبعد الألفاظ التى يعد أصولها إغريقية أوفارسية أو تركية أو بربرية ، ومنهم من يرى أن هذه الألفاظ إنما دخلت عن طريق العربية ،فينبغى أن تدرج فى الألفاظ العربية الأصول .

والذى يعترف به الجميع على كل حال هو أن اللغة العربية هى التى تلى اللاتينية فى إمدادها اللغة الإسبانية بثروتها من الألفاظ ، ذلك أن الذى أخذته هذه اللغة من اللغات القديمة المختلفة أو اللغات الحديثة لايقاس فى مجموعه إلى ما أخذته من العربية . ويعد ذلك أمراً طبيعياً إذا ذكرنا أن العرب الذين دخلوا إسبانيا لم يلبثوا أن شيدوا بنيا آحضاريا استمدوا أصوله من مصادر شرقية إسلامية عربية وكان شيئاً جديداً يبهر أنظار الناس فى القارة الأوربية كلها . وكان من أول من تنبه لهذه الحقيقة فى أوربا القس اليسوعى الإسبانى خوان أندريس فى كتابه عن أصول الآداب الأوربية (المنشور أولا بالإيطالية بين سنتى ١٧٨٢ و ١٧٩٨ ثم بالإسبانية بين ١٧٨٤ و ١٨٠٦) حينما قال إن شعوب أوربا المسيحية رأت فى الأندلس شعباً ذا حضارة أرقى بكثير مما لديهم ، حيث كان رجال الكنيسة فى بلاد أوربا – وهم قمة ما لديها من «ثقافة» – لايكادون يعرفون أكثر من مبادئ القراءة والكتابة والحساب على حين كان العالم العربى – بما فيه الأندلس – يحفل بالعلماء من كل نوع . (انظر خطاب المستشرق الإسبانى أنخل جونثالث بالنثيا Angel Gonzàlez Palencia فى حفل استقباله فى المجمع الملكى التاريخى ، مدريد ١٩٣١ ص ٨ –٩) . وكان من الطبيعى أن يصبح أولئك الأوربيون تلاميذ لمسلمى إسبانيا ، وما كان ذلك ليتم إلا إذا تعلموا العربية واستخدموا ألفاظها التى أصبحت ضرورة من ضرورات الحضارة . وليس من الغريب أن يصبح مسيحيو إسبانيا هم أسبق الأوربيين إلى ذلك بحكم المعايشة الطويلة للمسلمين .

ولعل من أهم ما تتمثل فيه هذه الحقيقة ذلك اللقب الذى حمله أولئك الإسبان المسيحيون وهو « المستعربون » (Mozàrabes) ، إذ أنه يصور اصطناع هذه الطائفة لثقافة العرب ولغتهم وكل مظاهر حضارتهم . ولسنا بحاجة إلى إيراد تلك العبارة المشهورة التى قالها ألبارو القرطبى Alvaro de Córdoba أحد كبار رجال الدين المسيحى والتى يشكو فيها من أن نصارى إسبانيا قد هجروا اللاتينية وأصبحوا مغرمين بالعربية حتى إن أحدهم لم يعد قادراً على كتابة خطاب لأخيه باللاتينية على حين أنه قد يجيد الكتابة بالعربية نثراً وشعراً . وربما كان خير دليل يؤكد هذه الحقيقة هو تلك المجموعة الكبيرة من الوثائق الطليطلية التى نشرها أنخل جونثالث بالنثيا فى سنة ١٩٣٠ ، وتبلغ ١١٧٥ وثيقة كتبت كلها بالعربية

وكانت تتناول موضوعات مختلفة متعلقة بالمعاملات الجارية بين المستعربين المسيحيين بعضهم وبعض أو بينهم وبين مساكنيهم من المسلمين واليهود . وتواريخ هذه الوثائق تتراوح بين سنتى ١٠٨٣ و ١٣٩١ م . ومما يلفت النظر أن الملك المسيحى ألفونسو السادس Alfonso V1 قد انتزع طليطلة من أيدى المسلمين فى سنة ٤٧٨ هـ . (١٠٨٥ م .) وبهذا فقد المسلمون سلطانهم على المدينة ، ومع ذلك فقد استمر سكانها المسيحيون يستخدمون العربية فى معاملاتهم على مدى أكثر من ثلاثة قرون . وهذا وحده دليل على قوة تأثير الحضارة العربية فى هذا الشعب الذى لم يرغمه أحد على استخدام العربية ، وإنما كانت حاجته إلى هذه اللغة لشعوره بأنها أكثر وفاء بمطالبه من اللاتينية هى التى حملته على ذلك .

وقد حاول بعض الباحثين الإسبان المحدثين ممن استولت عليهم خنزوانة التعصب القومى والدينى أن يشكك فى هذه الحقيقة . وكان من أبرز هؤلاء فرانسسكو خافيير سيمونيت الذى تعرض لتلك القضية فى كتابه عن « الألفاظ الإيبيرية والرومانية المستعملة بين المستعربين » (مدريد ١٨٨٨) وذلك فى قوله : إنه إذا كان صحيحاً أن هؤلاء المستعربين قد أخذوا عن العربية « بعض الألفاظ » فإن المسلمين الأندلسيين قد أخذوا أيضاً كثيراً من الألفاظ اللاتينية عن جيرانهم ومعايشيهم من المسيحيين ، واستشهد على ذلك بما اشتملت عليه الكتب الأندلسية من إشارات إلى معرفة مسلمى الأندلس للاتينية أو اللاتينية الدارجة (لطينية أو عجمية الأندلس) (انظر مقدمة الكتاب ص ٧٩ وما بعدها) . وهذه حقيقة أكدتها المصادر الأندلسية حقاً ، ويصورها استخدام كثير من تلك الألفاظ فى ديوان الزجال ابن قزمان القرطبى وفى الخرجات العجمية للموشحات الأندلسية . غير أن هذا لاينبغى أن يعد مطعناً على الأندلسيين الذين كانوا — شأن المسلمين فى سائر الأمصار — لايحتقرون أى مصدر من مصادر المعرفة ، ولهذا فإن ثقافتهم استوعبت كل الثقافات السابقة ، كما أن لغتهم عربت محصولا وافراً من ألفاظ اللغات التى احتكوا بها . ذلك أن العربية كانت من المرونة بحيث لم تبرح أبداً آخذة معطية ، وهذه سمة من سمات اللغات الحية التى تستجيب لحاجات كل مجتمع متطور . على أن الذى أخذته العربية من اللاتينية لايقاس بما أخذته الإسبانية منها لا فى العدد ولا فى أهمية الدلالة الحضارية :

عرض تاريخى للدراسات اللغوية التى تناولت التأثير العربى فى الأسبانية :

ربما كان أول ما سجله المستعربون المسيحيون من مظاهر حاجتهم إلى اللغة العربية هو ظهور أول معجم لاتينى عربى كتبه

مؤلف مجهول ينتهى إلى تلك الطائفة خلال القرن العاشر الميلادى ، وهو المعجم الذى نشره فريدريك زايبولد فى برلين سنة ١٩٠٠ عن مخطوطة فى ليدن) :

Glossarium latino-arabicum, edidit Ch. F. Seybold, Berolini, 1900.

وربما كان هذا هو أول معجم مشترك بين العربية وإحدى اللغات الأجنبية .

وفى القرن الثالث عشر الميلادى وضع المستشرق القطلانى الراهب رايموندومرتين كتابه « المعجم العربى » الذى اضطلع بنشره المستشرق الإيطالى إسكياباريللى فى فلورنسا سنة ١٨٧١ :

Raimundo Martin: Vocabuliata in arabico, ed. C. Schiaparelli, Firenze, 1871

ثم تلاه فى القرن الخامس عشر الراهب بطرس القلعى (أو بدرو دى ألكلا) Pedro de Alcalà الذى ألف فى سنة ١٥٠٥ معجمه المعروف باسم Vocabulista arauigo وهو معجم على جانب كبير من الأهمية ، إذ أنه يعد وثيقة تسجل لنا اللهجة العربية الغرناطية فى آخر عصور الإسلام فى الأندلس ، فضلا عن كونه يمثل اللغة القشتالية القديمة وما أخذته عن العربية . وقد أعيد نشر هذا الكتاب فى جوتنجن سنة ١٨٨٣ بعناية المستشرق الإنجليزى وليم رايت :

William Wright : Petri Hispani di lingua arabica, libri duo P.de Lagardi, Gottingae, 1883.

ولدينا من الآثار الإسبانية المتعلقة بموضوع الألفاظ العربية التى اقترضتها اللغة الإسبانية من العربية عدة كتب ذات أهمية بالغة .

أولها كتاب برناردو ألديريتى حول أصل اللغة الإسبانية :

Bernardo Alderete : Del origen de la lengua castellana o romance que hoy se habla en España, 1606.

وثانيها كتاب سباستيان دى كوباروبياس « كنز اللغة القشتالية » :

Sebastiàn de Covarrubias y Orozco : Tesoro de la lengua castellana, Madrid, 1611.

وثالثها كتاب برناردينو جونثالث . وكان راهباً درس العربية فى بلاد الشرق وأقام زمناً فى دمشق ، وكتابه هذا معجم عربى إسبانى انتهى من تأليفه فى سنة ١٧٠٩ :

Bernardino Gonzàlez : Diccionario àrabe-español

على أن هذا الكتاب لايزال مخطوطاً بعد لم يجد سبيله إلى النشر ، ويوجد أصله اليوم فى خزانة دير الإسكوريال .

وفى القرن الثامن عشر قام الراهب الفرنسسكانى فرانسسكوكانيس بنشر معجمه الإسبانى اللاتينى العربى (مدريد ١٧٨٧) ؛ وكان هذا الراهب قد قضى — مثل سابقه —

ستة عشر عاماً فى بلاد الشام وأتقن العربية فى دمشق :

Francisco Canes : Diccionario español-latino-arábico, Madrid, 1787.

وبعد ذلك بسنوات نلتقى بشخصية خوسيه أنتونيو بانكيرى الذى كان من أجل أعماله نشره وترجمته الإسبانية لكتاب « الفلاحة » لأبى زكريا يحيى بن العوام الإشبيلى (وهو مؤلف عاش فى القرن السادس الهجرى - الثانى عشر الميلادى) .

José Antonio Banqueri:Libro de Agricultura de Ibn al-Awwám, 2 vols., Madrid, 1802.

وهو كتاب له أهمية كبيرة من وجهة النظر اللغوية ، إذ أنه يحتوى على عدد كبير من المصطلحات والألفاظ المتعلقة بالفلاحة مما انتقل من العربية إلى الإسبانية . ولبانكيرى كذلك دراسة لاتزال مخطوطة فى المجمع التاريخى الملكى بمدريد حول تصحيح كثير من الأخطاء الشائعة بين الباحثين فى اشتقاق أسماء الأعلام الجغرافية الإسبانية ذات الأصول العربية :

Discurso sobre la arbitraricdad de la mayor parte de etimologías de nombres aràbigos de pueblos, vol. X.

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يتزايد الاهتمام بهذا الموضوع ، فنجد مجموعة طيبة من الدراسات التى يتمثل فيها التقدم العلمى الكبير الذى أحرزته الدراسات اللغوية المقارنة . نذكر من أهمها كتاب العالم الهولندى إنجلمان حول « معجم الألفاظ الإسبانية والبرتغالية المأخوذة عن العربية » (ليدن ١٨٦١) . ومن هذا الكتاب صدرت طبعة ثانية مزيدة ومنقحة فى سنة ١٨٦٩ باشتراك العالم الهولندى أيضاً راينهارت دوزى :

A. M. Reinhardt Dozy et W. H. Engelmann : Glossaire des mots espagnols et portugais derivés de l'arabe, Leyde, 1869, seconde edition.

ولعل هذا الكتاب هو خير دراسة ظهرت حتى الآن للموضوع ، وإن كانت تحتاج إلى كثير من المراجعة والتهذيب والإضافة والحذف وقد استفاد منها وأضاف إليها دوزى نفسه فى كتابه القيم « تكملة المعاجم العربية » الذى صدرت طبعته الثانية سنة ١٩٢٧ فى مجلدين :

R. Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes, 2 vols., Leyde, 1881; seconde éd. 1927.

وقد قام بترجمة المجلد الأول من هذه « التكملة » الباحث العراقى المغمور له الدكتور محمد سليم النعيمى ، وصدرت ترجمته فى خمسة مجلدات فى بغداد ما بين سنتى ١٩٧٨و١٩٨٢

وبعد ذلك بسنوات قليلة أصدر المستشرق الإسبانى ليوبولدو إجيلاث يانجواس كتابه « معجم اشتقاقى للألفاظ الإسبانية ذات الأصول الشرقية » :

Leopoldo Eguilaz y Yanguas : Glosario etimológico de las palabras españolas de origen oriental, Madrid, 1886.

وفى هذا الكتاب يحاول المؤلف من منطلق قومى ودينى شديد التعصب أن يفند آراء دوزى وإنجلمان حول ما أكده من تفوق حضارة العرب الأندلسيين على حضارة إسبانيا المسيحية ويشاطره فى هذا الرأى زميله وصديقه فرانسسكو خافيير سيمونيت الذى ألف كتابين لهما قيمة كبيرة لما حشد فيهما من معلومات ووثائق كثيرة جديدة ، وإن كانت آراؤه منبعثة من عصبية ذميمة كارهة أشد الكراهة للعرب والمسلمين . أما هذان الكتابان فهما : « معجم الألفاظ الإيبيرية واللاتينية المستخدمة بين المستعربين » .

Francisco Javier Simonet : Glosario de voces ibéricas y latinas usadas entre los mozárabes, Madrid, 1888.

ثم كتابه عن تاريخ المستعربين فى إسبانيا :

F.J. Simonet : Historia de los mozárabes de España, Madrid, 1897 - 1903.

ويسبب تلك العصبية جانب الصواب كثيراً من آراء هذين العالمين الإسبانيين .

ونشير بعد ذلك إلى دراسة العالم الإسبانى رامون منندث بيدال حول « أصول اللغة الإسبانية » الذى ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٠٦ ثم توالت طبعاته مع مراجعات وزيادات حتى الطبعة الثالثة الصادرة سنة ١٩٥٠ ، وهو وإن كان يسلم بتأثير العربية الكبير فى الإسبانية فإنه لم يسلم من شوائب ذلك التعصب الذى ميز عمل سلفيه : يانجواس وسيمونيت :

Ramón Menéndez Pidal : Origenes del español, 3a ed., Madrid, 1950.

وفى سنة ١٩٣٢ أصدر المستشرق السويسرى أرنالد شتايجر دراسة عظيمة القيمة حول « صوتيات اللغة الأندلسية (الإسبانية العربية) ومظاهر التأثير العربى فى اللغة الإيبيرية الرومانية وفى اللغة الصقلية » :

Arnald Steiger : Contribución a la fonética del hispano árabe y de los arabismos en el iberc- románico y el siciliano, Madrid, 1932.

وهى دراسة صوتية فى المقام الأول قام بها عالم محقق واسع المعرفة مستقيم المنهج .

وقد تعددت بعد ذلك الدراسات الجزئية التى قام بها جيل جديد من علماء اللغة الأوربيين والإسبان بصفة خاصة حول ظواهر لغوية مختلفة مما يدخل فى ميدان التأثير العربى فى اللغة الإسبانية ، والملاحظ هو أن هؤلاء العلماء قد بعدوا كثيراً عن نزعات التعصب التى سادت دراسات الباحثين السابقة خلال القرن التاسع عشر وشطر من القرن العشرين . وتمثل هذه الدراسات الحديثة التى تمت خلال السنوات الثلاثين الماضية تقدما هائلا فى هذا الميدان ، لاسيما بعد أن نشرت نصوص ووثائق أندلسية كثيرة لم تكن فى متناول الباحثين السابقين . ويكفى أن نشير هنا إلى

عالم إسبانى معاصر يعد الآن – وهو لم يجاوز بعد طور الشباب – أعظم من يعملون فى الميدان اللغوى الإسبانى العربى ، ونعنى به فيديريكو كورينتى كوردوبا الذى قدم للمكتبة اللغوية عدداً هائلا من الدراسات المختلفة كان من آخرها كتابه المؤلف بالإنجليزية « دراسة تخطيطية نحوية لمجموعة اللهجات الإسبانية العربية » :

Federico Corriente Córdoba : A Grammatical Sketch of the Spanish Arabic Dialect Bundle, Madrid, 1977.

وقد استطاع هذا المؤلف فى عديد من أبحاثه ومقالاته أن يستدرك أشياء كثيرة على المعجم الاشتقاقى الذى أصدره المجمع الملكى للغة الإسبانية فيما يتعلق بالأصول العربية لعدد من الألفاظ الإسبانية .

ملاحظات حول الألفاظ الاسبانية ذات الأصول العربيـة

١ – فى المجالات الدلالية :

لايكاد يخلو مجال دلالى من التأثير الواضح للغة العربية . وسنشير هنا فى إيجاز إلى بعض هذه المجالات التى يبرز فيها هذا التأثير ؛ :

فى مجال الحروب والمعارك وأدوات الحروب :

الصائفة aceifa (الحملة الصيفية التى كان المسلمون يجردونها على الإمارات المسيحية المجاورة) ، الغارة algara ؛ الدليل adalid (الذى يرافق الحملات ليكون دليلا للجيش على آمن الدروب والمسالك) ؛ الطلائع atalaya (مقدمة الجيش) ؛ zaga ساقة (مؤخرة الجيش) ؛ الخنجر alfanje ؛ الدرقة adarga ؛ الجعبة aljaba (كنانة السهام) ؛ المغفر almôfar (الخوذة التى تحمى رأس المحارب) ؛ القصبة alcazaba (أكثر أجزاء المدينة أو القلعة حصانة) ؛ القلعة alcalà ؛ الدرب adarve (من معانيه الشعب فى الجبل ، والساتر الذى يحتمى به رماة السهام من أعلى القلعة) ؛ الرباط rebato (المواقع المحصنة التى يقيم فيها المجاهدون للعبادة وقتال الأعداء فى الوقت نفسه) ؛ الطنبور atambor (الطبل الكبير الذى يستخدمه الجيش فى زحفه) ؛ الطبـــل atabal ؛ النفــير añafil ؛ البوق albogue ؛ الفارس : alférez ؛ زناتى jinete (الفارس المجيد لفنون الفروسية تشبيهاً له بفرسان زناتة : القبيلة البربرية المشهورة) ؛ الشكات acicate (المهماز الذى يؤخز به الفرس لحمله على الإسراع) ؛ الفـــرس alfaraz ؛ الزاملة acémila (البغل أو الدابة التى تحمل أثقال المحاربين أو أزوادهم) ؛ جهاز jaéz (ما يوضع على أعناق الخيل وظهورها من حلية وزينة) ؛ البرذعة albarda ؛ شكيمة jàquima (الحديدة التى تجعل فى حنك الفرس) ؛ الثفر ataharre (السير الذى فى مؤخر السرج ويشد تحت ذنب الدابة) .

في مجال الفلاحة والزراعة :

كان مسلمو الأندلس على جانب عظيم من المهارة والخبرة بكل ما يتصل بالنشاط الزراعي من ري وفلاحة واستنبات لأنواع مولدة من الغروس والثمار ، وتشهد بذلك الألفاظ المتعلقة بالمياه والري مما دخل إلى الإسبانية مثل : الساقية acequia ؛ الجب (البئر) ؛ algibe البركة alberca ، البحيرة albufera ؛ السد azud ؛ ناعورة noria ؛ القادوس arcaduz ؛ والألفاظ الخاصة بالمجتمعات الزراعية والريف مثل القرية aldea ؛ الضيعة alqueria ؛ المنية almunia (البستان أو المزرعة) ؛ المرج almarcha ؛ البقاع vega (المواضع ذات الماء والشجر) ؛ والألفاظ المتعلقة بالخضراوات والبقول والثمار مثل : اللوبيا alubia ؛ الخرشوف alcachofa ، السلق acelga ؛ الحلبة alholva ؛ الزعفران azafràn ؛ الإسفنارية zanahoria (الجزر) ؛ باذنجان berenjena ؛ الخروب algarroba ؛ الجلجلان ajonjoli (السمسم) ؛ الزيتون aceituna ؛ الزبيب acebibe ؛ البرقوق albaricoque الدراقن durazno (الخوخ) ، الفرساك albercohigo (نوع من الخوخ) ؛ zafari سفري (نوع من الرمان ينسب إلى مدخله في الأندلس : سفر بن عبيد الكلاعي) ؛ الفقوس alficoz ؛ الفستق alfostigo ؛ الحنّاء alheña ؛ الترمس altramuz ؛ الرز arroz ؛ زنجبيل gengibre ؛ القطن algodon ؛ والألفاظ الخاصة بالأزهار مثل الريحان arrayàn ؛ الزهر azahar (وتطلق خاصة على أزهار البرتقال) الدفلى adelfa ؛ السوسن azucena ؛ الخيري alheli ؛ ياسمين jazmin ؛ الخزامى alhucema ، الحبق albahaca وما يتعلق بالشجر وأنواع النبات مثل الأرز alerce ؛ والزنبوج acebuche (وهو الزيتون البري) ؛ الكافور alcànfor

في مجال العمل والصناعة والتجارة :

طريحة tarea ؛ طراز tiraz ؛ الترصيع ataracea ؛ التوشية ataujia ؛ التوريق ataurique ؛ دار الصناعة atarazana ، الخياط alfayate رقم recamar ؛ الفخار alfarero ؛ البناء albañil ؛ الجوهر aljofar الأقراط arracadas ؛ عظم الفيل marfil (العاج) ؛ بركان barragàn (نوع من الصوف لاينفذ منه الماء) ؛ سوق zoco ؛ الأسعار arancel : تعريفة tarifa ؛ الديوان aduana (مصلحة الجمارك) ؛ المخزن almacén (المتجر) ؛ الكراء alquiler ؛ المناداة almoneda (يقصد به البيع بالمزاد العلني) ؛ ركوبة recua (قافلة الدواب التي تحمل عليها أثقال التجار وبضائعهم) ؛ الحمال alhamel .

في مجال سك النقود والأوزان والمكاييل والمقاييس :

سكة ceca (دار ضرب النقود) ؛ مرابطي maravedi (عملة كانت من ضرب أمراء المرابطين) ؛ قنطار quintal ؛ الربع arroba ؛ الثمن azumbre ؛ الرطل arrelde ؛ مثقال m tical ؛ الدرهم adarme ؛ فرسخ parasanga ؛ فنيق fanega ؛ المد almud ؛ قفيز cahiz ؛ الخرج alforja .

في مجال النظم والوظائف والحرف :

القاضي alcalde (ويطلق الآن على عمدة المدينة أو المحافظ) ؛ القائد alcaide ؛ المقدم almocadén ؛ المحتسب almotacén المشرف almojarife ؛ الوزير alguacil صاحب المدينة zabalmedince ، صاحب الشرطة zabaxorta ، صاحب السوق zabazoque ، صاحب السكة zabaceca الأمين alamin ، العريف alarife الفخار alfarero ، albonil الحمال alhamel ، الخياط alfayate ، الحجام alfageme ، البيطار albeitar

في العمارة والبناء :

القصر alcazar ، القصبة alcazaba ، الزقيقة azoqueca ، الدرب adarve ، الرباط rebato ، الرابطة rábita ، rábida ، الحصن almazán ، (البرج) البراني albarrana (torre) ، البناء albañil الزليج azuleja ، اسطوان zaguán ، القبة alcoba ، مقربصات mocarabes ، التوريق ataurique ، الطوب adobe الشماس ajimez (أي المشربية) ، الفخار alfar

في الأثاث والأدوات :

الشوار ajuar ، الخمرة alfombra (أي البساط) ، المخدة almohada ، اللحاف alifafe السطل acetre ، البرادة albarrada ، الغرافة algarrafa ، الكوز alcuza المهراس almirez ، السفط azafate الطبق atabaque

في الطعام والشراب :

الرز arroz ، السكر azúcar ، الرب arrope ، المُجَبَّنة almojabana ، الحشو alaju ، الحاجور alfajor (نوع من الحلوى) ، البورانية alboronia ، السكباج escabeche الفانيذ alfeñique ، البندقة albondiga

في الموسيقى والغناء :

الدف adufe ، البوق albogue ، الطنبور atambor ، الطبل atabal ، النفير añafil ، العود laúd ، الشبابة xabeba زمرة zambra ، رباب rabel ، الله olé (صيحة الإعجاب)

في الألوان :

اللازورد azul ، النيل añil ، القرمزى carmesi ، المغرة almagre ، الخلوقى aloque ، الزاج (الزرقة الداكنة) acecche ، الزيتونى aceituni ،

في الملابس :

الجبة aljuba ، السراويل zaragüelles السباط zapato ، الكساء alquicel ، البرنس albornoz ، البلغة alpargata كوفية cofia

في العطور والأفادية :

المسك almizcle ، الغالية algalia ، الكافور alcanfor ، المصطكى almáciga ،

في الطيور والحيوانات والحشرات :

الذيب adive ، رأس (الماشية) res ثور toro ، الزاملة acémila ، (خنزير) جبلى jabali ، صـقر sacre ، القطامى alcotán ، لبـلى nebli (نوع من الصـقور ينسب إلى منطقـة لبـلة في الجنوب الغربي للاندلس) الغطاس alcatraz الكروان alcaraván ، العقرب alcacrán زرزور zorzal

في ألعاب التسلية والصيد :

الشطرنج ajedrez ، الزهر azar ، شبكة jabega ، المزربة almadraba ، مسخرة mamarracho ، moharrache مهرج ، máscara

ملاحظات حول الألفاظ الأسبانية ذات الأصل العربى

١ ـ من الناحية الصوتية :

الحروف الحلقية : وأولها العين والحاء وكانتا تمثلان صعوبة كبيرة بالنسبة للمتكلمين باللغة الإسبانية كما هو الشأن لدى سائر الأوربيين . ومن النادر أن ينطقهما أجنبى عن اللغة بصورة صحيحة كما يقرر الدكتور بشر فى كتابه « علم الأصوات » . وقد سجل العالم الأندلسى الكبير ابن حزم القرطبى ذلك من قبل فى كتابه «الإحكام فى أصول الأحكام» (١ / ٣١ ـ ٣٢) إذ قال : « « وإذا تعرب الجليقى أبدل من العين والحاء هاء فيقول مهمداً أراد أن يقول محمداً » . ويكرر بدرو القلعى هذه الملاحظة إذ يقول إن العين صوت يصعب نطقه جداً على غير العرب ، هذا وإن كان يشير إلى قربه من الغين . وهذا هو ما يفسر اختفاء العين من الغالبية العظمى من الألفاظ الإسبانية المأخوذة من ألفاظ عربية توجد فيها العين .

فمن الألفاظ التى تبدأ بالعين :

عرق السوس orozuz

العرض alarde

العقرب alcacrán

العود laúd

ومن التى توجد العين فى وسطها :

الزعفران azafràn
القليعة alcolca
مستعرب mozarabe

ومن التى توجد العين فى آخرها :

الترصيع ataracea ؛ الرُّبْع arroba ؛ القناع (خمار المرأة) alquinal

مشمع mojama (قديد من لحم الأتون أى التونة)

أما الحاء فانها تحولت إلى هاء (تصديقا لما ذكره ابن حزم) ولكن الهاء فى تطور صوتى للغة الإسبانية أصبحت الآن تكتب ولاتنطق .

ونرى أمثلة لها فيما يلى :

فى بداية الكلمة : الحركة alharaca ، حرة horra (المرأة الشريفة أو غير الأمة) الحاجة alhaja ، حتى hasta ، الحمة alhama ، الحنا alheña

وأحيانا تحولت إلى كاف كما نرى فى حراقة carraca (سفينة كبيرة للنقل وقد تستخدم فى الحرب) .

فى الوسط : كحل alcohol ، طاحونة atahona ، الملحفة almalafa سُطَيْحَة azotea ، الحاف alifafa الريحان àrrayàn

فى النهاية : قلعة رياح Calatrava

الخـــاء :

كثيرون ممن يستمعون إلى اللغة الإسبانية اليوم فيجدون حرف الخاء يتردد فيها بكثرة وهو حرف يصعب نطقه على كثير من الأوربيين (إذ لا يكاد يوجد إلا فى الألمانية واليونانية والروسية) يعتقدون أنه دخل إلى هذه اللغة بفضل العربية ، غير أن ذلك عار تماما عن الصحة . فقـــد كان من المفارقات الغريبة أن اللغة القشتالية وماكان يضطرب حولها فى شبه الجزيرة من اللهجات الإسبانية مع اقتراضها لكثير من الألفاظ العربية لم تستطع أبداً أن تستوعب حرف الخاء وتنطق به طوال معايشتها للعربية على مدى قرون طوال . فظلت اللغة القشتالية أوالإسبانية ولهجاتها المختلفة مستعصية على الخاء حتى القرن السادس عشر حينما ولى عرش إسبانيا الأمبراطور الألمانى الأصل كارلوس الخامس (شارلكان) بالنسبة لألمـانيا وهو الأول بالنسبة لإسبانيا (وقد امتد حكمه بين سنتى ١٥١٧ و ١٥٥٨) وفى ظله اتسعت الأمبراطورية الإسبانية حتى أصبحت أقوى دول أوربا وأوسعها رقعة ، وفى عهده انثال عدد كبير من الألمان إلى إسبانيا وكان هو نفسه لايحسن الكلام بالإسبانية بل كان يرتضخ فيها لكنة جرمانية . ومن هنا تسرب إلى لغة اسبانيا صوت الخاء فأصبح ينطق به حرف الـ j حيثما ورد وحرف الـ g أيضا إذا تلاها أحـــد الحرفين اللينين :

الـ i أو الـ e أما الألفاظ العربية التى اشتملت على الخـاء – وكانت قـد دخلت اللغة الإسبانية قبل ذلك التاريخ – فإنها استبدلت بالخاء صوتا آخر كما نرى فى هذه الأمثلة

فى بداية الكلمة : خص choza (أى كوخ) ، خليفة califa ، الخرج alforja (ونلاحظ فى هذه الكلمة أن الخاء قـد تحولت إلى هاء h ثم إلى فاء f (وكان هناك فى الاسبانيـة خلط بين الهاء والفاء وهى ظاهرة لانرى الآن موضعاً لشرحها) . أما الجيم فقد كانت تنطق قريبة من الجيم المعطشة مثل الجيم الشامية أى چ وهى الحرف المقابل للـ j ومع التحول الذى أشرنا إليه فى نطق هذا الحرف منذ القرن السادس عشر تحولت إلى خاء) .

الخرشوف alcarchofa

الخروب algarroba

وحينما تأتى الخاء فى وسط الكلمة تفقد أيضا خاصيتها الصوتية العربية وتتحول إلى هاء لا تنطق مثل سخينة (نوع من الحساء الذى يضاف إليه الدقيق) zahinas

وتتحول الخاء أحيانا إلى كاف فى آخر الكلمة مثل إسفيناخ espinaca وشيخ jeque

الضـــاد :

حينما تأتى الضاد فى أول الكلمة تتحول إلى دال مثل daifa ضيفة . ولو أن معناها تحول إلى دلالة سيئة إذهى بمعنى الخليلة ؛ الضفيرة adefera (ولكن ليست بمعنى ضفيرة الشعر ، وإنما أصبحت تدل على الزخارف المضفرة التى تستخدم فيها بلاطات الزليج الملونة (أى القيشانى) بشكل مخصوص) ؛ الضبة aldaba وهى تدل على كتلة من الحديد أو الخشب تعلق على الباب لكى يستخدمها الطارق ؛

الضيعة aldea

ويلاحظ فى هذين اللفظين أن الضاد قد سبقتها لام مما يدل على أن نطق الضاد كان شبيها بنطق اللام (كما شرح ذلك الدكتور كمال بشر فى كتابه عن الأصوات) .

وإذا أتت الضاد فى وسط الكلمة فقد تتحول إلى دال أيضا كما ترى فى الغيضة algaida (بمعنى الغابة) ؛ روضة rauda وتستخدم بمعنى المقبرة

أما فى آخر الكلمة فإنها تأتى غالباً مسبوقة باللام المفخمة مثل

القاضى alcalde ؛ البيضا albalda

البياض albayalde ؛ الربض arrabalde وفى هذه الكلمة الأخيرة اختصرت الكلمة فحذف المقطع الأخير فأصبحت arrabal أى أن الضاد تحولت إلى لام فقط .

وظاهرة إضافة اللام إلى الضاد تظهر أيضا فى الكلمات التى تشتمل على الطاء ، كما نرى فى لفظ الطبق altabaque أى الصحفة الكبيرة ولكنها لا تضاف إلى الضاد إذا سبقها حرف الراء مثل العرض alarde (وتطلق على الاستعراض العسكرى أو ما يشبه ذلك مجازاً).

التغيرات الدلالية :

تتعرض الألفاظ خلال سيرة اللغة إلى تغيرات دلالية فقد تتجه الدلالة إلى الإتساع أو إلى الضيق ، وقد تتخذ دلالات أسمى مما كانت عليه فى الأصل ، وقد يحدث عكس ذلك فتتخذ اتجاها متدنيا (أو ما يسمى باللغات الأوربية degradation) فنحن نرى مثلا لفظ الحاجة alhaja الذى كان يدل على أى شىء يحتاج إليه ثم تحول فى الإسبانية الحالية إلى التحفة القيمة أو الحلية الفاخرة .

على حين نجد لفظ الوزير alguacil الذى كان يدل على هذا المنصب الكبير قد أصبح فى الإسبانية الحالية يدل على وظيفة متواضعة تعادل دلالة فرّاش (ويمكن المقارنة بين هذا اللفظ ولفظ « الحاجب » العربى) على أن هذا التطور على ما يبدو كان قد بدأ أيام حكم المسلمين للأندلس فإن منصب الوزير كان قد تدنى منذ سقوط الخلافة الأموية فى الأندلس فى أوائل القرن الخامس الهجرى وقيام دول الطوائف حتى إن أحد الشعراء خاطب وزيراً من وزراء ذلك الزمن بقوله :

هبك كما تدعى وزيرا
وزير من أنت يا وزير
والله ما للأمير معنى
فكيف من وزّر الأمير

والأمثلة على هذه التغيرات الدلالية كثيرة ويسميها بعض اللغويين الشف Calco :

وهناك لون من التأثيرات العربية التى نصطلح على تسميتها بالخفية أو المستترة وتعنى بها ما ترجمته اللغة الأسبانية ترجمة واضحة عن العربية ونضرب عليها أمثلة من بعض الألفاظ والتعابير التى لا نجد لها مثيلا فى اللغات الأوربية الأخرى :

تستخدم الاسبانية تعبير tomaron en hablar أى أخذوا فى الحديث وهو ترجمة حرفيه عن العربية .

وكذلك « رجل ذو حياء un hombre de vergüenza وذلك فى مقام المديح ، ولو قيل مقابله فى الانجليزية أو الإيطالية أو الفرنسية Un uomo di vergogna لكان أشبه بالذم ، un homme de honté

ومنه de buena sombra (خفيف الظل) وعكسه de mala sombra (ثقيل الظل) .

وهناك ظواهر نحوية يبدو فيها تأثر الأسبانية بالنسق النحوى المتبع فى العربية فكثيراً ما نجد الجملة الأسبانية تبدأ بالفعل قبل الفاعل وهى ظاهرة لا نجدها فى اللغات الأوربية الأخرى

وهناك صيغ مسكوكة تبدو منقولة عن العربية :

كالحمار يحمل أسفاراً

como un asno cargado de libros

وهو ترجمة للتعبير القرآنى وقد صيغ من قبل شعراً فى بيت كان العالم القرطبى الطبنى يتمثل به وهو :

زوامل للأشـــعار لاعلم عندهم
بما حمـــلوا إلا كعـــلم الأباعر

أو مظلم كجوف الحمار oscuro como boca de asno وهو تعبيرا استخدامه سيرفانتيس فى رواية دون كيخوتى : ويبدو منقولا عن البيت المنسوب لامرئ القيس :

وواد كجوف العير قفر قطعته
به الذئب يعوى كالخليع المُعَيَّل

وبعد فهذا ليس إلا قليلا من كثير مما تدين به اللغة الأسبانية للغة العربية وعلينا أن نذكر أن الأسبانية كما كانت معبراً للثقافة العربية إلى أوربا فقد كانت معبراً لكثير من هذه الرواسب العربية إلى اللغة المتكلمة فى العالم الحديد عالم أمريكا اللاتينية . ومع اللغة حملت الأسبانية كثيراً من التأثيرات العربية فى الفكر وفى الأدب وفى الفن .

هى صفحة مشرقة من تاريخنا اللغوى والثقافى الذى ما زال بحاجة إلى تجلية وبيان وهو عمل يتطلب تكاتف أجيال من الباحثين.

د. محمود مكى
عضـــو المجمع

إيحاءات بديع الزمان لابن شهيد في التوابع والزوابع

للدكتور شوقي ضيف

بديع الزمان هــو أحمــد ابن الحسين أصله من همذان بإيران وإليها ينسب توفى سنة ٣٩٨ ولم ينل كاتب فى عصره ما نال من التمجيد والشهرة ، وفيه يقول الثعالبى فى اليتيمة : « هو معجزة همذان ونادرة الفلك وبكر عُطارد وفرد الدهر وغرة العصرة . لم يُرَ ولم يُرْوَ أن أحدا بلغ مبلغه من لبّ الأدب وسره ، وجاء بمثل إعجازه وسحره» وكان أهم ما راع معاصريه من أدبه مقاماته المشهورة . وقبيل وفاته بنحو ستة عشر عاما ولد بقرطبة فى الأندلس ابن شهيد أحمد بن عبد الملك فى بيت ثراء وعز ومجد ، وتوفى سنة ٤٢٦ وكان شاعرا وناثرا بارعا وفيه يقول ابن بسام :

«نادرة الفلك الدوار ، وأعجوبة الليل والنهار ، إن هزل فسَجْع الحمام ، أو جد فزئير الأسد الضِّرْغام ، نظمٌ كما اتسق الدرُّ على النحور ونثر كما خلط المسك بالكافور » .

ومن أروع آثار ابن شهيد الأدبية رسالته «التوابع والزوابع » والتابع الجنى والزابعة الشيطان ، وهــو يذكر فى صدرها أن صديقا له يسمى أبا بكر بن حزم كان يروعه أدبه روعة لاحدّ لها ، مما جعله يقسم أن له تابعة من الجن تنجده فى فرائده البديعة وزابعة من الشياطين تسعفه وتؤيده . واعترف لصديقه بأن له تابعا من الجن يسمى زهير ابن نُمَيْر من قبيلة أشجع فى الجن تقابل قبيلة ابن شهيد أشجع العربية فى الإنس ، وأن هذا التابع تراءى له يوما على فرس أدهم بباب مجلسه حين أُرْتج عليه القول فى أثناء مرثية ينظمها فأنشده بيتا حلّ به عُقْدة لسانه فى مرثيته وتحادثا حينا ، وعلّمه أبياتا ينشدها إذا أراد استحضاره ، وأوثب فرسه الحائط وغاب عنه ، فكان ابن شهيد بعد هذا اللقاء لتابعه كلما أُرْتج عليه أو ضاق به مسلك فى الشعر ينشد الأبيات فيتراءى له توًّا فيدرك

(*) أُلقى فى الجلسة الثانية عشرة يوم الأحد ٤ من شعبان سنة ١٤٠٩ الموافق ١٢ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م.

بقريحته ما يرغب فيه ويريده ، ويقول ابن شهيد لصاحبه أبي بكر بن حزم : إن صحبته لتابعه تأكدت وأنهما ذات يوم تذاكرا أخبار الشعراء والكتاب القدماء ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع ، وأنه سأل تابعه هل يمكن أن يلتقي معه بهم ، فقال له : ينبغي أن أستأذن شيخي من الجن فإن أذن لي حققت لك ما تريد ، وطار عنه إلى شيخه الجني كلمح بالبصر . وعاد مسرعا وقد أذن له ، فأردف ابن شهيد على فرسه ، وسار بهما كالطائر يجتاب الجوّ فالجو ويقطع الدوّ فالدوّ إلى أن رأى ابن شهيد أرض الجن : أرضا لا كأرض الإنس مكتظة بالشجر عطرة الزهر ، وقال له تابعه : بمن تريد أن نبدأ ، فأجابه ابن شهيد : الكُتّاب أولى بالتقديم ولكني إلى الشعراء أشوق ، فقال له من تريد منهم ؟ قال صاحبَ امرئ القيس ، فأمال تابعه عنان الفرس إلى واد من أودية الجن وصاح : يا عتيبة بن نوفل ومثل لهما فأقسم عليه تابع ابن شهيد بسِقْط اللِّوَى فحَوْمَل ويوم دارة جُلْجُل (وهي مواضع في المعلقة) إلا ما أنشدتنا من شعرك وسمعتَ من الإنسي صاحبي وعرّفتنا كيف إجازتك له ، وسأله عتيبة أهذا (يريد ابن شهيد) فتاهم ؟ وما لبث أن أنشدهما قصيدة امرئ القيس :

(سَمَا لَكَ شَوْقٌ بَعْدَ مَا كانَ أقْصَرَا)

حتى أتمها . وسأل ابن شهيد أن ينشده بعض شعره فهمّ بالنكول إجلالا له ، ثم تماسك وأنشده قصيدة حماسية ، فأعجب بها عتيبة وأجازه وغاب عنهما . فسأله تابعه زهير بن نمير من تريد لقاءه بعده ؟ فأجابه صاحبَ طرفة ، فأرسل فرسه قاطعا وادي عُتَيْبة إلى غَيْضَة ملتفة الأشجار . وفيها صاح زهير : يا عنتر بن العجلان حلّ بك زهير وصاحبه ، ويستحلفه بِخَوْلَةَ صاحبة طرفة وبما أمضى معها من ليلة إلا استقبلهما ، فبدا لهما فارس جميل الوجه متوشح بسيف ، ورحب بهما . وسأله ابن شهيد أن ينشدهما بعض قصائده ، فأنشدهما لامية قصيرة لطرفة ، وأنشده ابن شهيد خمرية بديعة ، فصاح عنتر قائلا لله أنت اذهب فانك مجاز وغاب عنهما . فسأله زهير من تتوق إلى لقائه ؟ ويلتقيان بأبي الخطّار صاحب قيس ابن الخَطِيم ويحيّيهما ويستنشد ابن شهيد، وينشده إحدى قصائده ، ويعجب بها ويجيزه ويعدل إلى صاحب أبي تمام وينشده ابن شهيد بعض قصائده ، ومن بينها قصيدة في رثاء صديقه حسّان بن مالك ويعجب بشعره ويجيزه. ويلتقي مع تابعه زهير بصاحب البحتري ويسميّه أبا الطبع ، وينشدهما قصيدة له إلى نهايتها ويستنشد ابن شهيد ، فيعارضه بقصيدة بديعة ، ويجيزه . ويسأل تابعه زهيرا أن يلقى به صاحب أبي نواس ، ويقول له زهير إنه بدَيْر حَنَّة منذ أشهر قد غلبت عليه الخمر، ويركض الفرس إليه ، ويشق سمعهما قرعُ النواقيس ، وأخذا يمران بأديار وكنائس

وحانات حتى انتهيا إلى دَيْر حَنَّة، فوقف زهير ببابه، وقال سلام على أهل دَيْر حنة فأقبلت نحوهما الرهبان وقد وضعوا فى أوساطهم الزنانير وقبضوا على العكاكيز، ولحاهم ورءوسهم تشتعل شيبا، وسألوا زهيرا ما بغيتك؟.

قال: حسين الدنان صاحب أبى نواس قالوا إنه عاكف على شراب الخمر منذ عشرة أيام، ومضوا بهما إلى بيت اصطفّتْ دِنانه، به حسين: شيخ طويل الوجه. افترش أضْغاث زَهْر واتكأ على زِقّ خمر وبيده كأس كبيرة، فقال له زهير حياك الله أبا الإحسان، فتمتم بكلام لا يعقل لغلبة الخمر عليه. ولم يلبث ابن شهيد أن أنشده خمرية من خمرياته، وكأنما حين سمعها عرفه، فصاح به أألأشجعى أنت، فقال له ابن شهيد أنا ذاك، فاستدعى ماء شرب منه وغسل وجهه فأفاق واعتذر إليه، وتلطف له طالبا منه أن ينشده بعض شعره، فأنشده قصيدة له مشهورة فى دَيْر حَنَّة، وكاد ابن شهيد يخرج من جلده طربا. وسأل حسين ابن شهيد أن ينشده بعض أشعاره، فأنشده من غزله الصريح ومراثيه ومجونه وبلغ من طرب الحسين لبعض ما سمع منه أن قام يرقص به ويردده، وأفاق، فقال: هذا والله شىء لم نُلْهَمْه نحن، واستدناه، فدنا منه، فقبّله بين عينيه، وقال له اذهب فإنك مجاز على الرغم من الحاسد الكاره. وقال له تابعه زهير من تشتاق إلى لقائه بعد مَنْ لقيت؟ فقال له خاتمة

القوم صاحب أبى الطيب فقال: اشدد له حيازيمك وعَطِّر له نسيمك، وأمال عنان فرسه نحو طريق طويل، وجعل الفرس يركض بهما، وزهير يتأمل آثار فرس بعيدة، فقال له فيم تتأمل؟

قال: إنها آثار فرس حارثة بن المغلّس صاحب المتنبى وهو شغوف بالقنص والصيد، وانتهيا إلى فارس على فرس بيضاء كأنه قضيب على كثيب، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى لها عَذَبة صفراء، فحياه زهير، فأحسن الرد من مقلة شَوْساء ينظر بمُؤْخِرها تكبرا وتيها، فعرّفه زهير مقصدى ورغبتى فى إجازته لى، واستنشده حارثة، فأنشده قصيدة حماسية من طراز شعره وما به من حكم وشعور بالقوة وحملة على الدهر ورفعه للأراذل الجهلاء. ويعجب بشعره حارثة، ويقول لزهير: إن امتد به العمر فلا بد أن ينظم الدرّ، ويجيز ابن شهيد. وبذلك يضع فى ميزانه ضد خصومه إجازات هؤلاء الشعراء الكبار وشهاداتهم له بالتفوق فى الشعر والبراعة فيه.

ويسأل زهير ابن شهيد: من تريد بعد هؤلاء الشعراء؟ فقال له: مل بى إلى الخطباء يريد الكتاب فقد كفانى ما سمعت من أصحاب الشعراء، فركضا الفرس فى الصباح، ولقيا فارسا أسرّ إلى زهير ببعض الكلام وتركهما، فقال زهير لابن شهيد: جمعت لك كتّاب الجن

بمَـرْج دَهمان، وانتهيا إلى المرج ، وإذا بناد عظيم وقد تحلّق فرسان الكلام حول شيخ أصلع جاحظ العين اليمنى على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة ، فقال ابن شهيد سِرًّا الزهير من هذا الشيخ ؟ فأجابه عُتَيْبة بن أرقم صاحب الجاحظ ، فقال ليس لى رغبة إلا أن ألقاه وألقى صاحب عبد الحميد الكاتب ، فقال له زهير إنه ذلك الشيخ الذى بجانبه ، وعرّف زهير عتبة صاحب الجاحظ ميل ابن شهيد إليه ، فاستدناه وأخذ فى الكلام معه وأعجب به وقال له : إنك حائك للكلام مجيد ، لولا أنك مغرم بالسجع ، فكلامك أشبه بالشعر منه بالنثر ، وقال له ابن شهيد : ليس هذا — أعزك الله — منى جهلا بأمر الكتابة وما فى المماثلة والمقابلة من فضل ، وابن شهيد يريد ما تميز به الجاحظ فى كلامه من الازدواج والمماثلة بين العبارات دون محاولة للسجع وقوافيه . ويستمر ابن شهيد قائلا لصاحب الجاحظ إنه إنما يستخدم السجع تمشيا مع فرسان الكلام لزمنه الذين يستحبون السجع على الازدواج ، ويصوغ ذلك فى عبارات شبيهة بأسلوب الجاحظ وما يطبعه من الازدواج والمماثلة ، ويتدخل صاحب عبد الحميد الكاتب فيقول لصاحب الجاحظ : لا يغرنّك منه ما تكلف من المماثلة فإن السجع طبعه . ويقول له ابن شهيد لا تعجل ، ويصوغ له عبارات من نمط أسلوبه . ويتلطف صاحبا الجاحظ وعبد الحميد معه ويسألانه أن يقرأ عليهما بعض رسائله ، فيقرأ رسالته فى صفة البرد والنار والحطب ويستحسنانها ، ثم يقرأ رسالته فى الحلواء ، ويختار طائفة من ألوانها مثل الفالوذج وهو حلواء هلامية من الدقيق والسمن وعسل النحل، والخبيص وهو حلواء من التمر والسمن والبيض ، والزلابية وهى حلواء من عجين يُقْلى فى الزيت ويُعْقَد بعسل النَّحل ، إلى غير ذلك من ألوان يطيل فى وصفها ساجعا سجعا بديعا فى لفظ رشيق ، مما جعل صاحبا الجاحظ وعبد الحميد يقولان له : إن لسجعك موضعا من القلب ومكانا من النفس . ويسألانه عمن يطعنون عليه من أبناء جنسه ، وعمن هم أشد طعنا عليه ؟ فيذكر لهما ثلاثة هم من يسمى أبا محمد وقد دسّ عليه عند الخليفة المستعين الأموى (٤٠٠ — ٤٠٧ هـ) وشخصيته غير معروفة. ومن يسمى أبا بكر ، وهو إما أبو بكر بن حزم الذى وجه رسالته إليه ، والذى اتّهمه بأن له تابعا يؤيده ، وإما أبو بكر محمد بن القاسم المعروف باسم إشكمياط الذى كان يتهمه بسرقة بعض نثره البديع من سابقيه والثالث اللغوى المشهور فى عصره أبو القاسم الإفليلى ويصيح تابعا الجاحظ وعبد الحميد الكاتب ، يا أنف الناقة بن معْمر ، من سكان خَيْبر — وهو صاحب الإفليلى وتابعه — ويقوم إليهما جنّى رَبْعة ، اختلط البياض فى شعر رأسه بالسواد مزهوًّا بنفسه ، يتعارج فى مشيته ، فقالا لابن شهيد : هذا صاحب الإفليلى ، وسألاه عن ابن شهيد ، فقال : لا أعرف على من قرأ

—وكانوا يتنقصون من يأخذون العلم عن الصحف المكتوبة ، ولا يأخذونه عن الشيوخ— وحين سمع منه ابن شهيد كلمته قال لنفسه : إن لم تُخْرِبْ عن ذاتك ، وتظهر بعض أدواتك وأنت بين فرسان الكلام لم يطرلك بعدها طائر ، وكنت غَرَضا لكل حَجَر عابر . وقال لتابع خصمه الإفليلي : وأنا أيضا لا أعرف على من قرأت ، فقال له : طارحْنى كتاب الخليل (يقصد معجم العين) أو فاظرْنى على كتاب سيبويه ، ثم قال له : أنا أبو البيان ، فقال له ابن شهيد ساخرا : إنما أنت كمغن وسطلا يطرب ، وهيهات حتى يكون مَساقُك عذبا ، وكلامك رطبا ، وحتى تتناول الوضيع فترفعه والرفيع فتضعه والقبيح فتحسّنه ، وقال له تابع الإفليلي : أسمعْنى مثالا ، فقال له ابن شهيد حتى تصف برغوثا فتقول :

« أسودُ زنجيّ ، وأهليٌّ وحشيٌّ ، ليس بوان ولا زُمَّيْل (جبان) وكأنه جزء لا يتجزأ من ليل ، وشونيزة (الحبَّة السوداء) أو ثبتها غريزة أو نقطة مداد ، أو سويداء قلب قراد (دُوَيْبَّة) شربه عَبٌّ ، ومشيه وَثْب ، يكمن نهاره ويسرى ليله ، يدارك بطعن مؤلم ، ويستحل دم كل مسلم ، مساورٌ للأساورة ، يجر ذيله على الجبابرة ، يهتك ستر كل حجاب ولا يحفل ببواب . . شره مبثوث ، وعهده منكوث ، وكذلك كل برغوث ، وكفى بهذا نقصا للإنسان ، دالاًّ على قدرة الرحمن »

ويعرض على تابع الإفليلي وصفا بديعا مماثلا لثعلب ، ولفته فى هذا النادى الخاص بالكتّاب فتى كان يرميه بطَرْفه . فلما أنهى وصفه للثعلب قال له : تَحيُّلٌ على الكلام لطيف . وسأل ابن شهيد تابعه عنه فقال له : إنه زُبْدة الحِقَب تابع بديع الزمان ، فصاح ابن شهيد يا زبدة الحقب اقترح علىّ ما تشاء ، فقال له : صف جارية ، فوصف جارية له ، فأعجبه وصفه فقال ابن شهيد : هلا أسمعتنى وصفك للماء ، فقال زبدة الحقب إنه من البيان المعجز ، فأقسم عليه أن يذكره ، فذكره قائلا : « أزرق كعين السِّنَّوْر (القط) صاف كقضيب البِلَّوْر ، انتُخب من الفُرات ، واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة فى صفاء الدمعة » . ولم يلبث ابن شهيد أن عارضه بقطعة فى وصف الماء يقول فى فاتحتها : كأنه عَصيرُ صَبَاح ، أو ذَوْبُ قمر لِيَاح ، (ناصع) ينصبّ فى إنائه ، انصباب الكوكب من سمائه » . ويغضب زبدة الحقب لروعة بيانه ، ويضرب الأرض برجله فتنشق تحت قدمه ويتدحرج فيها ، ويغيب شخصه وينقطع أثره . ويضحك تابعا الجاحظ وعبد الحميد الكاتب من فعله ، ويشتد غيظ أنف الناقة ، ويسأل ابن شهيد هل له أوصاف فى شعره لا يستطيعها ؟ فيورد عليه وصفا لسحاب ممطر فى إحدى قصائده ووصفا لذئب ، ويصيح فتيان الجن معجبين أشد الإعجاب ، وتعلو أنف الناقة كآبة شديدة ، ويشفق عليه

فتى من الجن فيصفه لابن شهيد بأنه زيرُ علم وحرىٌ به أن يعطف عليه ويرفق به ، فيقول له ابن شهيد : وهل كان يضيره أن يتَصْبر لى على زلَّة فى شعر أو نثر ولا يعلنها لتلاميذه ، ويجعلها إحدى مفاخره . فيقول له الفتى الجنى إن الشيوخ قد تهفو أحلامهم فى الندرة ويرد ابن شهيد عليه : بل إنها المرة بعد المرة . ويقول له صاحبا الجاحظ وعبد الحميد الكاتب ، وقد بلغ الإعجاب به منهما مبلغا كبيرا : اذهب فانك شاعر كاتب . وانفض الجمع فى وادى الكتَّاب ، والأبصار إليه ناظرة ، والأعناق نحوه مائلة .

ويقول ابن بسام أن ابن شهيد امتد به الكلام واتسع به الإطناب ، فرأى أن يكتفى بهذا القدر من التوابع والزوابع ، غير أنه عاد يقتطف منها فصولا ، واختار فصلا حضر فيه ابن شهيد مع تابعه زهير مجلسا من مجالس الجن دار الحديث فيه على ما تعاورته الشعراء من المعانى ومن أخذ المعنى وزاد فيه ومن قصَّر ، وحاوره بعض الجن فى أشعار لشعراء مختلفين وأنشد بعض أشعار بديعة له توضح مدى إحسانه فى الشعر ونظمه . ويورد ابن بسام فصلا طريفا من فصول التوابع والزوابع مشى فيه ابن شهيد مع تابعه زهير فى أرض الجن فأشرفا على روضة فيها قطيع من حُمُر الوحش والبغال ، ولحقت به الحُمر ، وقالت له : تهيأ للحكم ، فسألها ابن شهيد : ما الخطب ؟ فقالت : شعران لحمار وبغل من عشاقنا اختلفنا فيهما وقد رضيناك حكَماً ، فقال ابن شهيد : حتى أسمع فتقدمت إليه بغلة شهباء ، عليها جُلُّها (غطاؤها الصائن لها) وبُرْقُعها (قناع المرأة) وأنشدته شعرا غزليا لبغل فى صاحبة له وشعرا غزليا آخر لحمار فى أتان أحبَّها ووسوس لها نمَّام ما جعلها تتغير والحمار يشكو تباريح حبه . فقال ابن شهيد إن أنف الناقة كان أولى بالحكم منى ، وفهمت البغلة أنه فضَّل شعر البغل على شعر الحمار ، وقالت لابن شهيد : أما تعرفنى ؟ فقال لها : لو كان هناك علامة ، فنحَّت لثامها فإذا هى بغلة أبى عيسى والخالُ على خدِّها ، فتباكى معها طويلا وأخذا فى ذكر ما ضمهما وأيامهما ، وسألته ما فعل الأحبة بعدى ؟ أهم على العهد ؟ فأجابها ابن شهيد : شبَّ الغلمان ، وشاخ الفتيان ، وتنكر الخِلاَّن ، ومن إخوانك من بلغ الإمارة ، وانتهى إلى الوزارة ، فسألته أن يقرئهم السلام . وكانت فى بركة بقربهما لوزَّة بيضاء فى مثل جثمان النعامة ، لم يُرَ أخف من رأسها حركة ولا أحسن للماء فى ظهرها صباً ، تثنى رقبتها وتكسر حدقتها فترى الحسن مستعارا منها ، فصاحت بالبغلة : لقد حكمتم بالهوى . فسأل ابن شهيد زهيرا عنها فقال له : هى تابعة شيخ من مشيختكم تسمى العاقلة وتكنى أم خفيف ، وهى ذات حظ من الأدب . فتعرَّض لها قائلا :

أيتها الإوزة الجميلة العريضة الطويلة أتحسن بجمال حدقتيك واعتدال منكبيك واستقامة جناحيك وطول جيدك مقابلة الضيف بمثل هذا الكلام ؟ وأنا الذى همت بالإوز صبابة . فدخلها العجب من كلامه واعترتها خفة شديدة فى مائها فمرة سابحة ، ومرة طائرة ، تنغمس فى الماء هنا ، وتخرج منه هناك . وهو فعل معروف من الإوز عند الفرح والمرح . ثم سكنت وأقامت عنقها وعرضت صدرها وعملت بمسجدا فيها ، واستقبلتهما جاثية كصدر المركب فقالت موجهة الخطاب إلى ابن شهيد أيها المغرور كيف تحكم فى الفروع وأنت لا تحكم الأصول؟ وسألته : ما الذى تحسن ؟ فقال لها ارتجال الشعر والخطب (يريد الرسائل) فقالت له : ليس عن هذا أسألك » . إنما أردت بذلك إحسان النحو وغريب اللغة ، إذ هما أصل الكلام ومادة البيان ، واهتزت من جانبيها ، وجال الماء فى عينيها ، وسألها يا أم خفيف ؛ أيهما أفضل : الأدب أو العقل فقالت : بل العقل ، فقال لها : هل تعرفين فى الخلائق أحمق من إوزة فتطلبى عقل التجربة إذ لا سبيل لك إلى عقل الطبيعة ، فإذا أحرزت منه حظا فحينئذ ناظرى فى الأدب.

ويبدو من حديث ابن شهيد مع الإوزة وأخذها عليه أنه لا يحسن النحو وغريب اللغة أنها تابعة لخصمه ابن الإفليلى بجانب تابعه أنف الناقة ، وقد رماها بالحمق وقلة العقل ، ودعاها إلى أن تطلب عقل التجربة إذ تفقد عقل الطبيعة : وهو فى كل ذلك يقصد ابن الإفليلى الذى كان يتتبع كلامه ليجد فيه فيه عثرة يذكرها لطلابه . ويؤكد رأينا أن ابن الإقليلى مقصده فى حملته على الإوزة وأنها تابعته مثل أنف الناقة تابعه ما قاله ابن بسام من أنه هو الذى عرض به ابن شهيد فى التوابع والزوابع وأنه كان منها الغرض والهدف .

واختلف الباحثون فى التاريخ الذى كتبت فيه رسالة التوابع والزوابع ، فرأى بعضهم أنها كتبت فى مطالع القرن الخامس الهجرى ظنا منه أن أبا بكر بن حزم الذى أهدى إليه ابن شهيد الرسالة هو أخو ابن حزم العالم الأندلسى المشهور على بن أحمد بن سعيد إذ كان له أخ بنفس الاسم : أبى بكر ابن حزم توفى فى أثناء وباء للطاعون بقرطبة سنة ٤٠١ فظن أنه هو الشخص الذى أهدى إليه ابن شهيد الرسالة ، ولم يلاحظ أنه كان حينئذ فى الثامنة عشرة من عمره ، ويبعد أن يكتبها فى هذه السن المبكرة ، وينتفى ذلك يقينا حين نقرأ ترجمة أبى بكر يحيى بن حزم فى جذوة المقتبس عند الحميدى إذ تمضى على هذا النحو : « يحيى بن حزم أبو بكر شيخ من شيوخ الأدب ، وله فى ذلك ذكر ، وهو الذى خاطبه ابن شهيد برسالة التوابع والزوابع التى سماها : « شجرة الفكاهة » وهو من بيت

آخر غير بيت الفقية أبي محمد على بن أحمد ابن سعيد بن حزم . وإذن فهو — دون ريب ليس أخا لابن حزم المفكر الأندلسى المعروف ولا هو من أسرته ، إذ هو من أسرة أخرى بشهادة الحميدى . وكثرت ظنون الباحثين فى تاريخ الرسالة ، فقيل ألفها ابن شهيد فى سنة ٤٠٤ ، وقيل ألفها فى عهد الخليفة المستعين الأموى (٤٠٠ — ٤٠٧) بقرطبة ، وقيل بل سنة ٤١٤ إذ فى الرسالة قطعة من مرثية لابن شهيد نظمها فى ابن ذكوان المتوفى سنة ٤١٣ للهجرة فلا بد أن تكون الرسالة قد ألفت بعد هذا التاريخ . وقيل إنها ألفت سنة ٤١٥ . وجميعها ظنون مخطئة ، إذ يذكر فيها ابن شهيد رثاء له فى الوزير الأديب حسان ابن مالك بن أبى عبدة ، وفى كتاب الصلة لابن بشكوال أنه توفى فى شوال سنة ٤١٦ للهجرة ، وفى ذلك دليل واضح على أن الرسالة لم تؤلف قبل هذه السنة ، وبذلك تتداعى كل الظنون السابقة :

ولما كانت الرسالة تتناول عالماً وراء عالمنا الواقعى هو عالم الجن والشياطين ، وكانت رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى تتناول أيضا عالماً وراء عالمنا هو العالم الأخروى وكل ما يتصل به من حشر ونعيم وجحيم ، وكانا جميعا متعاصرين ، فقد أخذ الباحثون يتساءلون هل تأثر أحدهما بصاحبه فى رسالته ، وكان من السابقين الى إبداء الرأى فى هذا التأثر الدكتور أحمد ضيف فى كتابه « بلاغة العرب فى الأندلس » إذ قال : « لعل ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء فى رسالته الغفران ، لأنه أدرك عصره ، ولأن شهرة أبى العلاء كانت ذائعة فى المشرق والمغرب ، وكان أهل الأندلس يقلدون أهل المشرق فى كل شئ » .

ومضى الباحثون بعد الدكتور أحمد ضيف يتساءلون عن تاريخ تأليف الرسالتين ، فلاحظوا أن ابن شهيد ألف رسالته قبل سنة ٤٢٠ للهجرة بينما ألف أبو العلاء رسالته — فيما يظن — سنة ٤٢٤ أو بعدها ، فهى متأخرة عن رسالة ابن شهيد . ومن ثم قالوا إن أبا العلاء هو الذى تأثر بابن شهيد ، ومن هؤلاء غَرْسِية غوميس فقد زعم — كما نقل عنه بالنثيا فى كتابه تاريخ الفكر الأندلسى ترجمة الدكتور حسين مؤنس — أن ابن شهيد صوَّر فى رسالته رحلة شاعر إلى الجنة سابقا بذلك المعرى وهو خطأ بين إذ ليس فى رسالة ابن شهيد أى ذكر أو إشارة إلى الجنَّة فضلا عن أن تكون رحلة إليها ، إنما هى رحلة إلى عالم الجن والشياطين فلا علاقة لها أى علاقة بعالم الغفران الأخْرَوِىّ وكل من يقرأ الرسالتين يعرف — بوضوح — أن رسالة التوابع والزوابع تستلهم ما شاع عند العرب

قديما من فكرة الجن والشياطين التى تلهم الشعراء فى دنيانا ما ينظمونه من الشعر.
بينما رسالة الغفران لأبى العلاء تستلهم عقيدة المعاد الإسلامية وما يتصل بها من الحشر والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار واللقاء مع بعض من غفر لهم من الشعراء فى الجنة ورؤية إبليس والزنادقة فى الجحيم ، فلا صلة أى صلة بين الرسالتين وخطأ لا يماثله خطأ افتراض التأثر بينهما أوالتأثير.

وواضح كل الوضوح مما قدمت أن رسالة التوابع والزوابع تتصل بما كان يزعمه الجاهليون من أن الجن والشياطين تلهم الشعراء أشعارهم . وبلغ بهم الخيال أن سموا لبعض الشعراء توابعهم ، واشتهر بينهم اسم مسحل لتابع الأعشى ، ورووا عنه أخبارا وأقاصيص ، وفى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى خبران عنه نجمليهما أما أولها فيذكر أن شخصاً رحل فى الجاهلية ، فأقبل ليلة ببعيره على بئر يريد أن يسقيه منها ماء ، فاذا عندها نفر مشوهون ، وإذا رجل أشد منهم تشويها أتاهم ، فقالوا لصاحب البعير : هذا شاعر ، ثم سألوا الرجل أن ينشده بعض شعره فأنشده قصيدة الأعشى : « وَدِّعْ هريرة إن الركب مرتحل » حتى أتى على آخرها لم يخرم منها حرفاً فتعرض له صاحب البعير يسأله : من نظم هذه القصيدة ، فقال له : أنا نظمتها فتعجب وقال له : لولا ما أنشدت وسمعت لأخبرتك أن الأعشى أنشدنيها العام الماضى بنجران ، فقال له : إنك لصادق ، أنا الذى ألقيتها على لسانه ، وأنا مِسْحل ، ما ضاع شعر شاعر وضعه عند الأعشى.

والخبر الثانى يحكى لقاء طويلا بين الأعشى نفسه وبين شيطانه مِسْحل فى طريقه بأوائل أرض اليمن يريد قيس بن معديكرب بحضرموت لمدحه ، فأصابه مطر ، فرمى ببصره يطلب مكاناً يلجأ إليه ، فوقعت عينه على خباء من شَعَر فقصده ، وإذا شيخ على باب الخباء ، فسلم عليه فرد السلام ورحّب به فحط رحْله ، ودخل الخباء فسأله من أنت ؟ وأين تقصد ، فقال له : أنا الأعشى أقصد قيس بن معديكرب فقال له حياك الله أظنك امتدحته بشعر ، فقال له الأعشى : نعم فسأله أن يسمعه لهم فأنشده قصيدة يتغزل فيها بمن تسمى سمية ، وفوجىء الأعشى به ينادى : ياسمية اخرجى ، فخرجت فقال لها أنشدى عمك قصيدتى التى مدحت بها قيس بن معديكرب وتغزلتُ فى مطلعها بك فأنشدتها إلى آخرها ، وصنع به نفس الصنيع فى قصيدته : « ودع هريرة » حين ذكر له مطلعها ، ونادى على جارية عنده تسمى هريرة فأنشدتها إلى آخرها ، وتحيّر الأعشى وغشيته رعدة ، فقال له : لا تُرَعْ فأنا هاجسُك مِسْحل الذى ألقى على لسانك الشعر فسكنت نفسه .

وقد يؤذن مثل هذين الخبرين عن الأعشى وشيطانه مسحل بأن فكرة الجاهليين

عن أن لكل شاعر شيطانا أو رئيا من الجن هي التي أوحت إلى ابن شهيد بصنع رسالته «التوابع والزوابع» .

ومن يقرأ الرسالة : يلاحظ أن ابن شهيد يلقى فيها شياطين امرئ القيس وطرفة وقيس بن الخطيم ولا يلقى شيطان الأعشى مسحلا مع ما ذكر عنه من أخبار مختلفة في كتب الأدب ، ومعروف أن الأعشى يعد من فحول الشعراء في الجاهلية ، وهو أحد أصحاب المعلقات العشر ، وأحد المقدمين على سائرهم مع امرئ القيس وزهير النابغة ، وفي رأينا أنه ليست فكرة شياطين الشعراء وما حدث الجاهليون من أخبارهم هي التي أوحت إلى ابن شهيد رسالته ، إنما أوحى إليه بها بديع الزمان في مقامة بين مقاماته تسمى المقامة الإبليسية ، كما أشرت إلى ذلك قديما في كتابين لي هما : « المقامة» و« الفن ومذاهبه في النثر العربي» ورأيت أن أعود إلى بسط الفكرة وتوثيقها بأدلة جديدة .

ومقامة بديع الزمان تدور على أن عيسى بن هشام راوى المقامات أضل إبلا له فخرج في طلبها ، ومازال يتنقل من واد إلى واد حتى دخل واديا من أرض الجن وهو لا يدري ، واديا أخضر ، به أنهار جارية وأشجار باسقة وثمار يانعة وأزهار ناضرة وبسط مفروشة ، وإذا شيخ جالس فارتاع منه ، فهدأ روعه ، وأمره بالجلوس فامتثل وسأله عن حاله ، فذكر له ضلال إبله فقال له الشيخ : أصبت دليلك . ووجدت ضالتك ، فهل تروى من أشعار العرب شيئا ؟ فقال له : نعم وأنشده أشعارا لامرئ القيس وعبيد بن الأبرص ولبيد وطرفة فلم يطرب لشيء من ذلك . وقال لعيسى ابن هشام : أنشدك من شعري ، وأنشده قصيدة بديعة من قصائد جرير حتى أتمها ، فقال له عيسى بن هشام : ياشيخ هذه القصيدة لجرير وقد ذاعت وشاعت بين البدو والحضر وتداولتها الألسنة منسوبة لجرير ، فهو صاحبها وناظمها . فقال له دعك مما ظننت ، وأنشدني شعرا لأبي نواس إن كنت تروى له بعض أشعاره فأنشده إحدى خمرياته ، فطرب لها أشد الطرب . وقال له : امض على وجهك وستلقى رجلا ، ووصف لعيسى بن هشام ما بيد الرجل ملغزا بوصفه لمذبة وسراج ثم قال له : ما أحد من الشعراء إلا ومعه معين منا ، وأنا الشيخ أبو مرة(إبليس). ثم غاب عن عيسى بن هشام ولم يعد يراه ومضى عيسى لوجهه ، فلقي رجلا في يده مذبة ، فعرف أنه صاحبه الذي ذكره له أبو مرة وقال له ما سمعه منه ، فناوله سراجا ، وأشار إلى غار مظلم في جبل ، فقال له : ادخله وفي يدك السراج ، فدخله على هدى السراج ، وما إن خرج من أرض الجن حتى وجد إبله ، فاوى وجوهها وردها .

والصلة واضحة بين هذه المقامة الإبليسية عند بديع الزمان ورسالة التوابع لابن شهيد

إذ هي التي أوحت إليه باطار رسالته ، وأقصد لقاءه بشياطين الشعراء في أرض الجن . وقد اتسع ابن شهيد بالفكرة وطورها تطويرا بديعا ، وجعل للكتّاب في تلك الأرض توابع كتوابع الشعراء ، وأضاف إلى ذلك ما روى في الأساطير العربية من تمثل الجن في صور بعض الحيوان والطير .

ولكن هل من دليل على أن ابن شهيد عرف مقامات بديع الزمان ، والأدلة على ذلك في داخل الرسالة كثيرة ، ومن أهمها أن نجد ابن شهيد يلتقي بثلاثة هم — في رأيه — كبار الكتاب في العصرين الأموي والعباسي حتى زمنه ، وهم عبد الحميد الكاتب والجاحظ وثالثهم بديع الزمان ، فقد طلب إلى تابعة كما مر بنا — أن يلقى توابع الكتاب والتقى بتابعي الجاحظ وعبد الحميد الكاتب ، والتقى أيضا بتابع بديع الزمان ، وسماه زُبدة الحقَب ، وكأن الأيام ظلت طوال العصور تمخض الكتابة والكتّاب ، حتى اسخلصت الزبدة أو الكاتب الألمعي بديع الزمان : وليس كل ما أوحى به البديع إلى ابن شهيد فكرة أرض الجن ، فقد أوحت إليه مقاماته أن يحاكي منها المقامة المضيرية التي يصور فيها بديع الزمان بعض الأطعمة الشهية وما تتولى من يرونها من سيلان اللعاب واتقاد الأكباد ، وقد مضى ابن شهيد — على شاكلته — يضع رسالة في وصف ألوان من الحلواء وما تودع في قلوب المشاهدين لها من سعار الوله والشره ، حتى لتتحرك الألسنة على الشفاه ، وحتى لتلمع العيون وتخفق الأفئدة . وقد عرضها ابن شهيد على تابعي عبد الحميد الكاتب والجاحظ فأعجبا بها إعجابا شديدا ، كما أعجبا بتفننه على طريقة البديع في وصف البرد والنار والوقود ووصف برغوث وثعلب . والتفت ابن شهيد إلى تابع بديع الزمان : زبدة الحقب فقال له : اقترح عليّ ما تريد ، فاقترح عليه وصف جاريه ، فوصفها واستحسن وصفه زبدة الحقب قائلا : أحسنت ما شئت أن تحسن ، وسأله ابن شهيد أن يسمعه وصفه للماء على لسانه فقال له إنه من المعجز الذي لا يمكن أن يجاريه أحد فيه وذكره له كما مر بنا في حديثنا عن الرسالة ، ومرت معه معارضة ابن شهيد له بوصف للماء بديع . وهو عمل شابه بغير قليل من الروح المرحة ، مما جعله يسمى الرسالة كما قال الحميدي — باسم شجرة الفكاهة لما فيها من تهكم ودعابة .

وحرى بي أن أشير إلى ما تصور إيحاءات مقامات بديع الزمان لابن شهيد في رسالته : «التوابع والزوابع» من سرعة انتقال آثار أسلافنا من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب والعكس ، فهذه مقامات بديع الزمان الهمذاني

الإيرانى تنتقل سريعا إلى أقصى الغرب ، إلى قرطبة ، فتلهم ابن شهيد رسالته التوابع والزوابع ، ونزداد عجبا حين نجد الثعالبى النيسابورى الإيرانى المعاصر لابن شهيد والمتوفى بعده بثلاثة أعوام يترجم له فى كتابه اليتيمة ويذكر ما نوّه به فى التوابع والزوابع من رسائله وأوصافه البديعة . وكاد الثعالبى لا يترك لابن شهيد معاصرا له فى الأندلس إلا وترجم له مع من ترجم لهم فى جميع الأوطان العربية إذ كان لديه ولدى أسلافنا شعور عام طوال قرون متعاقبة بأن تلك الأوطان جميعا وطن واحد تعمه وحدة أدبية واحدة ، وهو ما نتمنى أن يتحقق من جديد لأوطاننا العربية وأدبنا العربى الخالد .

شوقى ضيف

الأمين العام للمجمع

قام بإعـــداد هـــذا الجـــزء ومراجعته

السيدة / سميرة صادق شعلان

المحررة بلجنة التحرير والشئون الثقافية

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الايداع بدار الكتب ٧٥٧٧ / ١٩٨٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية
١٤٤٩ — ١٩٨٩ — ٢٠٠٢

